نودار دومبادزه

أرى الشمس



دار الحرف العربي

نودار دومبادزه

أرى الشمس



إعداد وتحليل وتقديم

الدكتور رحاب عكاوي



اسم الكتاب:

أرى الشمس

المؤلف:

نودار دومبادزه

اعداد و تحليل و تقديم:

الدكتور رحاب عكاوي

الناشر :

دار الحرف العربي

للطباعة و النشر و التوزيع

زقاق البلاط – بناية فخر الدين

شارع خليل سركيس

تلفون و فاكس : 009611/361045

بيروت – لبنان

E-mail:

daralharefalarabi@yahoo.com

DarAlHarefAlArabi@gmail.com

www.dar-alharef-alarabi-lb@jimdo.com

الطبعة:

الاولى 2015

الخطوط:

علي عاصي

تصميم الغلاف:

فؤاد سليمان وهبي

الترقيم الدولي:

ISBN: 978 - 9953 - 542 - 57 - 7

الطبعة الأولى
١٤٣٦هـ / ٢٠١٥م



دار الحرف العربي
للطباعة والنشر والتوزيع
ص. ب: ١١٣/٦٤٨٠
فاكس: ٠٠٩٦١١/٣٦١٠٤٥
بيروت - لبنان

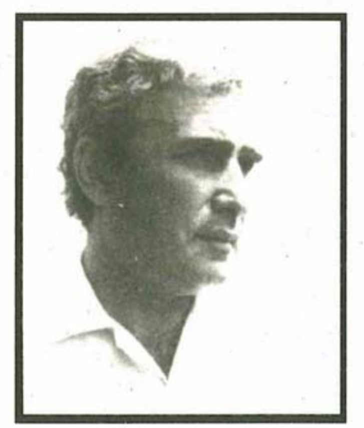
Printed In Lebanon طبع في لبنان

نودار دومبادزه

١٩٢٨ ـ ١٩٨٤

ولد الروائي الشاعر نودار ڤلاديميروڤيتش دومبادزه في الرابع عشر من شهر تموز/ يوليو سنة ١٩٢٨ في تبيليسي عاصمة جورجيا. كان والده يشغل منصب سكرتير لجنة الحزب الشيوعي الإقليمية، فلمّا ألقت السلطات القبض عليه سنة ١٩٣٧، باعتباره «عدو الشعب»، تولّت تربية الصغير البالغ تسع سنوات أسرة من أنسباء الأب في قرية خيديستاقي، غربي جورجيا، حيث ترعرع نودار في تلك القرية وفي كنف الأسرة الطيبة التي أولته الرعاية والعناية.

التحق نودار بجامعة تبيليسي الرسمية وحصل سنة ١٩٥٠ على شهادة في الاقتصاد وكان لا يزال في الثانية والعشرين من عمره. وفي السنة ذاتها ظهرت أولى قصائده الشعرية في دليل الطّلاب السنوي الذي كانت الجامعة تصدره في كل عام دراسي.



نودار دومبادزه

بعد تخرّجه عمل لبضع سنوات في الجامعة كمساعد في المختبر، لكنه لم يتوقف عن الكتابة. وبين عامي ١٩٥٦ و١٩٥٧ نشر ثلاثة كتب هزلية مليئة بروح الدعابة.

في سنة ١٩٥٧ تخلّى نودار عن عمله في مختبر الجامعة ليتفرّغ للكتابة. عمل بداية في إدارة التحرير في مجلات عديدة، وفي كتابة السيناريوهات السينمائية للأفلام الجورجية. وفي الوقت ذاته تابع نشر القصص المرحة ومنها مجموعته «فتى القرية». ثم ما لبث أن سجّل

نجاحاً كبيراً مع رواية «أنا والجدّة وإلكو وإيلاريون» سنة ١٩٦٠.

هذه الرواية الممتعة تدور أحداثها في إحدى القرى الجورجية إبان سنوات الحرب الوطنية الكبرى. كان الرجال الشجعان قد توجّهوا إلى جبهة الحرب مخلّفين وراءهم نساءهم وكبار السن في القرية. وفي قلب هذه الرواية هناك شاب يتيم، جدّته، واثنان سليطا اللسان لكنهما ذكيّان، كما كان هناك جيران كبار السنّ حكماء كرماء يساعدون اليتيم ويحمونه.



نودار دومبادزه مع زوجته

رواية دومبادزه الثانية «أرى الشمس» سنة ١٩٦٠ تدور أحداثها أيضاً خلال سنوات الحرب؛ فهي تصوّر الوضع المأساوي الذي كان يعيشه القرويون وخوفهم على أحبائهم الذين يقاتلون على الجبهة.

في رواية «ليلة مشمسة»، سنة ١٩٦٧، يكافح البطل لإيجاد وسيلة تعيد تأسيس علاقته بوالدته التي عادت لتوّها إلى الوطن بعد اثني عشر عاماً في المنفى. وزيادة في تعقيد موقف البطل كان يجب عليه أن يختار بين أمرين، لا ثالث لهما، إمّا معاقبة الشرير الذي تسبّب لعائلته بالدمار وإمّا إنقاذ حياته.

«أمي لا تخافي» سنة ١٩٧١ تصوّر حياة حرس الحدود السوفييت: الصداقة الذكورية، مأساة فقدان الرفيق، آلام الحب غير المتبادل وتباريحه، كلها مواضيع عالجها دومبادزه بأسلوب شيّق وجرس شاعري. وكان خلال عمله على هذه الرواية قد حصل على إذن خاص

بالخدمة في وحدة دوريات حرس الحدود.

روايته «رايات بيضاء» سنة ١٩٧٣ عالجت مصير شخص حُكِم عليه ظلماً بجريمة قتل لم يرتكبها. كان العديد من أبطال هذه الرواية مجرمين، صوّرهم دومبادزه أشخاصاً مكافحين في علاقاتهم بأبناء مجتمعهم، ولكن مع تفهّمهم لأنفسهم أيضاً.

آخر روايات نودار دومبادزه كانت «قانون الأبديّة» سنة ١٩٧٨. في روايته هذه يروي قصة شخص مصاب بمرض خطير يواجه مفهوم المقاومة بين الخير والشر.

قصّته القصيرة «خلادوس» تحكي قصة فتى يوناني ركب متن سفينة عائداً إلى وطنه التاريخي، لكنه في اللحظة الأخيرة يشعر في نفسه عدم إمكانية نسيان سنيّ حياته الماضية في مدينة «سوخومي» وأصدقائه فيها. وبقرار جريء منه للعودة إلى تلك المدينة قفز من على متن السفينة، لكنه لقي حتفه في البحر.

في روايته «كوكاراتشا»، وهي واحدة من رواياته الأخيرة، يشفق رجل شرطة على مجرم، وفي نهاية المطاف يُقتل هذا الشرطي برصاصة من مسدس المجرم نفسه.



نودار دومبادزه صغيراً

قصته القصيرة الأخرى «رباط الدم» تروي قصة صبي، شبيه بالكاتب نفسه، وُلد سنة ١٩٢٨، ومرة أخرى كالكاتب أيضاً، يفقد أهله خلال سنة ١٩٣٧ من الحرب المدمّرة، ليتمّ إرساله إلى أنسباء في قرية ليترعرع فيها.

كان نودار دومبادزه قد انضمّ إلى الحزب الشيوعي سنة ١٩٦٤. حصل على العديد من الجوائز خلال مسيرته الأدبية بما في ذلك جائزة «روستاڤلي» (جائزة الفنون الأرفع في جورجيا) سنة ١٩٦٦، وجائزة «كومسومول» ١٩٦٦، وجائزة لينين سنة ١٩٨٠.

انتُخب نائباً في مجلس السوڤييت الأعلى في جورجيا (١٩٧١ ـ ١٩٧٨) وفي مجلس السوڤييت الأعلى لاتحاد الجمهوريات السوڤييتية الاشتراكية (١٩٧٩ ـ ١٩٨٤).

وكان عُيّن سنة ١٩٧٤ أمين سرّ اتحاد الكتّاب الجورجيين، كما شغل منذ سنة ١٩٨١ إلى حين وفاته منصب رئيس هذا الاتحاد.

توفي نودار دومبادزه في تبيليسي في الرابع عشر من شهر أيلول/ سپتمبر سنة ١٩٨٤ ودفن في «مدينة الأطفال» مزيوري التي أسسها بنفسه. وفي عام ٢٠٠٩ نقل جثمانه ليدفن في پانيثون متاتسميندا.

أرى الشمس

ذكرنا أنّ رواية نودار دومبادزه «أنا والجدّة وإلكو وإيلاريون» استرعت يوم صدورها انتباه القراء نحو الكاتب الشاب. ثم صدرت روايته «أرى الشمس» خلال وقت قصير بأعداد كبيرة من النسخ عن بعض دور النشر في تبيليسي وموسكو. وقد منح لقاء روايتيه هاتين «جائزة الشباب» الأولى سنة ١٩٦٦، كذلك حظي الفيلمان اللذان تم إخراجهما استناداً إلى روايتي دومبادزه بنجاح كبير بين المتفرجين.

تدور أحداث «أرى الشمس» خلال سنوات الحرب في قرية جورجية هادئة، تصوّر الوضع المأساوي الذي كان يعيشه القرويون وخوفهم على أحبائهم الذين يقاتلون على الجبهة.

«أرى الشمس» عبارة كانت تردّدها الفتاة الصغيرة خاتيا، العمياء، ذات العينين الزرقاوين الجميلتين، وهي عبارة كانت تروق لصديقها الصبيّ سوسويا الذي كان ينتظر أن تستردّ بصرها لتراه، ألم يقل الطبيب

لها «طالما أنت ترين الشمس فإن الأمل كبير في شفائك من العمى».

هي، الفتاة الطيّبة تعيش مع أبيها، وهو الصبي اليتيم يعيش مع عمّته التي أشرفت على تربيته وتنشئته، وكرست سنيّ صباها له فلم تتزوج، فكان يسألها عن سرّ عدم زواجها، وكانت تجيبه دائماً «لم يتقدّم لخطبتي أحد».

لكنّ هذا «الأحد» كان موجوداً، وكان يحبُّها، وسوسويا كان يدرك هذا من خلال زيارة الرجل المتكرّرة إلى المنزل.

ويشاء القدر أن يلتحق الرجل بالذاهبين إلى جبهة القتال، فيودّع العمة على أمل اللقاء، لكن عودته لم تطل إذ سرعان ما ترك الجبهة عائداً إلى القرية، فارًّا، مدّعياً أنه لا يريد أن يموت وإنما يريد أن يبقى إلى جانب العمّة.

ترفضه العمة، وتطرده من المنزل، ويستاء الصبي من تصرّفه، فيغادر ليصبح منبوذاً، ملتجئاً إلى الغابة.

ويتدخّل القدر مرة ثانية ويحمل إلى بيت العمة الجندي الروسي الجريح، فتعالجه وتسهر على العناية به، لتنشأ بينهما بعد ذلك قصة حبّ رومانسي بريء تضفي على البيت نوعاً من البهجة.

لكن الروسي الشاب لا يلبث أن يعود إلى الجبهة، لتبقى العمّة على أمل اللقاء مرة أخرى.

وتضع الحرب أوزارها، ويعود بعض من كانوا على الجبهة إلى القرية، وبعضهم لا يعود.. والشاب الروسي لا يعود أيضاً.

ها هو سوسويا الفتى ينتظر عودة خاتيا التي صحبها أبوها إلى باتومي لإجراء العملية الجراحية، وها هي العمة تسأل الركب العابر عن الروسي، وتسأل ساعي البريد «أما من رسائل باسمي؟».

تعود خاتيا.. ولا يعود الجندي الروسي..

وسوسويا يخاطب نهر سوبسا... والدرب:

إلى أين تجري، أيها الدرب، وإلى أين تمضي بقريتي؟ هل تذكر كيف انتزعت منّا، في ذلك اليوم، كل شيء، ثم أعدت إلينا كل ما قدرت عليه؟ أنا شاكر لك صنيعك أيها الدرب. والآن آن أواننا، ستضمّني أنا وخاتيا في رحابك، ولن تحمل نبأنا إلى القرية في تبليغ رسمي.

سنعود ميمّمين وجوهنا شطر المشرق الذهبي، وعندئذ سترتفع الشمس من وراء جبال سوديبي، وتقول خاتيا بصوت عال: أيها الناس، هذه أنا، وأنا أراكم.. أنا أستطيع أن أرى الشمس.

*

العمة كيتو

جثم عصفور صغير أزغب على فنن شجيرة علّيق وغرّد تغريداً رائعاً، حتى أنَّ العمَّة تركت عملها في المطبخ، وأخرجت إلى الفناء مقعداً ذا ثلاثِ قوائم، وجلست تصغي. وكنت مستلقياً على العشب، فأصغيت أيضاً مغمض العينين. زغرد العصفور، وطرَّب على كل الأنغام، فتناغمت معه في سرّي محاولاً جهدي أن أواكبه إلى أن يكفَّ عن التغريد، إلاّ أن نَفَسي لم يسعفني. كان العصفور يصمت بين الفينة والأخرى، ويرنو بعين واحدة، كما تفعل الطيور، إلى حيث كانت الشمس تغرب، ثم يعاود تغريده مرة ثانية. بدت الشمس ككرة حمراء هائلة، مثل صينية نحاسية ضخمة، تنحدر بتثاقل، إلى ما وراء حدود الأرض، بينما البيوت المتناثرة في وادي «سوبسا» تتوهَّج بنورها.

تناهى صوت من الشارع: كيتو!

كفّ العصفور عن التغريد في الحال.

ـ سوسويا، يا سوسويا!

ـ ادخل! صرخت رادّاً بلهجة غير راضية، ورفعت جسمي عن العشب. رأيت رئيس الفريق داتيكو يدخل الفناء. حيّانا قائلاً:

ـ مرحباً!

ردّت العمة على التحية بمثلها، ونهضت فاصطحبت الضيف إلى المطبخ.

استلقيت على العشب ثانية، وأخذت أنتظر أن يعاود العصفور ترانيمه، إلاّ أنَّه لم يستأنف الترنيم. عندئذ نهضت، ودخلت المطبخ أيضاً. كان داتيكو يقصُّ على العمّة شيئاً ما، وعندما رآني صمت على الفور. كانت العمّة جالسة أمام الموقد ممسكة ركبتيها بيديها، تحدّق

إلى الجمرات الحمراء المتّقدة في كومة النار. أخرج داتيكو كيس التبغ من جيبه، ولفَّ لفافة، ثم تناول من الموقد جمرة وأشعلها، ففاح على الفور تبغ بيتيّ حاد. نظر إليَّ داتيكو وقال:

ـ اسدني معروفاً يا سوسويا، واجلب إليَّ شربة ماء.

تناولت كوز الماء عن المنضدة.. و..

ـ لا، اجلب لي ماء بارداً.

عندما عدت بآنية مملوءة بماء بارد، كان رئيس الفريق يحدّث العمّة بشيء ما مرة أخرى، وعندما لمحني صمت من جديد. ملأت قدحاً بالماء وناولته إياه فشرب الماء في غير ما رغبة.

ـ هل تريد المزيد؟

ـ لا.. شكراً، يا عزيزي، لا أستطيع أن أشرب أكثر من هذا القدر.

ـ اشرب قدحاً صغيراً آخر. طلبت إليه متهكّماً، ناظراً إليه بعينين بريئتين. واكتفت العمة بالابتسام.

قال لي داتيكو فجأة:

ـ اخرج يا سوسويا وانظر لماذا ينبح ذلك الكلب.

قلت:

ـ إذا دخل أحد الفناء فسينبح.

تجهّم وجه داتيكو وبدت عليه الحيرة. ثم توسَّل إليَّ أخيراً وقال:

ـ اخرج لدقيقة يا ولد، عندي كلام مع العمّة كيتو.

قلت له:

ـ إذا كنت تريد أن تقول شيئاً فقله بحضوري.

ثم إنني ثبّت نفسي في جلستي بحيث لو أُخرجت قسراً من المطبخ لأُخرجت مع المقعد في أغلب الظن.

ـ اسمع، يا ولد، لعلك لا تميِّز بين الكبير والصغير، ولا تعرف احترام الضيف!

قال داتيكو ذلك وحدجني بنظرة أدركت منها أنه لولا وجود العمة لجرّني من أذني إلى الفناء.

ـ أنا لم أر في حياتي ضيوفاً يأتون كل مساء!

ـ اصمت، يا سوسويا! صاحت العمة بغضب آخر الأمر.

ـ أنا رئيس فريق، ولي الحق في أن أزور كل بيت إذا احتجت إلى ذلك.

ـ حسناً، ما دمت رئيس فريق، وتستطيع زيارة كل بيت، اذهب الآن وزر الآخرين!

ـ يا كيتو، لماذا يهاجمني ابن أخيك بهذا الشكل؟ يبدو كالوحش مكشّراً عن أنيابه؟!

هزّت عمتي رأسها، وسألته:

ـ ماذا تريد أن تقول لي يا داتيكو؟

عاد داتيكو إلى عبوسه، واستأنف القول بصوت مخنوق:

ـ غداً سنخرج إلى «ميريا» لنحرث حقول الذرة، فاسمحي لفتاك أن يذهب معنا.

ثم صرخ بي:

ـ والآن، هل فهمت لأي غرض جئت؟

أجبته بلهجته عينها: فهمت!

ابتسمت العمّة وانحنت على الموقد، ورفعت من مقلاة فخارية صفيحة حديدية عليها كومة من الجمر المتوقّد، ونقرت على فطيرة الذرة بأصبع معكوفة، ونقلتها من المقلاة إلى فوطة، ثم أخرجت من

جرة فخارية قرص جبن وعصرته ووضعته على فطيرة الذرة. أدرك رئيس الفريق أن العمَّة تعدُّ لي فطوراً. قالت العمَّة:

ـ اذهب الآن، يا داتيكو.

توجّه داتيكو إلى الباب، وقال لي وهو على العتبة:

ـ سنجتمع في الفجر عند مكتب البريد، فتعال إلى هناك، يا سوسويا. يا لك..! كيف لا تخجل من المشاجرة معي؟ ماذا بيننا من خلاف؟ هلاّ تصالحنا؟

هززت رأسي، وقال داتيكو للعمة:

ـ سأُسجّل له أيام العمل كالكبار تماماً.

هزت هذه رأسها صامتة. وانصرف داتيكو.

تحت شجرة مُشْمَلَة(*)، في الفناء، كانت هناك معزقة(**)، حملتها إلى ساقيتنا، ووضعتها في الماء. أخرجت العمة مصباحاً من المطبخ، وأغلقت الباب بالمزلاج، وصعدنا إلى الغرفة لننام.

عمتي في الواقع مدرّسة للغة الجورجية، وهي أثقف وأجمل امرأة في قريتنا. إنها، أقسم بالله، كالعذراء المحفوظة أيقونتها في صندوق جدّي، في القعر منه تماماً. ولكنَّ العذراء تدعى مريم، وعمتي تدعى كيتو. لربما كان ذلك بسبب جمالها الشديد، وشبهها بالعذراء. لم يجرؤ أحد أن يكشف لها عن حبه ومكنون قلبه، فلم تتزوج حتى اليوم. وأنا أحب عمتي حباً جماً، وأخشى أن تتزوج. أمّا هي فتشعر بكل ذلك، في أغلب الظن، وتدرك كلَّ شيء، ولهذا ما من شيء يستطيع أن يجبرها على اتخاذ هذه الخطوة.

(*) جنس شجيرات برية وزراعية ثمارها كثمار الأكيدنيا لكنها أصغر حجماً وأقل حلاوة.

(**) المِعْزَق والمِعْزَقة: الآلة من حديد ونحوه ممّا يُحفر به، والمعزقة هي المذراة التي تُذرّى بها الحنطة.

ها أنا مستلق على ظهري في سريري، أتمدّد مفتوح العينين وأنادي:

ـ عمتي!

ـ ماذا تريد يا صغيري؟

ـ هل أنت نائمة، يا عمتي؟

ـ قُل... ماذا تريد؟

ـ ما حاجة داتيكو ، رئيس الفريق هذا، إلى أن يتردَّد إلينا كل مساء؟

ـ لا أعرف، يا عزيزي.

ـ لا داعي لمجيئه!

ـ لا أستطيع أن أطرده، يا صغيري.

ـ لا داعي لمجيئه... إنه يأتي، ويطيل الجلوس، ويأمر: اجلب لي ماء، اذهب وانظر لماذا ينبح الكلب، تعال هنا، واذهب إلى هناك.. ولكنني أعرف ما يبغي من وراء هذا الكلام.

وتصمت العمة. وبعد بضع دقائق أعود فأسألها:

ـ كم عمرك الآن، يا عمة؟

ـ نم، يا صغيري.

ـ قولي!

ـ خمسة وثلاثون عاماً.

ـ لماذا لا تتزوجين؟

وتصمت. وأسمع صوت أنفاسها الهادئة، وأنتظر جوابها. إلاّ أنها تمضي في صمتها.

ـ ها، يا عمتي؟

ـ نم، يا صغيري. عليك أن تستيقظ مبكِّراً في صباح الغد.

ـ لماذا لا تتزوجين يا عمة؟

ـ لا أحد يقبل بي زوجة، لا أحد تروق له عمتك.

ـ هذا غير صحيح. الجميع معجبون بك، وداتيكو يحبك... نعم يحبك!

ـ وأنت، هل تريد أن أتزوّجه؟

ـ لا، لا أريد.

ـ حسناً، اغفُ الآن.

وأغفو، وأحلم بعمتي واقفة أمام كنيسة القرية، فرعاء حسناء، في فستان الزفاف الأبيض، وأمامها يركع جميع رجال قريتنا، وأنا أتوسّل إليها أن لا تتزوج، فتخلع فستان الزفاف الأبيض، وتأخذ بيدي، ونعود معاً إلى البيت.

استيقظت باكراً، ونهضت بهدوء، وارتديت ثيابي، وقبّلت بحذر وجنة عمتي النائمة، وهرعت إلى المطبخ ووضعت فطوري في حقيبتي المدرسية، ثم اغتسلت عند الساقية، وأخرجت المعزقة من الماء، وجريت إلى مكتب البريد.

تباطأت كثيراً. كان عليَّ أن أتحدَّث إلى من أقابله من الأولاد في الطريق.

وعندما وصلت كان أفراد فريقنا مجتمعين منذ وقت طويل. كانوا جميعاً واقفين متكئين على المعازق، وقد رفعوا رؤوسهم إلى الأعلى، محدّقين إلى عمود شُدّت إليه سمّاعة مكبّر صوت قديمة مستهلكة. كان ثمة شيء يخشخش فيها، ويهسّ، ومن خلال هذه الهسهسة ارتفع صوت المذيع. لم أفهم عمّا كان يتحدث. وعندما دنوت صمتت السمّاعة، غير أن الجميع ظلوا صامتين، بل إنهم لم يبدوا حراكاً.

ـ مرحباً! قلت أنا.

ولم يردّ أحد.

ـ مرحباً، يا قوم.

كررت إلقاء التحية بلا جرأة، وفي هذه المرة أيضاً لم يجب أحد.

سألت جارنا:

ـ يا عم غيراسيم، ماذا حدث؟! وجذبته من كمِّه.

قذفني بنظرة فارغة، ثم جلس على درجة، وأخرج كيس التبغ، ولفَّ لفافة وشرع يدخن، وكأنني لم أسأله شيئاً، وكأنه لم يرني.

ـ يا عم أسالو، هل أنت إنسان أم لا؟ قل لي ماذا حصل؟ سألت متضرِّعاً أسالو الذي كان يجلس إلى جوار غيراسيم.

نظر إليَّ هذا بتركيز، ثم استدار، وتحدّث بصوت خافت:

ـ إنَّها الحرب، يا سوسويا، الحرب!

ـ أي حرب، يا عم أسالو؟!

ـ اقتتال، قتل الناس وإراقة الدماء، ألا تفهم؟

ـ الحرب ضد مَن؟

شمر أسالو كمَّه.

ـ ضد من؟! كرّرت سؤالي، وتلفتُّ فيما حولي.

كان الناس يقفون شاحبين، مذعورين، صامتين. ونطق شخص في نهاية الأمر:

ـ ضد ألمانيا.

ـ أيّ ألمانيا؟

ـ ضد العفريت.

قال أسالو غاضباً.

لم أر من قبل مثل هذا العدد الكبير من الوجوه المتجهّمة والذاهلة في الوقت ذاته.. تملّكني رعب شديد فجأة، وكأنني أجتاز مقبرة وحدي في ظلام الليل.

جلست إلى جانب العم غيراسيم، ووضعت يدي على ركبته. نظر إليّ باستغراب، ثم مسّد على رأسي بلطف، وقال:

ـ عد إلى البيت، ولا تخش شيئاً، أيها الصبي!

نهضت، وسرت ببطء شديد، فصاح بي غيراسيم:

ـ خذ المعزقة والفطور!

عدت ورفعت الحقيبة والمعزقة عن الأرض، حملتهما واتجهت ناحية البيت ثانية.

عندما اقتربت من الجسر على نهر سوبسا كانت الشمس قد ارتفعت في السماء فوق الجبال. سرت مثبّتاً بصري على مواقع قدميّ.

ـ التحية لسوسويا ماما لادزه!

رفعت رأسي ورأيت لوكا بوتسخيشفيلي. كان يحمل على ظهره سلة عالية، والعرق يتصبّب على وجهه.

ـ أسدِ إليّ معروفاً وساعدني على إنزال هذه السلة.

ساعدته، ووضعنا السلة على الأرض. ارتمى لوكا على العشب النامي على جانب الطريق. ثم أشار إليّ بيده أن أجلس إلى جواره.

جلست، فقال:

ـ إنه تفاح أحمله لأبيعه... أنت تعرف شجرة التفاح في فناء بيتي قرب الحظيرة... عنزتي أتعرفها؟ إنها على وشك أن تلد، والبقرة ستضع عجلاً قريباً أيضاً. لا، يجب أن تنظر أي تفاح هذا! خذ تفاحة من السلة، وانظر أيّ تفاحة هي! ولكن لا تأكلها.. إنها للبيع فقط. تعال

إلى البيت وكل قدر ما تشتهي. هل معك تبغ؟

أخرجت كيس التبغ من جيبي، ووضعت على كفّه المبسوطة قبضة من التبغ. شمَّه لوكا، وهزّ رأسه عن رضًى، وتابع قوله:

ـ اليوم يوم طيب للعمل، ولكنني قررت أن أكسب بعض المال. لربّما تحمل ورقاً أيضاً.

أعطيته ورقاً للفّ التبغ.

استطرد:

ـ لو طلبت من رئيس فريقنا لقال: عليك أن تخرج لعزق الذرة كل يوم في الحقل الكولخوزي(*)، أمّا شؤونك فلتذهب إلى جهنّم الحمراء. هل معك كبريت، يا سوسويا؟

ناولته علبة كبريت، فأشعل لفافته، ودخّن بتلذّذ. ثم قال:

ـ وماذا يهمه هو؟ لا أولاد، و لا مشا ال، بل هو سيد نفسه، وهو يقول أيضاً: أرسل ابنك ليساعدنا، بينما ابني سيدخل المعهد هذا العام، وليس لديه وقت لحفر الأرض. لن تمرّ هذه اللعبة. وأنت ما رأيك؟ هل أصبت بالبكم، تحدّث بشيء!

ـ يا عم لوكا، الحرب بدأت.

سأل لوكا بخفوت دون أن ينظر إليَّ:

ـ مع مَنْ؟

ـ ألمانيا؟

ـ ضدّ مَن؟

ـ ضدّنا.

ـ ضد مَن.. «ضدَّنا»!؟

(*) الكولخوز: كلمة روسية تعني أراضي جماعية يتقاضى فيها الفلاح أجراً على عمله.

ـ ضدّنا، ضد الاتحاد السوفييتي.

ـ متى بدأت؟

ـ اليوم.

وفجأة امتقع وجه لوكا امتقاع الأموات. اختنق بالدخان وسعل. ظل يسعل طويلاً، ثم أخرجت حنجرته صفيراً، وقبض على يدي بقوة حتى أن أصابعي ازرقّت. وانقضى بعض الوقت وهو على هذه الحال، ثم ارتدّت إليه أنفاسه، قال:

ـ من أخبرك بهذا، أيها الفتى؟

ـ تحدّثوا في المذياع، صباح اليوم.

ـ اسكت!

ـ نعم، لقد تحدّثوا.

سألني لوكا بضراعة:

ـ قل الحقيقة، ربما أنت تهزل يا صغيري؟

ـ لا، تحدث المذياع بذلك صباح اليوم.

ولم يسأل لوكا سؤالاً آخر، بل لبث جالساً في صمت وقتاً طويلاً، محدِّقاً إلى العشب عند قدميه. ثم نهض أخيراً، محنيّ الظهر، كالح الوجه. وقال لي:

ـ ساعدني لرفع السلة على ظهري.

وانطلق عائداً إلى البيت، وبعد أن قطع مسافة التفت إليّ، وأراد أن يقول شيئاً، إلاّ أنه عدل عن ذلك على ما يبدو، وظل واقفاً يحدق إليّ.

ـ ماذا تريد، يا عم لوكا؟

لم يجب بكلمة، ولوّح بذراعه، ونكس رأسه، وسار صامتاً.

عندما دخلت المطبخ رأيت عمتي تخلط دقيق الذرة بيد واحدة في

جفنة خشبية، وتصبُّ الماء بالأخرى من إناء الماء. كان الباب مفتوحاً، وكنت قد دخلت بهدوء تام حتى أن عمتي لم تسمع وقع خطاي.

ـ يا عمتي، اليوم صباحاً بدأت ألمانيا الحرب ضدنا.

رفعت رأسها، وثبّتت بصرها فيّ مشدوهة.

ـ أعلنوا ذلك اليوم في المذياع.

ارتعشت يدا عمّتي، ولم تصرف عينيها عني، وظل الماء ينسكب بخط متعرِّج من الإناء إلى الجفنة، ثم على الأرض. نظرت إلى يدي عمتي، وصمتُّ.

ـ أتدرك، أيها الصغير، ماذا تقول؟

سمعت صوتها العميق وكأنه صادر من غور سحيق.

هززت رأسي نفياً.

لم أكن قد فهمت، ولكنني شعرت بأن مصيبة كبيرة قد حلّت، كبيرة بشكل لا يصدَّق.

يوم الرحيل

في باحة نادي المنطقة عجاج من الناس يبكون، وينشدون، وينوحون، ويسألون، ويعد بعضهم بعضاً. يتعانقون، ويتبادلون القبل، يتواصون، ويرشدون، ويهدِّدون ويلاطفون، ومرة أخرى يعد بعضهم بعضاً، يتعانقون ويتبادلون القبل، وهكذا إلى ما لا نهاية...

جلس العم غيراسيم على العشب، تحت شجرة توت متشابكة الأغصان، يدخّن مثبتاً بصره على ابنه الذي كان يصرخ «اوها!» ويتلاقف عالياً فتاة صغيرة، والفتاة تمد ساقيها الصغيرتين، وتضحك مزغردة. والزوجة ماشيكو السوداء ـ وهذه كنيتها ـ تقف إلى جانب

زوجها مطرقة الرأس، مثل شجرة قبيل العاصفة، تعضّ شفتها، والدموع تنهمر غزيرة على خديها الأسمرين.

وكان أسالو غوداڤادزه يجلس على درجات النادي، وإلى جانبه ابنه، وعند قدمي الابن زوجته الشابة تضع رأسها على ركبتيّ زوجها.

ويقول ابن أسالو:

ـ لا تتركها تذهب إلى بيت أمها، يا أبي.

ـ لا، يا ولدي، لن أتركها.

ـ وأنت، يا مارغاليتا، لا تهجري أبي وتتركيه وحيداً.

ولا تجيب الزوجة، بل يعلو نحيبها.

ـ سأعود قريباً، يا أبي.

ـ نعم، يا بُنيَّ.

ـ حسناً، يا مارغو، هذا يكفي! هل تظنين أنني ذاهب إلى الحرب وحدي؟

وتجهش مارغاليتا بالبكاء. ويهدِّئها زوجها برقة. ويقول أسالو:

ـ حذار يا بنيَّ أن تجلب العار لعشيرتك.

ويبتسم الشاب ويقول:

ـ اطمئن، يا أبي، سأجلب لك رأس هتلر، عندئذ ستعرف أي ابن هو ابنك.

فيرد أسالو:

ـ ارجع برأسك، يا بنيَّ، فهو عندي أثمن.

ومارغاليتا ماضية في نحيبها.

ـ اعتن بها، يا أبي.

ـ نعم، يا بني، وما الحاجة إلى أن تقول لي ذلك؟

ـ يا أبي...

وتردّد الشاب في القول ثم غضّ بطرفه.

ـ ما الأمر؟ قل، يا بنيَّ.

إنَّهما شهران أو ثلاثة لا أكثر، بالطبع... لا تجعلها تحمل الماء، ولا الحطب، ولا تدعها تذهب إلى الطاحونة. كما أن لاحاجة إلى خروجها إلى الحقل!

ويهز أسالو رأسه إشارة إلى الموافقة.

ـ إنَّها لن تقول شيئاً، ولكن لا تسمح لها أنت بأن ترفع ثقلاً.

ويبتسم أسالو برقة ولوعة، ويهز رأسه مراراً.

ويحاول لوكا لفَّ لفافة، ولكن أصابعه ترتعش ولا تطيعه، وتنشق الورقة الرقيقة، ويتناثر التبغ. وآخذ أنا كيس التبغ من يده، وألفّ واحدة، وأقدمها إليه. وينظر لوكا إليَّ شاكراً، ويشرع بالتدخين. وترتجف شفتاه. ويسألني:

ـ ماذا أفعل مع هذا الفتى، يا سوسويا؟

ولا أعرف بالضبط ماذا ينبغي أن يفعل لوكا مع ابنه كوكوري. وكوكوري واقف بين رفاقه المتحمّسين، المنفعلين، يتحدث بصوت عال عن شيء ما. والفتيان يتضاحكون بضوضاء.

ـ سيحلقون رؤوسهم جميعاً ـ يشكو لوكا وكأن تلك هي المصيبة الكبرى.

فأهدِّئه وألاطفه:

ـ لقد حلقوا رؤوسنا حتى ونحن في المدرسة.

ـ مصاب غيراسيم يهون، فإنَّ له حفيدة على الأقل. أمّا أنا فأي شيء يبقى لي؟

ـ سيعودون بسرعة، يا عم لوكا.

ـ لا يعودون جميعاً، يا سوسويا!

فأقول واثقاً:

ـ سيعودون جميعاً!

أعرف أنهم جميعاً سيعودون. لم أسمع حتى الآن أنَّ شخصاً ذهب إلى الجيش ولم يعد. وأنهض، وأتجه نحو فتيان قريتي، نحو الذاهبين إلى الحرب. كانوا ثملين بعض الشيء، ويبتسمون لي، ويقبّلونني، وأنا أبتسم لهم أيضاً، وأقبّلهم.

ـ هل أنت راحل، يا أنزور؟

ـ راحل، يا سوسويا.

ـ ستعود، يا أنزور؟

ويبتسم أنزور، وعروسته ماكڤالا متشبّثة برقبته، وهي تبكي، وتسأل أيضاً من خلال دموعها:

ـ قل يا أنزور، هل ستعود؟

ـ سأعود بالطبع.

ـ وأنت، يا نيكوشا؟

ـ سأعود، يا سوسويا. ألا تذهب معنا؟

ويضحك نيكوشا، فيقول أبيبو:

ـ ومَن يقبله؟ لا يزال صغير الأنف.

ـ أنف أخيك أياغور لا يزال صغيراً. أمّا أنا فسوء الطالع فقط.

وتضحك الفتيات.

ويقول جيمشير مهدِّداً:

ـ يا سوسويا، انظر كم سنترك لك من الفتيات، فحذار أن يأكل أبناء

آوى هذه العنزات! وإلاّ فسنعود ونهرئ جلدك.

فأجيب:

ـ كل مَنْ كان ابن آوى سيرحل اليوم، ولا أحد سيأكلهن.

وتضحك الفتيات ثانية، وأنتقل أنا إلى جماعة أخرى. ويسألونني هناك:

ـ مَنْ تودِّع، يا سوسويا؟

ـ ألستَ ذاهباً؟

ـ ذاهب بالطبع، يا سوسويا.

ـ إذاً، جئت لأودِّعك.

ويشدّني تاماز إلى صدره، ويقبِّلني، ويسأل همساً:

ـ ومَنْ تودِّع عمتك، يا سوسويا؟

كانت عمتي واقفة عند السياج، أمام داتيكو تماماً، غير رافعة بصرها عنه. وداتيكو يتحدث عن شيء، والعمة تصغي. وأنظر إلى داتيكو، وأراه شديد الشحوب، يمسك بيد العمة، وهي لا ترفض. ويمسك باليد الأخرى، ويظل ممسكاً بيديها كلتيهما. ويقفان متقاربين جداً. وأنظر إلى عمتي. وأراها بادية الشحوب أيضاً. إنَّها الآن تشبه العذراء تماماً. ولكنني لم أعد أخشى أن تتزوج، وأن ينتزعها أحد مني. فلا أقترب منهما، وتشعر العمة بنظراتي، وتلتفت إليَّ. وينظر داتيكو إليَّ أيضاً، ويدعوني:

ـ سوسويا، تعال هنا، أيها الصبي!

أقترب، وأقف إلى جانب عمتي.

يسألني داتيكو مداعباً وجنتي:

ـ هل أنت غاضب عليَّ، يا سوسويا؟

ـ وما الذي يغضبني عليك؟

أقول هذه الكلمات وأهم بالانصراف.

ـ لا تذهب، قف معنا قليلاً.

وأبقى معهما.

ـ ها أنا ذاهب إلى الحرب، يا سوسويا.

ـ الجميع ذاهبون!

ـ اعتن بعمتك، فأنت الآن رجل.

ـ سأعتني بها، دون حاجة إلى كلماتك! أعرف ذلك بنفسي.

ـ أنت تعرف كم أحب عمتك...

ـ أنا أحبها أكثر منك!

ـ سأعود قريباً، يا سوسويا، وسنكون سوية.

ـ سيعود الجميع، وسيكونون سوية جميعاً.

ـ لا يعود الجميع، يا سوسويا!

ـ سترى كيف يعودون جميعاً.

وتدخل فناء النادي جماعة حاشدة من الشبان. وفي الوسط فتاة جميلة ذات شعر أحمر متوهِّج كتوهّج النيران. وتغني:

حبيبي ذاهب إلى الحرب
وأنا راحلة معه على الدرب

ومن ثم خرج المفوض العسكري إلى الشرفة، وألقى كلمة. بدأ بالتحدّث عن أسباب الحرب العالمية الأولى، وعن نتائجها، ثم تحدّث عن جبروت جيشنا، وعن طائراتنا، ودباباتنا، ومدافعنا، وجنودنا الذين سيدخلون برلين، إن لم يكن اليوم فغداً، حسب تقديراته. وبعد انتهاء كلمته عزفت فرقة الموسيقى الهوائية التابعة للمنطقة لحن النصر. ثم

وضع الموسيقيون آلاتهم على العشب، وأخذوا يودِّعون قائد الفرقة. وهرعت النسوة للتوّ نحو السيارات.

ـ لا ترحل، يا أنزور!

ـ ستقتلني، يا مهجة القلب!

ـ لا تتلكّأ، واكتب بالتفصيل!

ـ لا تقتلني حزناً عليك، يا ولدي!

ـ لا تضع رأسك تحت رصاص هؤلاء الملاعين.

ثم يرتفع صوت جهوري:

ـ هيّا، أم لعلك بلا قلب؟ لا أستطيع أن أنظر إلى ذلك أكثر!

ـ اصعد، يا أميران، لن نلبث أن نفترق حتى تنتهي الحرب بالتأكيد!

وتحرّكت السيارات. حملت عشر شاحنات إخواننا وآباءنا، وعلى طول الطريق كنّا نحن: الأطفال، والأمهات، والزوجات، والأخوات، والآلات ملقاة على العشب يتامى وأيامى. بينما وقف قائد الأوركسترا الشيخ ساتراً وجهه بيديه، وكتفاه المرتخيتان ترتعشان.

في ذلك اليوم رأيت، لأول مرة، الدموع في عيون هذا الجمع من الناس، وعرفت الغمَّ، ولأول مرة رأيت عمتي تبكي. كان هذا اليوم بالنسبة إليَّ أشبه بجزر في البحر، حين يتكشف فجأة الساحل الرملي، وتتخلّف الأسماك والأصداف والقواقع والشظايا.

وبدا لي أننا، في تلك اللحظة بالذات، كنّا تلك الأسماك والأصداف والقواقع والشظايا على ساحل البحر المُعرَّى.

*

ها أنا مستلقٍ على ظهري في سريري أحدق إلى العتمة.

ـ عمتي!

ـ ماذا بك، يا صغيري؟

ـ هل أنت نائمة، يا عمتي؟

ـ لا، لست نائمة.

ـ رحل داتيكو، يا عمتي.

ـ رحل الجميع، يا سوسويا.

ـ وهل سيرحل آخرون بعد؟

ـ سيرحل الكثيرون يا سوسويا.

ـ وإذا لم يعد داتيكو، يا عمتي؟

ـ نم، يا صغيري!

ـ لا، ماذا ستفعلين إذا لم يعد؟

ـ لن يعود كثيرون، يا سوسويا، كثيرون جداً.

ـ وهل ستبقى المدرسة، يا عمتي؟

ـ ستبقى، نم.

ـ عمتي!..

ـ اغف!

وأغفو، ولا أحلم بشيء.

الضريرة

أفرغت الحرب دكان القرية أيضاً. اختفى من دكانها بالتدرُّج السكر، وعلب الكبريت، والزبدة، والصابون، والخبز، والكاز، وأخيراً اختفى البائع لاسا نفسه. ثم نما العشب الطفيلي في الحقل، ولم

يبق في الطاحونة غير عجلة واحدة، ونفدت مؤونة الحطب عند الكثيرين، وطلبت إليَّ العمة ماترونا أن أقطع الشجرة في فناء بيتها. ثم ذبلت دوالي الكروم التي انقطعت عنها الرعاية والسقاية، ونفد الدقيق في الخزان الكبير، وشحّت المناخل أكثر فأكثر. وخبزت عمتي مرة فطيرة من الدقيق الأسمر. وذات ليلة استيقظنا على صراخ يمزِّق شغاف القلب، لقد مرّت في شوارع قريتنا، في اليوم الثلاثين من بداية الحرب، أول امرأة في ثياب الحداد.

والآن صار كل صباح يبدأ بالصراخ المدوّي لرئيسة فريقنا الجديدة كسينيا. كانت تصعد على مرتفع من الأرض، وتكوِّر كفّيها على فمها كالبوق، وتُقاقي، وكأنها دجاجة أُخرجت من قنّها:

ـ ماترونا، كفاك نوماً!

ـ ماشيكو، اخرجي إلى المزرعة!

ـ كيتو.. ساعدينا اليوم!

ـ سوسويا، أصمَّك الله!

ـ غيراسيم!..

دعت كلَّ من كان في القرية، فخرجنا نحن وكل مَنْ كان يقوى على العمل، وخرجت خاتياً أيضاً، ابنة بيساريون شاليكاشفيلي. ولم تكن بحاجة إلى أن تُدعى، فقد كانت تستيقظ قبل الجميع، وتصفِّف ضفيرتيها الذهبيّتين السميكتين وترفعهما تاجاً على رأسها، وتتوجّه إلى المزرعة. وكانت تُحيّي الجميع بصوت عال، ولكن لم تكن تنظر إلى أحد، بل كانت ترنو إلى البعيد، وتبتسم لأفكارها. كانت خاتيا تتوقّف بحذر عند الأخدود، وتلتقط في حذر أيضاً أشد أماليد الشاي بأصابعها الدقيقة الجميلة. ولمّا كنّا نعزق في الحقل، كانت تجثو على ركبتيها، وتقطع النباتات الطفيلية التي تنمو بين الذرة، أو تجلس عند حافة

الحقل، وتحدق بعينيها الزرقاوين الجميلتين إلى المدى اللاّنهائي.

كانت خاتيا ترباً لي، وكنا نذهب سوية إلى المدرسة، ونجلس في المقعد الأخير في الصف السادس، وننظر سوية إلى اللوحة السوداء اللامعة، حيث كانت المعادلات مكتوبة بأرقام بيضاء. ولكن خاتيا لم تكن تراها، ولم تكن تكتب شيئاً قط، بل كانت تصغي فقط، وتحفظ كل شيء عن ظهر قلب. لقد ولدت خاتيا عمياء، ومع ذلك فقد كانت أجمل وأذكى فتيات صفنا.

في الصباح الباكر، ودخان الفجر الأزرق لم يتبدّد بأشعة الشروق بعد، وأنا جالس في سريري، والعمة تخيط زراراً في قميصي، تردّد وقع خطوات في الشرفة، وارتفع صوت خجول:

ـ يا عمة كيتو!

كان أي شخص في قريتنا يستطيع أن يحدس صوت خاتيا دون أن يخطئ، ولم تسأل عمتي من القادم، بل دعت الضيفة إلى الدخول. قالت خاتيا وقد توقّفت عند العتبة:

ـ صباح الخير.

ـ صباح الخير، يا خاتيا، لماذا استيقظت مبكِّرة جدّاً، أم أنك كنت نائمة مع الدجاج في القن؟

ـ لم أنم هذه الليلة قط، يا عمة كيتو!

ـ ما الذي حدث؟

ـ هل سوسويا في البيت؟

ـ أنا هنا، يا خاتيا، ماذا تريدين؟

ـ لا أستطيع إذاً أن أخبرك يا عمة كيتو. فلينهض، وليخرج من الغرفة.

نظرت العمة إليَّ بدهشة، وأشارت إليَّ بالخروج.

قلت لخاتيا بانزعاج:

ـ استديري! وسحبت سروالي من على المقعد.

ابتسمت خاتيا، ولكنها أطاعت أمري على أي حال. لبست، وخرجت، وصفقت الباب خلفي بقوة عن عمد، وتمشّيت في الشرفة بجلبة، ثم عدت على أطراف أصابع قدميّ، والتصقت بالباب، وركزت كل سمعي.

قالت خاتيا:

ـ سوسويا، ابتعد عن الباب، أنا أسمع أنفاسك.

ولم يكن في يدي حيلة فخرجت إلى الفناء. وبعد بضع دقائق عيل صبري، فعدت إلى الشرفة، ودخلت الغرفة. كانت عمتي جالسة إلى المنضدة مطرقة الرأس، لا حراك بها، وقد ابيض وجهها فبات بلون الورق، تنظر بذهول إلى القميص المطروح أمامها. وكانت خاتيا تقف على مقربة تطوّق كتفي عمتي، وكانت تبدو أكثر شحوباً منها. سألت العمة دون أن ترفع رأسها:

ـ أتدركين ما تقولين، يا خاتيا؟

لم تجب خاتيا بحرف، فمضت عمتي تسألها:

ـ ربما كنت مخطئة، يا خاتيا!

ـ لا يمكن أن أُخطئ صوته، يا عمة كيتو!

فهتفت العمة:

ـ كيف أُصدِّق هذا، يا بنية؟!

قالت خاتيا:

ـ خرجت من الطاحونة، وارتقيت التل، وجلست هناك أستريح،

وتقدّم هو وسأل: مَن هناك؟ أجبته: أنا، خاتيا، فقال: أنت تضجرين في الليالي...

وارتعش صوت خاتيا، وصمتت.

ـ وبعد ذلك؟ ونظرت العمة إلى خاتيا.

ـ أجبته: الليل والنهار سواء عندي. ودعوته باسمه، فقال: مجنونة أنت! كيف يمكن أن يكون هنا؟ أنا تاراسي أنتيدزه.

قالت عمتي بأمل وابتهال:

ـ ربما كان تاراسي حقاً، يا خاتيا؟

ـ لقد كنت اليوم عند تاراسي.

ـ كيف؟

ـ تاراسي طريح الفراش منذ ثلاثة أيام.

ـ ربما أخطأت في الصوت على أي حال، يا خاتيا؟

ـ لا يمكن أن أُخطئ في الصوت، يا عمة كيتو. سيأتي بنفسه إليك، وسترين، إذا كنت لا تثقين بي.

واتجهت خاتيا نحو الباب.

أفسحت لها في الطريق، فسارت في الشرفة بحذر، وهبطت السلم إلى الفناء بالحذر ذاته، وانصرفت.

منذ ذلك اليوم بدا وكأنّ العمة قد تحجَّرت. كانت تتحرّك من الصباح حتى المساء صامتة، مطرقة الرأس، ناظرة إلى الأرض، كأنما فقدت شيئاً عزيزاً جداً، ونفيساً، ولا تستطيع أن تجده. وخلال العمل كانت تغرق في أفكارها فجأة، وتجمد في مكانها، لا تسمع شيئاً حتى أمسّ يدها. وإذا كانت تجمع أماليد الشاي كانت يدها تجمد على الشجيرة، وإذا كانت تعزق الذرة كانت تستطيع اجتثاث العود، وإذا

ناديتها جفلت وكأنها أفاقت من حلم، فتلتفت نحوي، ثم تنظر إلى عملها، وترسل زفرة حرّى.

وفي الليل كان نباح كلب، أو صريف أرضية، يكفي ليجعلها تقفز من السرير، وترهف السمع. لقد هزلت، وراحت تذبل من يوم إلى آخر. وأخيراً ضاق صبري فذهبت إلى خاتيا.

كان أبوها بيساريون مرتقياً جذعة هائلة ينحتها ليجعلها معصرة، وكانت خاتيا جالسة في الشرفة، تحدِّق مبتسمة إلى الأمام، إلى الشمس الملتهبة لهباً يخطف الأبصار. ألقيت التحية:

ـ مرحباً، يا عم بيساريون.

ردّ بيساريون على تحيتي دون أن ينقطع عن عمله. وسألت خاتيا من على الشرفة:

ـ أهذا سوسويا؟

ـ نعم، أنا.

ـ أين هي الشمس الآن، يا سوسويا؟

ـ هناك، فوق أعالي شجر الكرز. قلت ذلك ومددت ذراعي صوب الشجرة.

ـ إذا كانت فوق أعالي شجر الكرز، فأنا أرى الشمس. قالت خاتيا بسرور.

ـ نعم فوق أعالي شجر الكرز.

ـ أبي، ماذا قال لك الطبيب في باتومي؟ فرد الأب غاضباً:

ـ كم مرة يجب أن أكرِّر، يا ابنتي؟

ـ أرجوك، يا أبي، قل هذا لسوسويا!

ـ قال إذا كانت ترى الشمس فسأُعيد إليها بصرها.

ـ هل سمعت يا سوسويا؟

ـ تعالي إلى هنا دقيقة، يا خاتيا، أريد أن أحدِّثك بشيء.

نزلت، وتقدّمت إلى مقربة شديدة مني، وقالت:

ـ أنا أعرف لماذا جئت.

ـ ماذا قلت لعمتي يا خاتيا؟ لقد خرجت المرأة عن طورها.

لم تجب خاتيا بكلمة. وجاوزتني، وفتحت البوابة، وخرجت إلى الشارع. تبعتها، واجتزنا الطريق كله صامتيْن.

وحين بلغنا وسط فناء منزلنا توقفت خاتيا وسألت:

ـ أين العمة كيتو؟

ـ يا عمتي!

خرجت العمة إلى الفناء، واقتربت منّا. كان وجهها كالحاً شاحباً. بادرتها خاتيا بالقول:

ـ مرحباً، يا عمة كيتو!

سألت العمة بصوت متهدِّج:

ـ ماذا حصل يا خاتيا؟

ـ لا شيء، يا عمة كيتو، شعرت أنني ضجرت فجئت.

ابتسمت العمّة لخاتيا ابتسامة رقيقة، واحتضنتها، وقادتها إلى البيت. فقالت خاتيا بعد أن توقفت:

ـ ربما أساعدك في شؤون البيت، يا عمة كيتو.

ـ لا، يا حلوتي، لا حاجة إلى عمل أي شيء.

ـ دعيني أنقي الذرة، هل يمكنني؟

ـ لو كانت لديَّ ذرة، يا فتاتي، لما بقي هذا المتعطِّل خلو اليدين ـ وتنهّدت العمة.

كانت تعنيني بالمتعطِّل دون شك. فقالت خاتيا مؤكدة:

ـ سوسويا كسول!

نظرت إليها بامتعاض. فقالت مستطردة:

ـ عندنا ذرة، يا عمة كيتو، عندنا الكثير منها؛ عندما جئت إليك في المرة الأولى طلب إليّ أبي أن أسألك إن كنت بحاجة إليها فسيعطيك كمية منها.

وانطرحت خاتيا على العشب، وجلست أنا والعمة بالقرب منها.

ـ شكراً يا خاتيا، أنتم تحتاجون إلى الذرة أيضاً.

ـ سيحملها أبي إليك بنفسه مساء اليوم.

وفكرت خاتيا لحظة، ثم قالت:

ـ إنَّ ما قلته لك سابقاً تبيَّن أنه غير صحيح يا عمة كيتو!

ـ ماذا تقولين؟

ـ أجابت خاتيا مبتسمة:

ـ تبيَّن لي أنَّه غير صحيح. لقد خانني سمعي.

نظرت العمة بارتياب إليّ، ثم إلى خاتيا، وقالت:

ـ هل تقولين الحقيقة يا خاتيا؟

حدَّقت إلى خاتيا فاغر الفم.

ـ إنَّني أقول الحقيقة الآن، يا عمة كيتو، إذ كان ذلك مجرد خطإ. لقد فكّرت كثيراً في تلك الليلة، وأدركت أنني قد أخطأت السمع.

ـ أقسمي، يا خاتيا.

صمتت خاتيا، واختفت البسمة فجأة من وجهها. وانتظرت العمَّة بلهفة. بدت وكأن أنفاسها قد انقطعت. نهضت خاتيا على قدميها ببطء، وانتصبت أمام العمة، وسألت:

ـ بم أقسم، يا عمة كيتو؟

ـ أقسمي بأمك، يا خاتيا!

لاذت خاتيا بالصمت طويلاً، ثم قالت أخيراً:

ـ أقسم بقبر أمي، يا عمة كيتو!

ـ نعم، يا خاتيا، لقد تراءى لك كل ذلك يا ابنتي؟ آه، يا فتاتي، كيف حدث هذا؟

وعانقت العمة خاتيا، إلاّ أنّها سترت وجهها بيديها فجأة، واندفعت إلى داخل البيت، بينما وقفت خاتيا وسط الفناء جامدة، وابتسمت. نعم، ابتسمت، ولكنني لم أر من قبل مثل هذا العذاب المرتسم على ملامح وجهها.

ساعي البريد

في يوم من الأيام، كنّا نعمل على منحدر التلِ الواقع خلف «وهدة الدب».

كان قرص الشمس قد انحدر إلى المغرب حين ظهر ساعي البريد كوتيا من ناحية الوهدة.

ـ يعطيكنَّ الله العافية، أيتها النسوة.

حيّانا كوتيا بهذه التحية من بعيد، وكأن لم يكن مع النساء لا أنا، ولا العم غيراسيم، ولا لوكا بوتسخيشڤيلي، ولا بيساريون شاليكاشڤيلي.

ـ ماذا حملت إلينا، يا كوتيا؟

سألت رئيسة الفريق كسينيا، وقد ظلّلت جبينها بكفها.

لم يمنع كوتيا نفسه من المزاح فقال:

ـ سكّراً، وزبدة، وطحين قمح أبيض، وكافياراً، وبطارخ، وسمكاً مجففاً، وعسلاً، أما الكاز والصابون فلم أستطع حملهما، لأنهما ثقيلان. سأجلبهما غداً. أما الآن فأترك الجريدة هنا ـ عند هذه الجزمة ـ فاستعجلوا صاحبنا الكسول، وليأخذها.

وكان يقصدني طبعاً.

ـ ألا توجد رسائل؟

ـ الرسائل في الطريق.

ـ أوه، قطع الله لسانك!

وشيّعته النساء بالضحك العالي.

لم أترك لهم المجال ليطلبوا مني، بل اختطفت الجريدة في لحظة خاطفة، فأحاط الجميع بي في الحال.

ـ اقرأ، يا سوسويا، ماذا يكتبون؟

جلس العم غيراسيم على مقربة مني في وضع مريح. وقرأت:

«بعد معارك عنيفة انسحبت قواتنا من مدن...»

عندما انتهيت من قراءة البلاغ، لم ينطق أحد بحرف.

ـ ابن الكلب ذاك يتقدّم إلى هنا؟

قال بيساريون في غيظ شديد آخر الأمر، ثم اقتطع مزقة من الجريدة، ونثر عليها التبغ الذي كان في راحته، ولفّ لفافة، وتابع يقول:

ـ يا عزيزي، كل أوروبا تعمل له: فرنسا، والنمسا، وتلك... ما اسمها؟ هذه الدولة القريبة من فرنسا؟ وتوجَّه إليَّ طلباً للمساعدة.

ـ بلجيكا.

ـ نعم، بلجيكا... ومَنْ يعمل لنا نحن؟

استطرد غيراسيم بصوت عميق:

ـ نحن نعمل لأنفسنا.

سأله لوكا:

ـ مَن «نحن»؟

ـ أنا، وأنت، وابنة بيساريون الضريرة، وهذا الفتى، وهؤلاء النسوة.

قالت كاتو:

ـ يوم الأحد كنت في السوق...

فقاطعتها أغاتي باستهزاء:

ـ ثم ماذا؟ هل تداعت السوق لكثرة ما فيها من مأكولات؟ فيها ما تشتهي الأنفس...

قاطعها العم غيراسيم قائلاً:

ـ رويدكِ، يا امرأة، دعيها تتكلّم.

ـ نعم ـ تابعت كاتو قولها ـ يبدو أن هتلر ابتكر سلاحاً يحرق كل شيء كليّاً في دائرة قطرها عشرة أميال.

وسألت مارغاليتا:

ـ مَن قال هذا؟

ـ أحد وزراء هتلر، ما اسمه...

ـ غوبلز؟

ـ نعم، نعم، غوبلز، أتمنى أن أحمل تابوته من بيته.

ـ وماذا قال أيضاً؟

ـ و... ماذا يسمّى ذاك... لعله روبن ترابئدزه؟

ـ ربما هو ريبنتروپ؟

ـ نعم، عسى أن يهلك هو وعشيرته. قال إننا نحمل إليكم الخبز

الأبيض والزبدة، ولن نمس الشيوخ ولا الأطفال، ولكن يجب القضاء على الشيوعيين فقط.

سألت كسينيا:

ـ وماذا قلت له؟

ـ لمَنْ؟ لريبنتروپ؟

ـ لا.. ليس لريبنتروپ، يا ثور، بل لذاك الخنزير الذي قال لك كل هذا، بينما فتحت له أذنيك.

ـ وماذا كان بوسعي أن أقول له، والناس كلهم قد استمعوا إليه؟ ثم إنه حين قال في الختام إن البربريَّ هتلر سيتدلى من الحبل كادوا أن يأخذوه بالأحضان.

وسألت كسينيا:

ـ أفصحي بالعقل.. أين كنت؟

ـ أين، أين! قلت لك في السوق! كان هناك اجتماع، فخطب هذا الرجل...

فقالت كسينيا بغضب:

ـ يا لك من بليدة.

ـ سأل بيساريون:

ـ أنت، يا كيتو، امرأة ذكية، فقولي لنا ماذا سيحصل؟

ـ أحوالنا ليست سهلة. ولكن لا بأس. سيأتي الشتاء، وعندئذ سنرى... أعتقد أن الشتاء سيسحقه بشدّة كما سحق ناپوليون...

لم يصدِّق لوكا وسأل مُوَصْوِصاً عينيه:

ـ في الشتاء سيتجمَّدون فقط، ويمكن أكثر من ذلك؟

ـ المسألة، يا لوكا، أنَّ هتلر غير مستعد للشتاء.

ـ من أين تعرفين هذا؟

ـ قدّر هتلر أنه سيقضي على الاتحاد السوفييتي حتى بداية الخريف، فلم يتهيَّأ وجيوشه للشتاء.

ـ وهو لا يستطيع الآن أن يتهيأ؟

ـ الوقت متأخر الآن يا لوكا.

ـ وإذا وصل إلى هنا قبل الشتاء، ماذا ستفعلين؟

ـ يجب أن لا نسمح له بالوصول.

ـ مَن؟ أنا وأنت؟

ـ نعم، أنا وأنت.

ـ أتنوين إيقاف تقدُّمه؟ هو الذي يحتل خمس مدن تباعاً في اليوم الواحد!؟

ـ نعم، يجب أن نوقف تقدُّمه.

ـ هيّا أوقفيه، حاولي!

وابتسم لوكا ابتسامة مريرة.

لم تستطع كسينيا صبراً وقالت:

ـ كفّ عن ذلك، يا جبان. بالطبع إذا كنت تتهافت هنا، وتدير عينيك ذعراً، فإنَّ هتلر سيحتل لا خمس مدن في اليوم بل عشراً!

ـ ولكن لماذا الصراخ يا امرأة، هل لمجرد أني أناقش ماذا سيكون من أمرنا تهجمين عليّ كالكلبة المسعورة!

ـ سأريك مَنْ هو الكلب حين أنتزع لسانك أيها الأحمق، يا لوكا بوتسخيشڤيلي!

ـ لا يستطيع الإنسان أن يتحاور معها. المجنونة تبقى مجنونة.

واقتطع مزقة أخرى من الجريدة للفافة .. وهدأت كسينيا بعض الشيء.

ـ صاحبنا كوتيا لا يحمل لنا أنباء مفجعة فقط، بل إنَّ مارغاليتا تلقّت رسالة من زوجها على ما يبدو، أليس كذلك، يا مارغاليتا؟

ـ نعم، تلقيتها يوم أمس الأول.

ـ وستتلقّين غيرها أيضاً.

سأل لوكا:

ـ وماذا جاء فيها؟

ـ «نحن نقعي في الخنادق، فلا تقلقي إذا تأخرت الرسائل».

ـ وماذا كتب أيضاً؟

ـ وكتب «... إذا كان المولود ذكراً سمّيه باسمي»!

قال بيساريون:

ـ طبعاً، سمّيه باسمه، حتى ولو كان بنتاً.

تحسّر لوكا وقال:

ـ ولا شيء من ابني!

قال له العم غيراسيم بثقة:

ـ ستصلك رسالة منه أيضاً.

ـ متى، متى يا غيراسيم؟

ـ أقول لك ستأتي، فقد تسلّمت أنا رسالة من فتاي! وستستلم أنت واحدة أيضاً. أليس كذلك، يا سوسويا؟

ـ أكدت على كلامه في ثقة:

ـ ستأتي بالطبع، وكيف لا تأتي!

ـ ليس الأمر بهذه البساطة ـ تدخَّل بيساريون ـ نحن جالسون في وهدة الدب ولا نرى ماذا يحدث حولنا. إنَّ هذه الأرض ليست صغيرة، فكم من بيساريون وكسينيا يسيرون فيها، ويعزقونها بالمعزقة؟

وكم من فتى مثل ابن لوكا وغيراسيم يمسكون بالسلاح؟ وكم من سوسويا وخاتيا يجرون فيها؟ إذاً، فكم سيحتاج هتلر من أيام وليال ليكسب الحرب، إذا كان يفكِّر في كسبها؟ ولكن لا.. ليست له هذه القوة في قدميه، ولا هذا الدم في عروقه، أتسمعون؟!

قال بيساريون مثبتاً على ركبتيه يديه الضخمتين الصلبتين المعروقتين، ونهض ببطء ناظراً في البعيد إلى الوادي الأخضر في الأسفل:

ـ إنَّ أرضنا لعظيمة، يا أعزائي، عظيمة! لن تكفي جيوشه، وسيسحق! ها هي الأرض، ألا ترون؟

وبسط ذراعه مؤشراً إلى المدى البعيد أمامه.

كان الوادي الأخضر الرحيب الخصيب ينبسط تحت أشعة الشمس الذهبية، وكان الهواء الحارّ يتحرّك قليلاً، وسُحُب الدخان الخفيفة ترتفع فوق سطوح البيوت وتتبدّد في الزرقة العالية دون أن تُلاحظ. وكان نهر سوبسا كالشريان يخترق الوادي ويحمل في مياهه العرق والدموع المنهمرة على أرض شاسعة. تطلّعت من فوق التلّ، من فوق تلك القطعة الصغيرة من الأرض، وأدركت أنها الأرض الحيَّة، الأرض التي لا تنتهي حيث ينتهي بصري، وإنما تمتد إلى المدى البعيد السحيق. ورأيت الشمس الذهبية التي كانت تسطع فوق الأرض، وعرفت أن ما من إنسان أوتي من القوة والجبروت ما يكفي لتدمير هذه الأرض، وهذا النهر، وذلك البحر، والذين يحرصون عليها.

صمت الجميع صمتاً مطبقاً، غير أنني عرفت أن كل فرد منهم يفكر الآن فيما أفكر فيه ـ مارغاليتا، وكسينيا، وكاتو، والعمة، وغيراسيم، ولوكا، وبيساريون. كانت خاتيا واقفة إلى جانبي تفكّر وتحس كتفكيري وإحساسي تماماً، وعلى ثغرها ابتسامتها الوضيئة الوديعة.

كانت الشمس تميل ببطء إلى الغروب، حيث تتعانق السماء الزرقاء بالتلال الخضراء. وكان القطيع يعود إلى القرية مطلقاً خواره وثغاءه في المراعي الخضراء.

في مساء ذلك اليوم، بينما كنت والعمة قد تهيأنا للنوم ارتفع صراخ حاد فوق شوارع القرية الهادئة. هرعنا إلى الفناء.. كان الصراخ يتتابع من طرف القرية. وخرج الناس من البيوت، وهرعوا إلى هناك، وهرعنا نحن مع الجميع. وسألت العمة ونحن في الطريق:

ـ من أين يرتفع هذا الصياح، يا غيراسيم؟

ـ أواه، يا كيتو، لقد تحطمت عائلة لوكا بوتسخيشفيلي المسكين.

المعلّم الجديد

لم تتوقف عجلة الزمن. انسلخ تموز بعد حزيران، وآب بعد تموز، وحمل أيلول، كالعادة، علامات فشل، وعلامات متفاوتة في نسبة النجاح. كانت العمة كيتو تدرّس اللغة الجورجية كسابق عهدها، وكانت خاتيا تجلس إلى جانبي. وقد توسّلت إلينا معلمة الجغرافية كعادتها وقالت: «لا تقاطعوني في أثناء الدرس رجاء، وسألعب معكم الغمّيضة في فترة الاستراحة». ومعلمة اللغة الروسية لا تزال تجهل التلفُّظ باسم عائلتي بشكل صحيح. لم يتغير شيء، إلاّ أن أفراد هيئة التدريس قد هزلوا جميعاً، وأُضيف إلى دروسنا درس جديد هو درس الفن العسكري، وجاءنا معلم جديد هو ليڤان غوريليدزه الذي كان قد اشترك في المعركة عند بحيرة خاسان.

في الدرس الأول ظهر مسلّحاً مرتدياً صداراً محلًّى بالنجمة وقِماطاً جلديّاً حشر فيه سرواله الأخضر، وكان يحمل مُلصقاً تحت إبطه،

وقناع غاز على كتفه، وبندقية من عيار خفيف (أعرف أنها تسمى «هيكو»). تقدّم من الطاولة، وحيّانا بتحية عسكرية، وجمد في مكانه. جلسنا، غير أنَّ المعلم بقي على وضعيّته، فنهضنا من جديد.

ـ استريحوا! ـ وخلع المعلم صداره، ووضعه على الطاولة، وترك البندقية وقناع الغاز في ركن من الحجرة. ثم نشر الملصق، وأخرج من جيبه أربعة مسامير طويلة، أطبق أسنانه على ثلاثة منها، وأخذ يسمّر الملصق في الحائط بقطعة من الآجر صادف أن كانت ملقاة بالقرب من الموقد. وبعد أن دقّ المعلّم الملصق استدار نحونا، ونظر إلى وجوهنا بانتصار. همست خاتيا سائلة:

ـ ماذا فعل؟

ـ دق الملصق.

ـ ماذا رُسم عليه؟

ـ لا شيء.. بل كُتب بحروف حمراء «الموت للفاشية!».

ـ ألم يكن بوسعه أن يقول هذا دون ملصقه؟

هززت كتفي. قال المعلم:

ـ والآن لنتعارف.. أنا ليڤان غوريليدزه.

قال أوتيا كالاندادزه:

ـ اسم عائلتك جميل! وافترّ ثغره عن ابتسامة لطيفة.

ـ كفّوا عن الكلام! الفن العسكري يستوجب الانضباط!

لاحظ تاماز كيركادزه وكأن عن أسف:

ـ علم النبات يستوجب الانضباط أيضاً.

ـ مَن قال هذا؟

ـ معلم النبات. أجاب تاماز، ونهض بأدب.

ـ اجلس! وجلس تاماز.

ـ وماذا أحب أنا؟ أنا أحب الانضباط، والسكون الذي يُسمع فيه طنين جناحيّ الذبابة وهي تطير. وماذا أحب بعد؟

سألت خاتيا بسذاجة:

ـ الكستناء السليقة؟

ـ مَن قال هذا؟

وأُجيب بصمت تام.

ـ يجب أن تتذكّروا أنني لم أخلق معلِّماً. كيف كنت وأنا في سنِّكم؟ مستخفّاً أحمق...

ـ أنت لا تزال في ريعان الشباب حتى اليوم. قال نودار كالاندادزه مبتسماً ابتسامة فرح، وكان يكنّى بيننا بـ«نودار العاقل».

لم يلتفت إلى ملاحظته.

ـ ثم عكفت على قراءة الكتب. والكتاب، كما تعرفون، صديق الإنسان. وقرأت، وقرأت، وصرت إنساناً. أنا لست معلماً بل سائق دبابة!

قال تاماز كيركادزه مندهشاً:

ـ تصوّروا!

عبس المعلم:

ـ لا تظنوا أنني مثل سائر معلّميكم، سأسلخ جلودكم. وضرب الطاولة بيده.

فقال أوتيا:

ـ ليس هذا جديداً علينا.

ـ والآن سأنتقل إلى شرح وظيفة فصيلة الدفاع.

قال أحد التلاميذ ساخراً:

ـ هيَّا، فرِّغ!

امتقع وجه المعلم، ولكنّه تمالك نفسه وتابع كلامه:

ـ تتألَّف الفصيلة من عشرين جنديّاً. فما هي الفصيلة إذاً؟

ـ عشرة ومعها عشرة تساويان فصيلة!

صاح أوتسيا، وكان جوابه صحيحاً، لأن الفصيلة باللغة الجورجية تعني عشرين أيضاً.

ـ مَن قال هذا؟

جمد الطلاّب. وتقدّم المعلم من اللوح، وتناول الطبشورة، ورسم عشرين دائرة صغيرة في الركن الأعلى من اللوح وشرح قائلاً:

ـ هذه فصيلة من الألمان.

ـ أوه، يا ويلنا، ها قد جاء يومنا الأسود أيضاً!

هتف تاماز كيركادزه متفجِّعاً، ولطم رأسه.

ـ وهذه فصيلتنا ـ قال المعلم وقد رسم عشرين دائرة أخرى ـ هم في تلك الجهة ونحن في هذه الجهة، والنهر في الوسط بيننا.

تذكّر أوتيا كالاندادزه هذه الأبيات للتوّ فتمتم:

أنت على تلك الضفة

وأنا على هذه الضفة

والنهر يهدر بيننا

ـ ومَن هذا الشاعر أيضاً؟

ـ فاجا بشافيلا.

ـ اجلس ـ ودق المعلم اللوح بالطبشورة ـ لنفرض أنني ألماني فما عليّ أن أفعل الآن؟ مَن يجيب؟

هتف ياغو أنتيدزه:

ـ تدق اللوح بالطبشورة.

ـ اجلس!

قال «نودار العاقل»:

ـ تضع نقاطاً!

وهتفت أنا:

ـ تطلق النار!

ـ مجتهد! ـ قال المعلم يمتدحني ـ نعم، أطلق النار. إنَّ فصيلتنا انبطحت في الخنادق لا تسمح للعدو بأن يرفع رأسه، والعدو يطلب تعزيزات ـ ورفع يده إلى أعلى، وطوى أصابعه ولوى يده، وأصدر أصواتاً غريبة ـ وسألني:

ـ ماذا أفعل الآن؟

ـ أنت الآن تلوي يدك وتصفر ـ ولم أرتبك في هذه المرة أيضاً.

قال بصخب:

ـ اجلس!

وارتفع لغط، وصار لون المعلم أكثر بياضاً من لون الجدار، وحين هدأ اللغط مسح الدوائر من على اللوح بحركة واحدة من يده، وجلس إلى الطاولة. وظل جالساً وقتاً طويلاً مطرق الرأس، والصف يطن طنين خلية نحل مستثار. وأخيراً رفع المعلم رأسه، ورمقنا بنظرة كليلة مقطوعة الأمل.

أدركنا أنه قد دخل الصف اليوم لأول مرة بعد أن ودّع المدرسة في صباه.. أدركنا أنه دخل علينا اليوم كما يدخل مروض مبتدئ قفصاً للوحوش. ها هو الآن يجلس عاجزاً فاقد الأمل في ضبطنا، متوقعاً

خديعة جديدة في كل لحظة.

ـ اجلسي يا فتاة، ولا تنظري جانباً، بل انظري في عينيّ!

قال المعلم فجأة يخاطب خاتيا التي رفعت جسمها قليلاً، وتحرّكت إلاّ أن عينيها الجميلتين الواسعتين لم تكونا قادرتين على أن تُبصرا عيني المعلم. وانتقل إلى المعلم الشعور بالحرج الذي أحسسنا به جميعاً، وشعر بأنه أتى فعلاً غير لائق، ولكنه لم يدرك ما هو، فسأل بصوت متهدِّج:

ـ ماذا حصل، يا أولاد؟

لزمنا الصمت إلى أن قالت خاتيا أخيراً:

ـ أنا لا أبصر، أيها المعلم!

ـ أتسخرين مني؟

ـ لا، يا معلم، أنا لا أبصر حقاً!

نهض المعلم ومشى بين صفيّ المقاعد وتوقّف عندنا. حدّق طويلاً إلى عيني خاتيا الزرقاوين. ارتخت الجفون بهدوء، وارتفعت. وعاد المعلم إلى مكانه بتؤدة، وجلس خلف الطاولة، وغرق في صمت طويل، وران على الصف ذلك السكون الذي قال معلمنا إنه يحبه.

ـ ما اسمك، يا فتاة؟

ـ خاتيا!

ـ اجلسي، أيتها الفتاة، اجلسي!

ولكن خاتيا ظلت واقفة.

ـ مَنْ يوصلك إلى المدرسة، يا خاتيا؟

ـ سوسويا، ثم إنني أستطيع أن أجيء وحدي أيضاً.

ـ أنا أعفيكِ من حضور دروسي. يمكنك أن تتغيَّبي منذ اليوم.

ـ أود أن أبقى وأستمع إليك!

شعرت بغصّة في حلقي. وسأل المعلم:

ـ هل والداك في قيد الحياة، يا خاتيا؟

ـ أبي فقط.

ـ أنت لا تبصرين على الإطلاق؟

ـ على الإطلاق.

ـ لا ترين شيئاً أبداً؟

ـ أرى الشمس فقط، يا معلم، وقد قال الطبيب في باتومي إنني إن رأيت الشمس فإنّه سيعيد إليّ بصري.

ـ سيعيده بالطبع، يا فتاة، أنا أيضاً فقدت بصري عند بحيرة خاسان، ولم أكن أرى شيئاً.

ـ وهل كنت ترى الشمس، يا معلم؟

ـ كنت أرى الشمس، فأعادوا إليّ بصري...

ـ وأنا أيضاً أرى الشمس.

صمت المعلم مرة أخرى، ولم يصرف بصره عن عيني خاتيا الزرقاوين. كانتا تلمعان، وتسطعان بابتسامة ذكية وادعة، وكان من الصعب التصديق بأن تينك العينين لا تبصران ضوء النهار، ولا الأولاد، ولا المعلم.

دق الجرس، ونهض المعلم، ثم غادر الصف صامتاً. ولم نتحرك من أماكننا. وحين دق الجرس من جديد، ودخلت الصف معلمة اللغة الجورجية، عمتي، وبدأت تسجّل في قائمة الدوام ثُبنا إلى أنفسنا قليلاً. وسألت عمتي:

ـ لماذا أنتم هادئون وديعون بهذا الشكل؟

أجابت خاتيا:

ـ كنّا نستمع اليوم إلى أول درس في الفن العسكري. صار عندنا معلم جديد.

ـ وما رأيكم فيه؟

أجبت العمة:

ـ آه، لو كان الجميع مثله!

زائر الليل

في أثناء الليل خشخش شيء ما في الشرفة. استيقظت من نومي، وكانت عمتي قد استيقظت أيضاً، وجلست في سريرها تنظر إلى الباب في فزع. كان الباب المغلق بالمزلاج يهتز جرّاء ضغط قوي يدفعه، ولا ينفتح. ثم دُق زجاج الشباك بحذر. همست العمة:

ـ تعال. إليّ يا سوسويا.

انسللت من فراشي، وتقدّمت من العمة على أطراف أصابعي، وطوّقت عنقها. كانت، كما يبدو، تستشعر برداً شديداً، وكان جسمها كله يرتجف. وتكرّر الطرق.

سألت العمة بصوت متهدِّج، وقد ازداد ارتجافها:

ـ مَن هناك؟

ـ يا كيتو، افتحي لي الباب.

ـ مَن أنت؟ وكان صوت العمة لا يكاد يسمع.

ـ أنا داتيكو.

ألقت العمة رأسها إلى الوراء، وأغمضت عينيها، وسدّت أذنيها بكفيها.

ـ يا كيتو، افتحي لي الباب. هذا أنا، داتيكو!

تناهى إلينا ذلك الصوت من على الشرفة، إلاّ أن العمة لم تحرك ساكناً.

ـ كيتو! وارتجّ الباب بعنف.

فتحت العمة عينيها، وأنزلت يديها، وحدقت إلى الباب الذي كان يرتج الآن دون توقّف.

ـ كيتو! هذا أنا، داتيكو!

ـ أي داتيكو؟

ـ داتيكو، هل نسيتني؟ ينبغي أن أقول لك شيئاً.

ـ داتيكو في الجبهة.. ولا يمكن أن يكون هنا!

ـ افتحي، وإلاّ حطمت الباب.

وارتجَّ الباب على نحو أشد. وهمست العمة:

ـ أوقد المصباح، يا سوسويا.

أوقدت المصباح، ونظرت إلى العمة. كانت قد ارتدت ثوبها واقتربت من الموقد واستندت إلى الجدار بالقرب منه.

ـ افتح الباب، يا سوسويا!

رفعت المزلاج، وجلست إلى جانب العمة. انفتح الباب بهدوء، ودخل الحجرة رجل أغبر أشعث الشعر، بقميص عسكري مفتوح عند الصدر، والمسدس في حزامه، وقد تمنطق بنطاقين متصالبين، وفي يده بندقية، وفي رجليه حذاء خشن الصنع.

ـ تحية! ـ وابتسم بغرابة.

لم أنبس لا أنا ولا العمة بكلمة واحدة. وخطا داتيكو بضع خطوات نحونا. وصاحت العمة:

ـ قف في مكانك وتكلم، ماذا تريد؟

توقف داتيكو، وقال:

ـ كيتو، ماذا بك، يا عزيزتي؟ لم أرك منذ دهر!

وخطا خطوة أخرى باتجاهنا.

صرخت العمة:

ـ قف في مكانك!

وتراجع داتيكو، وقال:

ـ هل اختلط عليك الأمر؟ قلت لك إنني سأعود قريباً...

لم تجب العمة بحرف. وتقدّم داتيكو من الموقد مجدَّداً.

ـ قلت لك قف في مكانك، وإلاّ فسأستدعي الجيران.

توقف داتيكو، وقال:

ـ اصرخي إذاً، اجمعي الجيران، أنا لا أخاف أحداً. من أجلك تركت كل شيء وعدت إلى هنا، وأنا غير خجل بما فعلت. هل تسمعينني؟

ـ هل عدت من الفزع؟

ـ من أجلك، أنت التي أعدتني!

ـ بل الفزع أعادك!

ـ أنا لا أخشى أحداً.

ـ ولِمَ هذه البندقية والمسدس؟ ولماذا تختفي على هذا النحو في الغابة؟

ـ لن أختفي عن قريب.

ـ ماذا تتوقع؟

ـ أنت امرأة ذكية، يا كيتو، ولعلّك تدركين أننا خسرنا...

ـ أنت تتوقع هذا إذاً؟

ـ سيان عندي خسرنا أو انتصرنا في آخر المطاف، فإن الأرض هي ما يهمني. ولماذا أموت وعندي أرض؟ أريد أن أموت ميتتي الطبيعية، وأريد أن أكون معك! وعن قريب لن يفرق أحد بيننا، أتسمعين؟

كانت العمة تسمعه وقد ارتسم على وجهها الذعر والنفور.

جلس داتيكو على الأريكة ووضع البندقية بين ركبتيه، وأخرج كيس التبغ، ولف لفافة، وشرع يدخن.

ـ لا أحد يستطيع أن يصمني بالجبن، ولكن لا أحد يريد أن يموت عبثاً. حسناً. لنفرض أنني قُتلت، فماذا يأتي من ذلك؟ هل سيتحسن الوضع؟ لن يتذكر أحد من كنت ولا ماذا كنت.

ـ وماذا أنت الآن؟

ـ لم يتوقع داتيكو مثل هذا السؤال.

ـ الآن... الآن... الآن أنا... مجرم سياسي. قال بلسان متلعثم.

ـ أنت متسوِّل، هارب. هذا أنت ـ قلتُ ذلك والتصقت بعمتي.

غاض الدم من وجهه، ونهض ثم جلس ثانية، وقال:

ـ لو قال شخص آخر هذه الكلمات لما بخلت عليه برصاصة حارة! تمتم بهذا وكأنه يخاطب نفسه.

ثم إنَّه استدار نحوي وقال:

ـ أنسيت ماذا فعلوا بأبيك وأمك؟ وهل تركتك أنا بلا رعاية؟

ـ هذا لا يعنيك!

ـ أتظن، أيها الفأر الضئيل، أن أباك سُمّي «عدو الشعب» دون سبب؟

ـ أنت نفسك عدو الشعب ووغد! كل من يتذكر أبي يقول إنه كان إنساناً حقيقيّاً...

اكتفى داتيكو بضحكة تهكّمية، وكأن لا فائدة من الجدال معي، وتوجّه إلى العمة قائلاً:

ـ لقد حلمت، يا كيتو، باللقاء بك مثلما يحلم جائع بالخبز. فابتسمي لي ولو لمرة واحدة.

لم يبد أي تأثر على وجه العمة.

ـ ولكنّك تحبّينني يا كيتو! مجرد أنك تخافين أن يُكتشف أمر عودتي وتظنين أنني مطارد فعلاً؟ ساعديني على الاختفاء، فمن يهتم بي غيرك؟ في بادئ الأمر سأختفي ثم سنرى...

كنت واقفاً إلى جوار الموقد دون حراك، أسمع هذا الرجل الذي توحش ولم يحتفظ من الماضي بغير القابلية على الكلام. وفجأة صرَّ الباب الذي ظل موارباً منذ أن فتحته، فاندفع داتيكو نحوه والبندقية في يديه، وصارت عيناه مثل عيني ابن آوى وقع في شرك، ونقّل بصره المتوحش بين الباب وبيننا، وبالعكس. وبعد أن أيقن أن الشرفة خالية هدأ وعاد إلى الجلوس.

ـ أنا جائع، أعطياني شيئاً أتبلّغ به. قال داتيكو فجأة، وابتسم وكأن شيئاً لم يحصل.

أجبته ببرود:

ـ ونحن جياع أيضاً.

ـ أتبخلان عليَّ بقطعة من فطيرة الذرة؟

ـ كلبنا يكاد يموت جوعاً. لو كان لدينا طعام لفضّلنا إعطاءه له.

ـ أشكر عمتك أيها الفظ التعيس، لولاها لشويت لحمك الآن على جمر الموقد.

ـ إذا كنت شجاعاً ورجلاً كما تدّعي فلماذا هربت واختفيت في الغابة؟

ـ إنَّ داهية مثلك لا يجوز أن يعيش وأن يكبر على الإطلاق، ولكن حين تبلغ مبلغ الرجال عندئذ أود أن تتلقى الرصاص بسرور.

ـ لا، سأهيم في الليالي وأشحذ قطعة من فطيرة الذرة!..

ـ لا تفقدني صبري، يا سوسويا!

ـ اخرج من بيتنا، لماذا جئت؟

ـ لم أجئ إليك!

ـ وعمتي لا تحبك، انصرف!

ـ عمتك تحبني. أنت الذي لا تحبني. ومن قبل أيضاً لم تكن تحبني.

ـ أحسست من قبل أي جبان أنت وأي نذل.

احمرّ وجه داتيكو، وانعقد حاجباه على قصبة أنفه. نهض وتقدّم منّا ببطء، فالتصقنا بالحائط تماماً، وحذّرته العمة:

ـ لا تقترب، سأصرخ!

ـ لن تصرخي!

وتقدم داتيكو حتى أصبح بمواجهتنا تماماً. ولم تصرخ العمة. أمسك كتفيها، وتكلم متقطع الأنفاس:

ـ اصرخي، لماذا لا تصرخين؟ هل تخافين؟ لا تخافي واصرخي، واجمعي الناس، وليمسكوني، وليعتقلوني! أنت الآن لا تريدينني؟ دمّرتني والآن تطردينني؟ قولي... تكلّمي، وإلاّ سأقتل نفسي وسيقع اللوم عليك... تكلّمي!..

وفجأة أمسك صدغي عمتي بكلتا يديه، وجذب إليه رأسها وأخذ

يقبّلها في وجنتيها، وفي جبينها، ورقبتها، وقبل كتفيها، وشعرها. ولم تبد هي حراكاً، وظلت في صمتها، وسالت الدموع على خديها الأبيضين الغائرين. وتملكني فجأة غيظ شديد، وهجمت على داتيكو من الخلف، وأطبقت أسناني على كتفه، وعضضته عضاً شديداً حتى أن فكّي آلمني، وتبلّلت شفتاي. تأوّه داتيكو بصوت أصم وابتعد عن العمة، وأنزل يديه عن رأسها، واستدار، وضربني بكل قوته ضربة قذفت بي في الزاوية، فانطرحت قرب الموقد، وقد ارتطم رأسي بالجدار وزاغ بصري. ولما أفقت رأيت عمتي راكعة إلى جانبي تفرك أذنيّ، وداتيكو يحك كتفه المعضوض ويتفرس فيّ. كنت مطروحاً على الأرض، وقد فتحت عيني قليلاً، لم أكن أقوى على الإتيان بحركة.

قالت العمة ملتفتة إلى داتيكو:

ـ قتلته!

ـ لا تقلقي، لن يموت.

همست العمة وهي تنهض:

ـ ماذا فعلت بسوسويا؟

في الزاوية، ما بين الجدار والموقد، كانت هناك فأس، سارت العمة إلى هناك وانحنت. جفل داتيكو وتقدّم نحوها. تناولت العمة الفأس من على الأرض، وانتصبت.

قال داتيكو وقد جمد مكانه:

ـ دعي الفأس، يا كيتو!

أمسكت العمة الفأس بكلتا يديها، ورفعتها فوق رأسها.

ارتدّ داتيكو خطوة إلى الوراء وصرخ:

ـ ماذا تفعلين يا كيتو؟ هل فقدت عقلك؟

خطت العمة نحوه دون أن تنزل الفأس.

ـ كيتو!

ـ اخرج في هذه اللحظة!

بدا صوت العمة غريباً. تابعت تقدمها نحو داتيكو، وتراجع هذا الأخير، دون أن يصرف بصره عن حد الفأس اللامع فوق رأسها. وبهذه الصورة تقدّم من المنضدة، حمل البندقية، وتلمس المنضدة بيده دون أن ينظر وخرج من الحجرة متراجعاً، وبلغ سمعي وقع خطواته العجلى في الشرفة. أطلت على الحجرة، من خلال الباب المفتوح، نجوم تشرين الأول المتلألئة. أنزلت العمة الفأس آخر الأمر، وأغلقت الباب وأزلجته بمقبض الفأس بدلاً من المزلاج، ثم سارت نحو السرير بخطوات غير متّزنة وسقطت عليه.

نهضت من على الأرض، واستلقيت على سريري أيضاً. ولزم كلانا الصمت ساعة كاملة في أغلب الظن.

نادت عمتي أخيراً بصوت واهن:

ـ سوسويا!

ـ ماذا، يا عمتي؟

ـ هل أنت نائم؟

ـ لا، يا عمتي.

ـ تعال هنا، يا سوسويا.

نهضت وذهبت إليها، وانحنيت، وقبّلتها من وجنتها. كانت وجنتها باردة برودة ظهر السرير المعدني الذي مسته يدي. ألصقت خدي بوجه عمتي وكانت شفتاها ترتعشان.

بيجان والجريح

كان فودا بيجان إيسادزه قد ابيضّا منذ زمن طويل، إلاّ أن المصيبة التي أصابته في طفولته لا تزال تلازمه حتى اليوم. فعندما كان صبيّاً ارتقى شجرة كمثرى كبيرة في بستان ليقطف الثمار فانكسر الغصن تحت ثقله، وسقط من ارتفاع أكثر من مترين وارتطم رأسه بالأرض تحت الشجرة. هرع الجميع وأخذوا يفركون فوديه، وسكبوا الكثير من الماء على رأسه، حتى أعادوا إليه وعيه. فتح عينيه، وتفوّق، ثم ابتسم. ومنذ ذلك الحين لم ير أحد من الناس بيجان حزيناً. وهو الآن يسير في شوارع القرية حافي القدمين، يضحك، ويغني بأعلى صوته أغنيته المفضّلة:

ميناذورا، يا ذات العينين السوداويْن

ميناذورا، أصابك الشيطان اللعين بالعيْن

ومقابل طاسة من الفول وقدح من النبيذ يساعد بيجان أي جار يستدعيه. ويستطيع، عند الرهان، أن يشد نفسه إلى المحراث، وأن يشق الأرض، ويكسر الجوز برأسه، ويلتقط الكستناء بأصابع قدمه الحافية، وينقل جوالق كاملاً من الذرة من مكتب المزرعة إلى الكنيسة على التل دون استراحة. إن بيجان هذا قوي جداً، ومتين كالثور، وهادئ جداً، ولكن حتى العدو لا يودّ أن يصيبه وقع يديه، فإنّ قبضة يده كالمطرقة. والواقع أنه كان من الصعب إخراج بيجان عن توازنه، شيء واحد فقط في الدنيا قادر على أن يخرجه عن أطواره: جرِّب أن تقول: «إنّ فتاتك ميناذورا تزوجت» فإن عينيه ستحتقنان بالدم، وسيشرع بتمزيق ما عليه من ثياب، ويحطم كل ما يقع تحت يديه، حتى ولو كان شجيرة فتية، فإنه لا يهدأ حتى يجتثّها من جذورها. أما في سائر

الأوقات فإنَّ بيجان يكون كالحمل لا يمس ذبابة بسوء.

كان بيجان يحب الأطفال حباً جمًّا. كان يدخل فناء أحد الجيران ويطلب:

ـ أعطيني طفلك، يا ماكو.

ـ إلى أين تأخذه يا بيجان؟

ـ لن آخذه إلى أي مكان يا ماكو، بل سألعب معه هنا في الفناء. هل تريد أن تلعب لعبة الحصان يا تاريل؟

ـ نعم، نعم، أريد!

ـ هذا هو اللجام، وهذا المهماز، وهذه العصا، فامتطِ رقبتي يا تاريل، ولكن إياك أن تضربني بالعصا.

ويدبّ بيجان على الأربع ويجلس الطفل على رقبته، ويبدأ بالوثب.

ـ هيا، يا تاريل!

ـ هلمّ، يا بيجان!

ولا أحد يقلق على الطفل حين يكون بصحبة بيجان، ولا أحد يمنع بيجان من الركض في الفناء، حاملاً على كتفيه الحمل الذي يروق له. ولكن... بيجان نفسه يشعر أنه ليس كالآخرين، ولهذا كان دائماً يسأل بابتسامة راجية:

ـ هل تعطينني طفلك يا ماشيكو؟

وبيجان يحبني جدًّا، فأنا في كل أنحاء القرية الشخص الوحيد الذي يأتمنه على أسراره، وهو الشخص الوحيد الذي يعتبرني أذكى الجميع، ولهذا فأنا أحبه حباً شديداً.

في يوم الأحد صباحاً جاءنا بيجان إلى فناء البيت. سمعت صوته يناديني:

ـ سوسويا!

ـ ادخل. دعته عمتي إلى الدخول. وتطلع كلانا من الشباك.

ـ إذا كان هناك ما يؤكل فاحمله إليَّ هنا. طلب بيجان، وجلس تحت شجرة الكرز.

صبّت العمة قدح نبيذ، واقتطعت خبزاً وجبنة، وخرجت تحمل كل ذلك إلى بيجان وخرجت أنا وراءها أيضاً.

حيّانا بيجان، وهو يتناول الطعام. قضم قطعة من الخبز، وشرب جرعة من النبيذ، وسأل العمة:

ـ هل أقطع لك الحطب، يا كيتو؟

ـ لا، يا بيجان.

ـ حسن جداً. وهل عندك رواح إلى الطاحونة؟

ـ لا، يا بيجان.

ـ هذا حسن أيضاً. وقضم بيجان قضمة أخرى من الخبز والجبنة، وجرع من النبيذ.

ثم أضاف:

ـ لا في الخبز ولا في الجبنة قدر كاف من الملح، يا كيتو!

ـ الحصول على الملح صعب جداً الآن يا بيجان.

ـ هذا ما أقوله! لذا تعتبرني القرية كلها معتوهاً، وذلك المتحجِّر الدماغ، الرئيس كيشڤاردي، ذكياً.

ـ ما الخبر، يا بيجان؟ سألت عمتي مندهشة؟

ـ كيف تسألين ما الخبر يا عزيزتي كيتو؟ من الخير أن يزرعوا ملحاً أو سكراً بدل أن يزرعوا هذه الذرة الصفراء اليابسة، على الأقل حتى يلتقط الناس أنفاسهم. ما رأيك في قولي يا سوسويا؟

أطلقت العمة حسرة طويلة، وانصرفت. سأل بيجان وهو يتعقّبها ببصره:

ـ لماذا لا تتزوج عمتك داتيكو رئيس الفريق؟

سألته في دهشة:

ـ عن أي داتيكو تتكلم؟

ـ صاحبنا داتيكو، يا لحماقتك. قبل مدة التقيت به في ساتابلي مدجَّجاً بالسلاح من رأسه إلى أخمص قدميه مثل خفير قريتك، قال «إنهم نقلوني إلى هنا، فهنا جبهة حرب أيضاً، وأنا أقوم بواجب رسمي، وهذا سر عظيم فلا تقل لأحد عن هذا شيئاً، وإلاّ سيزجّ كلانا في السجن».

ـ وبعد؟

ـ وما هذه الـ«وبعد»؟ لقد قلت ذلك لبعض الموثوقين من الناس: لرئيس الكولخوز، وبادريا الذي يعمل في الميليشيا، ذلك لأن كلاهما في الحزب ولا يثرثران في أي مكان. وهذا على العموم لا يعنيني فإن الحكومة تعرف شغلها بنفسها. ولم آت إليك الآن لهذا الغرض يا سوسويا، بل إنَّ عندي في مزرعة الشاي شخصاً لا أدري هل أتركه هناك أم آتي به.

ـ أي شخص، يا بيجان؟ عمّن تتحدث؟

ـ عجيب أنت، يا سوسويا، ألا تفهم الجورجية؟ عندي شخص في مزرعة الشاي.

ـ مَن هو؟

ـ وكيف لي أن أعرف؟

ـ ألم تسأله مَن يكون؟

ـ سألته، لكنه لا يجيب. انطرح على الأرض، وأغمض عينيه، وطوى ذراعيه على صدره، وراح يبتسم كما أبتسم أنا.

ـ وهل يتنفّس؟

ـ وكيف لي أن أعرف!

ـ هل قلبه يخفق؟

ـ وكيف أعرف؟

ـ هل هو ميت؟

ـ لم أر قط ميتين يبتسمون، يا لك من أحمق! وغضب بيجان عليّ.

ـ ما هي علّته؟

ـ كيف لي أن أعرف.

صرخت به وقد عيل صبري:

ـ وماذا تعرف إذاً، أيها الشقي!

ـ اليوم يوم أحد، وإذا كان الجو حسناً فغداً سيكون يوم الاثنين. وابتسم بيجان من جديد.

ـ اللعنة عليك، يا كسول! لنذهب سوية لتريني أين هو! وجررت بيجان بيدي إلى مزرعة الشاي.

مينادورا، عيناك السوداوان

عينان ناريّتان شيطانيتان

أمشي ولو إلى السعير إليك

لقاء نظرة واحدة من عينيك

غنّى بيجان هذه الأبيات، وسار أمامي بوقار.

اجتزنا شارعنا، وانعطفنا نحو مزرعة الشاي. توقّف بيجان فجأة، وسرّح بصره في منحدر التل، وأشار بذراعه إلى الأسفل، وقال:

ـ هناك، عند الشجرة. إنه يرقد تحتها.

ركضت حتى الشجرة وتوقّفت عندها، فبعدها كان ينمو السرخس، وكانت الشجيرات عالية بحيث يمكن إخفاء حصان فيها حتى رأسه. وفجأة أبصرت تحت الشجرة ذاتها شخصاً نحيفاً بشكل غير مألوف، مطروحاً على التربة، شاحباً شحوب الأموات، إلاّ أنَّ عظمي وجنتيه يلوّنهما تورُّد لا يكاد يبين. كان يبدو من ملامح وجهه أنه روسي. كانت يداه مستقرّتين على صدره، وكان يبتسم حقاً. ولم يكن من الممكن أن يعرف المرء هل هو يتنفَّس أم لا. جثوت على ركبتي، ووضعت أذني على صدره. نعم، إن قلبه يدق دقّاً ضعيفاً جداً، ولكنّه يدق على أيٍّ حال. جسست خدَّه بيدي، كان حارّاً جداً.

ـ متى رأيته يا بيجان؟

ـ اليوم، في الصباح الباكر.

ـ وأين كنت تتسكّع طوال هذا الوقت؟

ـ توجَّهت إلى منزلكم في الحال، يا عزيزي، ولكنني في الطريق ـ تصوّر ـ غاب هذا الأمر عن ذهني تماماً. لقد أصبحت شارد الذهن جداً في المدة الأخيرة، انعدام السكّر يؤثر في الذاكرة تأثيراً شديداً. الجميع قد ضعفت ذاكرتهم. في الصباح التقيت بالعجوز أكفيرينا، وقد نسيت أن تقول لي «مرحباً!». وإذا سألت الناس...

ـ حسناً، هذا يكفي. الأفضل أن تساعدني على حمله. ألا ترى أن الرجل يلفظ أنفاسه الأخيرة!؟

رفع بيجان الروسي المطروح بسهولة وكأنه يرفع طفلاً، وكان الروسي غائباً عن الوعي.

ـ إلى أين أحمله؟

ـ إلى البيت.

ـ أصغِ، الميت يحملونه من البيت، وأنت تريد أن تحمله إلى البيت!

ـ احمله إلى بيتي.

قذف بيجان حمله إلى الأعلى مرتين بسهولة وكأنه يريد أن يزنه ومشى، وأخذ يصعد التل مردِّداً «امش امش!».

ـ ما اسمه في رأيك، يا سوسويا؟ سأل بيجان فجأة ملتفتاً نحوي.

ـ وكيف لي أن أعرف؟

ـ امش امش، يا صاحب سوسويا الروسي امش!

وبعد قليل اقتربنا من فناء بيتنا. فقلت لبيجان:

ـ احمله إلينا مباشرة.

صعد بيجان درجات السلم، ودخل الحجرة، ووضع المريض في سريري. تجمدت عمتي في مكانها من الدهشة واحتبس لسانها، وظلت تنظر إلينا بعينين حائرتين. قال بيجان فرحاً:

ـ هذا صاحب سوسويا الروسي، يا كيتو!

فتدخّلت وقلت:

ـ وجدناه في مزرعة الشاي، يا عمتي، ويبدو أنه يُحتضر، هلاّ ساعدته بأي شيء؟

ـ مَن هذا المسكين؟ ووضعت العمة يدها على جبين الروسي، وهزّت رأسها متفجعة.

ـ أسرع إلى المطبخ يا سوسويا، واجلب الخل.

هرعت إلى المطبخ، وعندما عدت كانت العمة تفك أزرار قميص المريض. جفلت، ونظرت إلينا في ذهول. لقد كان في صدر المريض جرح دامٍ عميق لم يلتئم.

وضعت العمة المحرّ (ميزان الحرارة) تحت إبط المريض، ثم بلّلت

منديلها في الخل الممزوج بالماء، ووضعته على جبينه. قال بيجان:

ـ الخل بالخل يا كيتو، ولكن من الأفضل أن تعطيه جرعة من النبيذ، فهو أنفع له. قدِّمي له شيئاً يأكله، إذا كان لديك طعام، ما دامت روحه لا تزال في بدنه. إنَّ الرجل يموت من الجوع. انظري كيف التصق بطنه بظهره!

ـ عسى أن لا تهنأ، يا سوسويا، عقاباً لك على هذا الوضع الذي وضعتني فيه! ماذا سأفعل إذا مات هذا الرجل بين يديّ؟ ونظرت عمتي في المحرّ وقالت متوجعة:

ـ يا إلّهي! أربعون درجة وست شحطات! اذهب واستدعِ الطبيب حالاً.

ـ لا يحتاج إلى طبيب، يا كيتو، قلت لك أطعميه، فاسمعي كلامي، أنا بيجان.

ـ اذهب يا ولد! صاحت عمتي بي.

انطلقت مندفعاً خارج الحجرة.

لم أجد الطبيب في العيادة، وقالت لي المُساعدة إنه ركب السيارة ليلبي دعوة في المنطقة، ولن يعود اليوم. عندئذ هرعت إلى خاتيا.

بعد أن استمعت خاتيا إليَّ قرّرت ضرورة إحضار الجدة أكفيرينا. فذهبنا إليها، وقصصت عليها كل ما حصل من جديد. لم تضيِّع الجدة أكفيرينا الوقت. جمعت قواريرها المحتوية على سوائل عشبية مختلفة، وخرجت تتبختر في إثرنا.

ما كادت تنظر إلى المريض الممدَّد حتى قالت «إنه روسي!» وكأنَّ ذلك ذو أهمية كبيرة. فأكدت العمة على قولها.

جلست الجدة أكفيرينا على حافة سرير المريض الذي كان الآن يتنفس أنفاساً عميقة، ويبتسم أيضاً. قال بيجان قلقاً:

ـ أليس من العجيب أن يضحك؟ هل هناك داع إلى الضحك، أيها الشاب؟ بالمناسبة، يا أكفيرينا، لماذا لم تحيّيني اليوم؟ تذكر بيجان دون رابط.

ـ ابتعد بحق الإله، يا بيجان، ولا تعترض طريقي. ألم أتحدث إليك ساعة كاملة؟

هزّ بيجان كتفيه، وابتعد عنها.

رفعت الجدة جفني المريض ونظرت في عينيه، ثم أمرتني قائلة:

ـ اجلب قدحاً من نبيذ «أوديسا» يا سوسويا.

جلبت لها النبيذ من المطبخ على عجل، فبلّلت الجدة أكفيرينا قطعة قطن فيه وفركت شفتي الجريح، وجمدت مترقّبة. بعد وقت قصير سرت حركة في الشفتين. بلّلت أكفيرينا قطعة القطن في النبيذ ثانية، وعصرتها هذه المرة على شفتي الجريح مباشرة. حاول هذا الأخير أن يبتلع القطرات التي انسكبت على شفتيه، ولكن النبيذ، كما بدا، لذع فمه الذي أيبسه العطش والحر، فأنّ. قال بيجان:

ـ هاتي النبيذ يا أكفيرينا، فما دام لا يريد أن يشربه دعيني أشربه أنا.

قالت أكفيرينا غاضبة:

ـ أنت مصدر شقوتي، حتى ولو كنت غبيًّا ألا تفهم أن هذا الرجل مريض!؟ وعصرت ثانية القطن بالنبيذ في شفتي الجريح.

ابتلع بضع قطرات. عندئذ قرّبت أكفيرينا القدح من فمه فجرع النبيذ كله، وأخذ يسعل. سعل سعالاً جافاً ولمدة طويلة جدًّا. فجأة ازرق لونه قليلاً. رفعت الجدة أكفيرينا رأسه وضمّته إلى صدرها. زال السعال بالتدرُّج، وعاد إلى الجريح لون وجهه الطبيعي. وضعت أكفيرينا رأسه على الوسادة. فأخذ يئن. قالت أكفيرينا:

ـ أيتها المرأتان، اخرجا من الحجرة.

سألت العمة بهلع:

ـ هل هو يُحتضر؟

ـ لا، بل يجب أن أدلِّكه بالزيت.

خرجت العمة إلى الشرفة، وبقيت خاتيا. وقفت في الركن صامتة. نزعت الجدة أكفيرينا ملابس المريض حتى عرّته تماماً، وصبّت على راحة يدها سائلاً داكناً كثيفاً من قارورة، وأخذت تدلّك صدر المريض تدليكاً شديداً بيديها المعروقتين السمراوين.

تساءل بيجان:

ـ ألا يتدغدغ هذا اللعين؟ وضحك جذلان من سؤاله هذا كطفل صغير.

طلبت أكفيرينا أن نقلبه ظهراً لبطن فقلبناه. دلّكت ظهره وخاصرتيه. ثم قلبنا المريض ثانية على ظهره. وفي هذه اللحظة ألقيت نظرة على خاتيا، كانت لا تزال واقفة في الركن. احتدمت فجأة وصحت:

ـ اخرجي حالاً! في الحجرة رجل عارٍ.

ـ وماذا في بقائي يا سوسويا!؟

شعرت بخجل شديد، وأحسست بالدم يتدفق إلى وجهي. فجأة اعتراني غيظ عارم حتى كاد يخنقني، فصرخت فاقداً السيطرة على نفسي:

ـ اخرجي من هنا حالاً!

حدّق بيجان والجدة أكفيرينا إليّ مندهشيْن. وسأل بيجان:

ـ ألا تعرف أن الفتاة عمياء؟ ثم تحوّل إلى خاتيا وقال لها:

ـ ابقي، يا عزيزتي، ولا تعيريه التفاتاً.

استدارت خاتيا، ودون أن تنطق بكلمة واحدة، خرجت من الحجرة مطأطئة الرأس.

بعد أن دلّكت أكفيرينا جسد الجريح بالزيت سوّت الوسادة وأرقدته كما ينبغي، وأعطته جرعة من النبيذ مرة أخرى. عادت العمة وخاتيا إلى الحجرة. قالت أكفيرينا:

ـ يجب أن يلبس ثياباً نظيفة، إنه في أسمال قذرة.

ذهبت العمة إلى حجرة أخرى، وعادت بعد قليل تحمل ثياب الجد الداخلية.

قال بيجان:

ـ جيوبه فارغة كفراغ رفوف حانوتنا.

لم أفهم المغزى من كلامه، فنظرت إليه مندهشاً. كان بيجان يمسك بيديه سروال الجريح الممزّق وقميصه وقد ارتسمت الخيبة على وجهه. كانت الجيوب الفارغة قد قلبت على بطانتها.

قالت العمة مغتمّة:

ـ ماذا نفعل الآن وليست في جيوبه بطاقة هوية نعرف منها مَن هو؟

قال بيجان:

ـ إنه صاحب سوسويا الروسي.

فقلت مرتاباً:

ـ وربّما هو أوكراني؟

ـ لا فرق بين الروسي والأوكراني، فأنا في الحالتين لا يمكن أن أحفظ اسمه واسم عائلته. إنه صاحب سوسويا الروسي على أي حال.

نظرت العمة إلى المريض بريبة وسألت:

ـ هل تظنين أن الحياة ستعود إليه، يا أكفيرينا؟

ـ لقد عادت إليه بالفعل، يا عزيزتي كيتو، والشكر لهذا الأحمق. يا بيجان،، أنت الذي أنقذت صاحبك الروسي!

فرح بيجان بهذه الكلمات كما يفرح الطفل بلعبة جديدة. تقدَّم من السرير، جلس على حافته، وأمسك المريض من كتفيه، وهزّه هزاً خفيفاً، ثم راح يناديه:

ـ يا صاحب سوسويا الروسي! ـ فتحرّك وجه الجريح ـ يا صاحب سوسويا الروسي، هل تسمعني؟ مرحباً، يا رجل، حان وقت النهوض! وهزّه من جديد. فاندفعت نحو السرير وقلت:

ـ اترك الرجل وشأنه يا بيجان!

ـ ألست أنا الذي أنقذته يا أكفيرينا؟ ـ أومأت أكفيرينا برأسها إيماءة الموافقة ـ انتظروا الآن إذاً، واتركوني. انهض يا صاحب سوسويا الروسي، انهض.

فجأة فتح الجريح عينيه وكأنه استجاب لطلب بيجان. فقال بيجان فرحاً:

ـ أرأيتم؟! أليس طريفاً أنه عرفني؟

حدّق الجريح إلى بيجان طويلاً، ثم حوّل بصره إلينا، ولمعت عيناه القمحيّتان الواسعتان لمعاناً محموماً.

ـ يا أوغاد!.. ـ وابتسم ابتسامة ساخرة ملتوية.

فهتف بيجان مندهشاً:

ـ ما هذا؟!

ـ يبدو أنه حسبنا ألماناً! قلت ذلك لأُهدئ بيجان.

ـ أنا بيجان يا عجيب. أوضح بيجان للجريح، وربّت خده مبتسماً.

أغمض الجريح عينيه من جديد.

أعطت أكفيرينا العمة القوارير وقالت لها:

ـ سيهذي في أثناء الليل. اصنعي معروفاً، يا كيتو، وأعطيه هذا الدواء. ثم اطبخي له عصيدة من القمح، وليأكل منها قليلاً. وإذا لم تنخفض درجة الحرارة دعي سوسويا يدلّكه بهذا الزيت. والآن لنذهب يا بيجان، إن صاحبك الروسي لن يهرب إلى أي مكان، وستراه غداً.

اتجهت الجدة أكفيرينا نحو الباب.

فكّر بيجان قليلاً وأدى التحية للجريح، وقال بالروسية: ـ مرحباً، يا روسي! ـ وخرج وراء الجدة أكفيرينا مترنِّماً مع نفسه.

بقيت أنا والعمة وخاتيا قرب سرير الجريح. وفي منتصف الليل رفع الجريح جسمه فجأة، وجلس، ونظر إلينا طويلاً كالمبهوت. ثم نظر إلى الباب، ونادى بصوت واهن:

ـ يا ممرضة!

كتمنا أنفاسنا لنسمع ماذا يمكن أن يقول بعد. كرر نداءه، وهوى على الوسادة خائراً.

ـ ماذا تريد؟ سألت العمة بالروسية، وقدّمت له شيئاً من النبيذ، ثم جلست ثانية عند رأسه.

بعد دقائق دلّكته أنا بزيت الجدة أكفيرينا، بينما استلقت العمة على سريرها فأدركها النعاس. وواصلت أنا وخاتيا السهر على راحة الجريح. سألتني خاتيا:

ـ ماذا سيحدث له يا سوسويا؟

ـ قالت الجدة أكفيرينا أنه سيتعافى.

ـ وإذا لم يتعاف!

ـ سيتعافى، لقد كان في ساحة الحرب. هل رأيت الجرح العميق في

صدره؟ ما دام قد تحمَّل كل هذا الألم فكيف يموت من ارتفاع الحرارة؟

ـ هل جرحه عميق؟

رفعت الغطاء بصمت، وفككت أزرار قميص الجريح، وقدت خاتيا إلى السرير، ووضعت كفّها على الجرح.

ـ لو كان الجرح إلى اليسار لمات في الحال، أليس كذلك، يا سوسويا؟

ـ طبعاً!...

مرَّرت خاتيا كلتا يديها على وجه المريض ثم على كتفيه وصدره.

ـ هل هو وسيم؟

ـ لا أعرف... ربما... بمثل هذه اللحية لا يستطيع المرء أن يحكم...

ـ إنه نحيف جداً!

وفجأة تكلّم الجريح:

ـ اسمع، يا ديمكا!.. ها، ديمكا! ألا تسمعني؟ - وأرهفت وخاتيا السمع - أنا أُكلمك، هل تسمعني؟

أجبت أنا بتهيُّب أتمثّل رجلاً يسمى ديمكا:

ـ أسمع!

ـ اسمع، الجميع نيام الآن، ونستطيع أنا وأنت أن نخرج، أم أنك تريد أن تتعفّن في هذا السرير؟ أمّا هم فيزحفون ويزحفون. وقذفني بنظرة مطالبة ملحاحة.

ـ ماذا تقول؟

ـ حسناً، انهض، واترك الطبيب المعتوه وخوفه، اتركه.. لماذا أنت

صامت... هل جبنت؟ الجميع الآن نيام، ولا أحد يخفر.. انظر... - ورفع رأسه عن الوسادة قليلاً ونادى بصوت ضعيف - يا ممرضة! ممرضة! - ولزمت أنا الصمت - انظر! إنهم نائمون، اجمع أشياءك، ولنذهب.. هيّا، تحرّك.. ورفع جسمه بهمّة، وأمسك يدي.

- انتظر - وطوّقت كتفيه - انتظر حتى بزوغ الفجر!

- أنا خارج! ودفعني، وأنزل قدميه إلى الأرض فجأة، ونهض عن السرير.

- إلى أين أنت ذاهب؟ انتظر! - وأمسكته من خاصرتيه محاولاً إيقافه، ولكن تبيَّن لي أنه قوي جداً. - ساعديني، يا خاتيا، فجاءته من وراء ظهره، وأخذت تجرّه بكل قوتها نحو السرير.

- اتركوني! وانتفض بعنف حتى وقع كلانا معه على الأرض.

قفزت العمة من سريرها مذعورة، وهرعت إلينا.

- اتركوني!

كان الجريح يصرخ ويجاهد ليحرر نفسه. شتم جميع أقاربنا، ولعن، وتلوّى كسمكة قذفت إلى شاطئ. إلاّ أننا لم نطلقه، وناضلنا طويلاً مع هذا الرجل الذي أضناه الجوع والحرارة، إلاّ أن ثورته هذه لم تستطع الاستمرار طويلاً، ووهن واستسلم شيئاً فشيئاً.

قال متوسّلاً وهو يكاد يبكي:

- اتركيني، يا ممرضة، وسأجازيك على هذا الصنيع، أرجوك، أطلقيني.

وأذعن في النهاية، وتركنا نمدّده في السرير.

استغرق في النوم حالاً بعد أن أُنهك تماماً. رقدت على الأرض عند الموقد، والعمة وخاتيا في السرير.

ـ عمتي!

ـ ماذا تريد يا صغيري؟

ـ هل أنت نائمة؟

ـ نعم، نائمة.

ـ لا تقلقي، غداً سأذهب إلى مجلس القرية وأطلب منهم أن ينقلوه إلى المستشفى.

ـ نم، ولا تتكلم، فإنك ستوقظ خاتيا.

قالت خاتيا:

ـ أنا أيضاً مستيقظة.

فسألتها:

ـ غداً سننقله، أليس كذلك يا خاتيا؟

ـ ترى من أين وإلى أين هرب هذا المسكين؟ ردّت خاتيا على سؤالي بسؤال.

ـ ناما، أيها الصغيران، في الصباح ستذهبان إلى المدرسة.

ـ ولكن ماذا سنفعل به يا عمة؟

ـ ماذا سنفعل!؟ بالطبع ينبغي أن نعالجه والأفضل أن يبقى هنا في البيت.

ـ وماذا سنطعمه؟

ـ سيأكل ما نأكله.

قالت خاتيا:

ـ إنه يحتاج إلى حليب، انظري كم هو نحيف!

فقلت مضيفاً:

ـ وفطائر الذرة مع الجبنة لن تضره أيضاً.

قالت خاتيا بعد برهة:

ـ من أين جاء إلى هنا؟

ـ الحرب...

ـ يا عمة!

ـ ماذا؟

ـ أيعني أنه سيبقى عندنا؟

ـ سنعالجه أولاً يا سوسويا.. ناما يا صغيري.وأنام، وأحلم مرة أخرى بحلمي الدائم ذاته، حلم طفولتي وصباي: كنيسة القرية، وعمتي تقف عند السياج، فارعة جميلة كالأم العذراء في ثوب الزفاف الأبيض، وأمامها قد ركع جميع رجال القرية. ولكني في هذه المرة أرى جريحنا بين الركَّع، والجميع صامتون، وعمتي صامتة أيضاً، سوى أن الروسي يمد إليها ذراعيه ويتوسَّل:

ـ يا ممرضة، اتركيني، وسأجازيك على هذا الصنيع!..

وأنا أتوسل إلى العمة أن لا تتركه. وتتقدَّم من الروسي، وتمسك يده، وتنهضه من ركوعه، ثم تأخذ بيدي، ونعود سوية إلى البيت.

*

صارع الجريح الموت أسبوعاً كاملاً. كان يهذي في أثناء الليل، ويتقلّب على الفراش. وفي النهار كان يرقد بلا حراك، مثبتاً في السقف عينيه الملتهبتين. وكان بيجان يأتي كل صباح لزيارته. كان يجلس عند رأس المريض، ويتجاذب معه أطراف الحديث وكأنما يتجاذبها مع صاحب قديم، وكان يسترسل في الكلام على هذا النحو تقريباً:

ـ إذاً، فأنت لا تنوي مغادرة السرير؟ انظر كيف أن المرأة المسكينة

قد هزلت تماماً. أم لعلك لا تفهم شيئاً باللغة الجورجية، وأنا أيضاً لست عارفاً بالروسية، ولكن هيّا نجرب من منّا أكثر نشاطاً بالكلام، ها؟ أو مَن يأكل أكثر؟ أو ربما تريد أن تغني أغنية؟ ها؟ ما رأيك؟ هل سنغني بالروسية؟ لا، لا أغني بالروسية لأنني لا أعرف اللغة. إذا أردت سأغني لك بلغتنا الجورجية... وما عليك إلاّ أن تكرر من بعدي. ألا تستطيع؟ حسناً، سأغني أنا وحدي...

ويغنّي بيجان:

من حاك لك القميص
يا حلوة العيون
لقد حطمت قلبي
بالحب والفتون

ـ آه، يا روسي، يا روسي، قبل مدة قصيرة بكينا ابن لوكا بوتسخيشفيلي، فكيف أُغني الآن؟ ولكنني في الواقع غريب الأطوار، وها أنا أغني. لماذا أغني؟ ولماذا أنت تبكي؟ لأن الضحك والبكاء أخوان. وإذا أردت الصراحة فليس الوقت وقت غناء لإذاعتنا أيضاً، ولكنها تذيع الأغاني، لأن الأغنية تساعد الإنسان.. هكذا... يا عزيزي.

كان بيجان ينهي زيارته في العادة على هذا النحو. ثم يتوافد الجيران، ويأتي الطبيب، ويعاين الجرح، ويعطي دواء للمريض، ويحقنه. وعلى هذا المنوال جرت الأيام، وهكذا بعد أسبوع جلس الروسي في الفراش، وأحاط حجرتنا لأول مرة بنظرة ثاقبة. وحدّق إلى كلّ واحد منا، وسأل:

ـ أين أنا؟

وعندما أوضحنا له أين هو الآن أراد أن ينهض، إلاّ أنه لم يقو،

وسقط رأسه على الوسادة خائراً. ومن جديد عاد يحدق إلينا طويلاً أنا وخاتيا والعمة. ثم أغمض عينيه، وحزّ جبينه غضن عميق، وتوتّرت جميع عضلات وجهه. أدركت أنه غير نائم. بدا وكأنه يحاول تذكُّر شيء مهم جداً دون أن يستطيع تذكّره. وانسللنا من الحجرة بهدوء.

نزلت وخاتيا إلى الفناء، وخرجنا من البوابة، وسرنا ببطء في الشارع الضيق على طول سياج أخضر. أمسكت يد خاتيا، وانطلقنا دون أن نعرف وجهتنا. قالت خاتيا في ثقة:

ـ إنه بحاجة إلى حليب، حليب المعز، وسيشفى على الفور.

ـ ومن أين لنا حليب المعز؟

ـ لنذهب إلى مينا، ففي بيتها عنزة. وسحبتني من يدي، وانعطفنا إلى بيت مينا.

كانت مينا تكنس فناءها بمكنسة قديمة وقد أطبقت جذعها على الأرض وخلفها يلحقها طفلاها كالذيل، وهما ولد وبنت. كانا يرتديان ثوبيهما على جسميهما العاريين، وينشجان كالأطفال بلا دموع:

ـ ماما نريد مربّى..

ـ لا هنأكما الله، أطلعتما روحي! مربّى... والموت، ألا تريدانه؟ صاحت بهما مينا بعد أن نفد صبرها.

ولكن الطفلان ألحفا في السؤال دون التفات إلى حنق أمهما.

دخلت وخاتيا فناء البيت. جلست أنا على العشب عند الباب الخارجي، بينما اتجهت خاتيا نحو مينا مباشرة.

استمرت مينا في الكنس دون أن ترفع رأسها، وكفّ الطفلان عن التشكي، وهرعا إلى خاتيا:

ـ جاءت خاتيا، ماما، جاءت خاتيا!

وضعت مينا يديها على خاصرتيها، ورفعت قامتها، ووصوصت عينيها إمّا من أشعة الشمس وإمّا من الألم، ونظرت إلى خاتيا، وتألق وجهها في الحال.

ـ مرحباً، يا خاتيا العزيزة!

ـ مرحباً، مينا.

ـ ما الذي جاء بك يا خاتيا؟

ـ نريد حليباً، فلا ترفضي يا مينا.

سألت مينا مندهشة:

ـ حليب؟!

ـ نعم، نريد شيئاً من حليب المعز لأجل مريض.

ـ ليتني مت يا خاتيا! أمن المعقول أن هذه اللعينة تترك شيئاً؟ إننا نحلب العنزة حلباً لا يبقى قطرة في ضرعها ـ والتفتت نحو طفليها ـ اللعنة على بطنيكما! ماذا أفعل الآن؟ المريض يحتاج إلى الحليب بالتأكيد.

هدأتها خاتيا:

ـ لا بأس، يا مينا، سنذهب إلى شخص آخر.

ـ انتظري، يا ابنتي، انتظري.

وجرت مينا إلى الحظيرة، وأخرجت من هناك العنزة من قرنها، وكانت هذه تهز رأسها، وتثبت أظلافها الحادة في التراب المتفتت.

ـ هذه هي عنزتي يا خاتيا فانظري. إنها ليست عنزة بل ليمونة معصورة. ذبحنا جدياً عمره عشرة أيام، ليكون للطفلين حليب. تعالي وتلمّسي ضرعها، لم يعد ضرعاً، بل ليفة قديمة!

جرّت مينا العنزة نحو خاتيا مغمومة، ثم تناولت يدها وجعلتها

تتلمس ضرعها.

ـ وما الداعي إلى كل هذا يا مينا؟ مجرد أننا لم نحسب أن عندك أطفالاً.

أقبلت خاتيا عليّ وقالت:

ـ لنذهب، يا سوسويا.

أمسكت يدها، وخرجنا من البوابة.

تُرى، إلى أين يمكن أن نذهب؟ الآن، في هذا الوقت الذي يعزّ فيه الطعام لم يكن عند أي إنسان شيء زائد منه. ومع ذلك فقد قرّرنا الذهاب إلى فاساسي سوسيليا.

عندما وصلنا إلى بيتها لم نجرؤ حتى على التفوّه بذكر الحليب، فقد رأيناها بأعيننا تفتّت فطيرة الذرة في طاسة من الحليب وتقدّمها إلى حفيدها الصغير. وعندما التهم ما في الطاسة كله بنهم، ومسح سطحها بأصبعه مسحاً تاماً، قالت فاساسي لنا:

ـ ها أنتما تريان، يا عزيزيّ، أن حليب العنزة هو طعام الطفل الوحيد. وأنا من يوم إلى يوم أطعمه هذا الحليب، فهو له فطوره وغداؤه وعشاؤه. ولن أُعجب لو تحوَّل حفيدي قريباً إلى جدي.

ولم نشأ الاستمرار في البحث.

في اليوم التالي جاءت خاتيا عند الظهر، ودعتني إلى الفناء وهمست بانفعال:

ـ أعرف أين يوجد حليب المعز.

ـ أين، يا خاتيا؟

ـ هاتِ وعاء ولنذهب.

جئت من المطبخ بإبريق، وذهبت مع خاتيا. اجتزنا مزرعة الشاي،

وأحراج الجوز، وارتقينا الوهدة حيث نمت شجرة الكمثرى الكبيرة.
سألتني خاتيا:

ـ هل تسمع؟

أصغيت، فترامى إلى أذنيَّ من الأسفل هدير أصم لمسقط ماء.

ـ هذا هدير النهر.

ـ وبعد؟

أرهفت سمعي، فالتقطت أذناي صوت رنين أجراس صغيرة.

ـ أنا أسمع.

ـ عند الظهر يهبط جميع المعز إلى النهر ليشرب الماء.

ـ أنت جننت!

ـ سنحلب قليلاً ولن يشعر أحد بنا. وسيكون هذا أفضل للجميع.

ـ وإذا رآنا أحد؟

ـ ألا تريد أن يشفى المريض في وقت أسرع؟

وطوال أسبوع كنّا، خاتيا وأنا، نذهب إلى النهر. وكان المعز ما إن يرانا حتى ينطلق مشتَّتاً، ويهبط جرياً على المنحدر. وكانت أغصان الشجيرات تفرقع، وتعلق خصل الوبر بالأشواك. وكان المعز يثغو، ويفلت من أيدينا، وينسكب السائل الثمين على العشب، كما كانت خسائرنا تشمل بعض الأباريق التي تتحطّم. وكنا نعود إلى البيت ممزقي الثياب، مخدوشي الأيادي، ولكن حاصليْن على الحليب.

وكانت عمتي المسكينة، التي لم تكن تعرف شيئاً عن الأمر، تدعو بالخير للجيران الطيبين، وتسقي السائل المنعش الرجل النامي اللحية، المجهول الاسم، الذي وجد نفسه في بيتنا بغتة.

وخلال هذا الأسبوع اكتسبت وخاتيا مراناً كبيراً حتى استطعنا أن نحلب المعز وهو يكاد يجري.

كان من الصعب التنبؤ كم كان هذا كله سيستمر لو لم تُفزع صيحات إيديميكا غوردلادزه القرية كلها ذات مساء:

ـ يا ناس! اخرجوا بسرعة!

ـ ماذا حدث، يا إيديميكا؟ تساءل الجيران المذعورون وقد خرجوا من بيوتهم.

ـ اخرجوا، اخرجوا! شخص لا ضمير عنده حلب عنزتي.

ـ عسى الموت أن يحلب من حلبها! يوم أمس عادت عنزتي بهذا الشكل أيضاً! قالت مينا متفجّعة.

ـ حلبت عنزة ماشيكو أيضاً حتى أنَّ الضرع لم يعد يدر حليباً.

ـ لو ظفرت بهذا الحالب اللئيم لبقرت بطنه في الحال!

وأعلنت فيدوسي:

ـ أما عنزتي فإنهم يحلبونها بين يوم ويوم!

ـ أنا أعرف هذا الوقح، ولكنني أسكت في الوقت الحاضر ـ ورفع إديميكا ذراعه وهدَّد بأصبعه ـ فتوسَّل إليه المتضرِّرون:

ـ قل مَن هو إذا كنت تعرفه!

أجاب إديميكا:

ـ هو مَنْ بحاجة إلى حليب المعز.

ـ يا لهذا الاكتشاف!! وكأن هناك مَن لا يحتاج إلى الحليب.

ـ أمهلوني يوماً آخر، وسأكتشف الأمر. وعد بذلك إديميكا.

ففرح الجيران قائلين:

ـ ساعدنا، يا إديميكا!

عمَّ القلق القرية كلها، وكفّ أهلها عن إطلاق المعز ليرعى في المراعي، وإذا حدث أن أُخرج هذا الحيوان الثمين رافقته حراسة كاملة

مؤلفة من صاحبه وأهل البيت جميعاً. وكنت وخاتيا إذذاك نسير منكسي الرأسئن.

في المساء الذي جلبنا، أنا وخاتيا، آخر مقدار من الحليب دعتنا العمة إليها وقالت:

ـ اقتربا، يا أولاد. تقدّمي مني يا خاتيا.

ـ ما الأمر، يا عمة كيتو؟

ـ أريني يديك، يا خاتيا.

مدت خاتيا يديها المخدَّشتين المجرَّحتين.

رفعتهما العمة إلى أنفها، وشمتهما شمّاً عميقاً. وفعلت الشيء ذاته بيدي.

ـ ماذا حدث، يا عمة؟

ـ أيديكما فيها رائحة معز.

ولم تقل شيئاً آخر.

الاجتماع

تمَّ الإعلان عن أنَّ اجتماع الكولخوز سيعقد في المساء كالعادة، ولكن الجرس كان يقرع داعياً، كالعادة أيضاً، منذ الظهر. لم تكن للناس المتعبين رغبة في الاجتماع، فكان لا بد من التوسُّل والرجاء من كل شخص.

ـ يا أرخيبو، اذهب إلى الاجتماع!

ـ إديميكا، هل ستسمح للروماتيزم أن يغلبك؟

ـ أتقول لن أذهب، يا ديوميدا؟ انتظر. إذا لم أَشكُكَ إلى اللجنة التنفيذية فلن أكون زوسيما!

ويرد ديوميدا على زوسيما الذي تسلّق شجيرة توت:

ـ يا زوسيما، يا أبا رقبة، من الخير لك أن لا تصرخ، واتركني أستريح، وإلاّ فسأخرج بندقيتي، وستسقط كالعصفور من على هذه الشجيرة.

ـ تعالي يا كسينيا بسرعة، وخذي معك زوجك!

أمّا نحن الأولاد فلم يدعنا ولم يتوسل إلينا أحد. غير أنَّنا هرعنا من تلقاء أنفسنا إلى المدرسة حيث كانت الاجتماعات تعقد عادة، فقد كان ذلك تسلية مبهجة لنا. لشدّ ما كان منظر الكبار مضحكاً وهم يتزاحمون، مقطّبي الحواجب متوجّعين، على المقاعد التي كنا ننحشر ونتعذب فيها نهاراً! كانوا بوجوههم التي لوّحتها أشعة الشمس، وشعورهم التي اشتعل فيها الشيب، يبدون كباراً بشكل بارز في صفنا المكتظ، وراء الطاولات الواطئة. أما نحن الأولاد فكنّا نجلس على الأرض ونلتقط كل كلمة تلفظ في هذا الدرس العجيب الذي لا ينظر فيه المعلم في قائمة الدوام، ولا يرفع التلامذة أيديهم ليجيبوا دون أن ينهضوا من أماكنهم، ويدخنون، ويقاطع بعضهم بعضاً، ويخاطبون المعلم دون كلفة، ولا أحد يطردهم من الصف عقاباً على هذا كله. وأنا أُصغي، وأراقب، وأحلم بذلك الزمن السعيد الذي أُصبح فيه رجلاً راشداً تماماً، فيدعونني بقولهم «اذهب يا سوسويا إلى الاجتماع»، وأستطيع أن أتجادل مع زوسيما، وأسمّيه «أبو رقبة» وأهدِّده، ويقولون أخيراً في أثناء التصويت: «سوسويا امتنع عن التصويت».

وها أنا وخاتيا الآن أيضاً جالسان على الأرض عند قدمي العمة، وهنا أيضاً استقرَّ بيجان، ونحن بانتظار بدء الاجتماع. الصف يهدر، والنوافذ مفتوحة على مصاريعها، ومع ذلك فإنَّ الحر لا يطاق، والتنفس عسير جرّاء خليط رائحة التبغ والعرق والتراب. والدخان

يحرق العيون، والشيوخ يسعلون، والرجال يدخنون بكثرة، ملقين بين الفينة والأخرى عبارات قصيرة، والنساء يثرثرن دون انقطاع. ويستمر الناس في التوافد.

قال زوسيما، وقرع بالقلم جرساً قُطع لسانه:

ـ ازدحم الصف، يبدو أن الجميع قد حضروا، فلنبدأ ـ ثم سأل مفكراً ـ من ننتخب رئيساً للاجتماع؟

قال ديوميدا بمرح:

ـ انتخب نفسك، فقد ولدت رئيساً، ولا تصلح لشيء آخر.

فدعاه زوسيما متلطفاً:

ـ تعال إلى هنا وجرّب أي عمل هو عمل الرئيس!

ـ لا، لا أنوي أن أُجادل من أجل الرئاسة مع جارٍ من ذهب مثلك! قال ديوميدا متهكّماً.

ـ من أسوإ أيام حياتي اليوم الذي أصبحت فيه جاراً لي.

تدخّل غيراسيم ليقطع النقاش:

ـ اقرأ جدول الأعمال يا زوسيما، وإلاّ فسيبزغ الفجر قريباً.

سعل زوسيما، ووضع نظارته وفتح ملفاً كبيراً للأوراق، وأخرج منه ورقة ورفعها إلى أنفه، وفي تلك اللحظة تذكر شيئاً فجأة فقال:

ـ حسناً، وسكرتير الاجتماع؟

ـ كن سكرتيراً أيضاً! وابتسم ديوميدا ساخراً.

قال بيجان:

ـ لا يستطيع الإنسان القيام بكل هذه الأعمال.

نظر زوسيما إلى بيجان من وراء نظارته، ولكنه آثر الصمت حين رأى الاهتمام الجدّي على وجهه.

ـ ربما نجري قرعة.

ـ قال أبو خاتيا ولم يطق صبراً:

ـ ألق حجراً إذا شئت وضع رأسك تحته، فقط ابدأ!

سعل زوسيما مرة أخرى، وبدأ:

ـ في جدول الأعمال تقرير عن مسألة تغيّب الكسالى، وباختصار، مسألة التقاعس في العمل. وسيلقي التقرير الرفيق كيشڤاردي ڤاشاكيدزه رئيس كولخوزنا.

رنَّت في الصف تصفيقتان، أو ثلاث، مثل طلقات الرصاص. ونهض كيشڤاردي، وشرب قدح ماء، وأحكم شد حزامه، وبدأ يتكلم بصوت غليظ:

ـ أيها الرفاق، هذه السنة صعبة بشكل خاص، وقد استشرس هتلر، واقترب من كيسلوڤودسك، وساءت حال الشعب. ونحن نعاني مجاعة وحرماناً، ونقصاً في الملابس، والأحذية. ألا تفكّر يا كيستافوريه باسيليا بابنك الذي يحمل الآن السلاح في الحرب هناك، ويوجِّه النار إلى هتلر؟ هل هو شبعان، مكتسٍ، ومنتعل حذاء في قدميه؟

ـ هذا هو الأمر الذي يقتلني، يا كيشڤاردي.

ـ يا عزيزي غيراسيم، إن ابنك في المستشفى، أفلا تعتقد أنه والذين يرعونه يحتاجون إلى غذاء؟ وأنت يا راجدن، إنَّ ابنك يقود دبابة، فهل هذه الدبابة تنمو على شجرة كمثرى أو إجّاص؟

وتردّدت أصوات:

ـ تحدَّث بصراحة يا كيشڤاردي! ماذا تريد أن تقول؟

ـ البلاد بحاجة إلى خبز، إلى ذرة، إلى فول، وأبقار وعجول، فلماذا نحن قاعدون هنا، ولأي شيء أبقتنا الحكومة كالقواعد من النساء، ألأننا لا نجيد الرماية؟ ليخرج مَن يريد وسيجد كيف نصوّب في خاتم

الخطوبة، في شعرات في الرأس. إنّنا هنا ذوو أهمية ولهذا أبقونا. وللحرب استعدادات كبيرة، أكبر بعشر مرات من استعدادات السلام. أفلا تدركون ذلك؟

قفز غيراسيم وقال:

ـ هذا سكين يا كيشڤاردي، فاقطع حلقومي! أتظن أننا لا نشتغل؟

ـ أنا لا أقصد الجميع. لا توجد شكوى ضد الرجال. وعلى النساء أيضاً... ولكن البعض... البعض... يقتلنا!

ـ سمِّ كل واحد باسمه يا كيشڤاردي!

أخرج كيشڤاردي من جيب صداره ورقة طويت مرتين، وبسطها. وساد الصمت في الصف. نظر كيشڤاردي في هذه الورقة طويلاً، وأخيراً ابتدر قائلاً:

ـ أين أمباكو، أين كيريله، أين كيكيتيا، أين فيدوسي، باراميدزه، وكنّتها ماكڤالا؟ أين هؤلاء جميعاً؟ مَن لا يريد أن يعمل فليذهب إلى الغابة مثل داتيكو، وليسبت في جحر الضب. إن الحرب، أيها الأعزاء، لم تنته بل بدأت لتوها، وإذا نحن أنفسنا لم نهتم بأنفسنا فلا أحد سيهتم بنا! يا لوكا بوتسخيشڤيلي، قل شيئاً ما! أنهى كيشفاردي كلامه وجلس في مكانه.

منذ تلك الليلة المشهودة لم يسمع أحد لوكا يتكلّم. كان يصعد إلى الجبل قبل بزوغ الفجر، يشتغل كالثور، ويعود إلى البيت عندما تختفي الشمس خلف الجبال البعيدة، ويستلقي عند مدخل الباب مغمضاً عينيه، وفي أغلب الظن لو أن العالم انقلب رأساً على عقب لما فتح لوكا عينيه، ولما تحرّك من مكانه.

سمع اسمه فانتفض، ومن الدهشة نهض، ثم جلس، ونهض ثانية، وتقدّم من المنضدة، وشرب قدح ماء، ونادى بصوت أجش:

ـ تبغ!

قدّم عشرة رجال التبغ له، واقتطع عشرة رجال مزقة من الجريدة، وأخذ عشرة رجال يقدحون الشرارة بصوان. وانتشرت في الحجرة رائحة الشياط الحادة. لفّ لوكا لفافة بيد مرتعشة، ومجّ منها نفساً عميقاً. وساد الصف صمت كصمت القبور، وتفصّد جبين لوكا بقطرات عرق كبيرة كقطرات الندى. وبدأ يتكلم:

ـ أنا... ماذا أنا. الحرب بالنسبة إليّ قد انتهت منذ زمن بعيد، وكان يجب أن ينطوي ذراعاي على صدري، ولكن الموت لا يحترم ملاكاً ولا شيطاناً، ولا يأتي ليأخذني ـ وهنا صمت لوكا قليلاً، ومجَّ عدة أنفاس وتابع كلامه ـ إنه لا يأتي، وما دام لا يأتي فأنا لا أستطيع أن أقعد مكتوف اليدين. وإنَّ كل ما في جسمي من دم، وكل الدمع، يتحوّل إلى عرق.. فإمّا أن أسحق هتلر وإمّا أن أظل هكذا وأموت واقفاً. هذا عهدي لكم. وأنتِ يا أفغينيا ألا تحسين بالإحساس ذاته؟

قالت أفغينيا بصوت لا رنَّة فيه:

ـ دعني، يا لوكا، لا تنثر الملح على الجرح، ولا تجعلني أذرف الدمع أمام هؤلاء الناس كلهم.

وكأنَّ صخرة ثقيلة سقطت علينا جميعاً. ثم سرت في الصف ولولة صمّاء. وعاد لوكا إلى مكانه، وجلس، وغطى عينيه بيديه.

فجأة وقفت كسينيا وقالت:

ـ اكتب يا زوسيما!

نظر زوسيما المندهش إلى كيشڤاردي بتساؤل.

وعادت كسينيا تقول:

ـ قلت لك اكتب!

هزَّ رئيس الكولخوز رأسه لزوسيما موافقاً. وتابعت كسينيا كلامها:

ـ اكتب: عسى الشمس أن لا تشرق على فناء من لا يخرج إلى العمل دون سبب، وعسى أن يفقد القدرة حتى لا يستطيع أن يلوي دالية عنب.. وعسى أن تصيب قلبه رصاصة طائشة... عسى...

صاح ألڤيسي سوسيليا:

ـ لماذا تدعو هذه الممسوسة كما تدعو السعلاة؟

فقالت كسينيا:

ـ كلامي موجَّه إليك لعلمك.

ـ ماذا تريدين مني وأنا أعمل كالثور، ربما تريدين أن أصرخ كالبهيمة!

ـ يجب أن تصرخ!

قفز إديميكا فجأة وقال:

ـ بدلاً من هذه التعاويذ السوداء من الخير لك أن تكتب عن معزنا وهو يحلب أسبوعاً كاملاً من قبل شخص مجهول!

وجمدنا، أنا وخاتيا.

ـ لستُ بحاجة إلى صياح كسينيا، فأنا أعمل دونها، بل أنا بحاجة إلى حليب. إن الذين لا يخرجون إلى الحقل هم الذين لم يأتوا إلى هنا، أما نحن فلماذا تدعو علينا!؟

قال كيشڤاردي:

ـ وهذا ما نريد أن نعرفه، أين هؤلاء الناس؟

صاح إديميكا:

ـ ولكن الذي يهمّني أكثر هو معرفة مَن الذي يحلب عنزتي!

أيّدته ماكو ومينا وماشيكو وفاساسي وآخرون بصوت واحد:

ـ هذا صحيح!

وهاج الجميع فجأة وماجوا، وأخذوا يتكلمون. وعاد زوسيما يقرع بالقلم الجرس الخالي من اللسان، ولكن أحداً لم يلتفت إليه.

صرخ كيشڤاردي وهو يضرب المنضدة بقبضته:

ـ هدوء، هدوء، انتظروا!

وهدأ الناس شيئاً فشيئاً.

ـ قل لنا يا إديميكا غوردلادزه، عن أي عنزة تتحدث؟

ـ عن عنزتي.

فهتفت مينا:

ـ أخبره عن عنزتي أيضاً!

ـ ليتحدّث كل شخص عن عنزته.

ـ حقاً. الكلام الآن عن عنزة إديميكا. اخرج يا إديميكا!

ـ سأتكلم من هنا.

ـ تكلم، ابدأ!

ـ لا أعرف حتى من أين أبدأ!

ـ من الذيل، ابدأ من الذيل يا إديميكا!

حكَّ إديميكا عصب صفحة عنقه، ثم عاين يديه وأظفاره، ومن ثم نظر إليَّ، حدّق إليَّ طويلاً، وعندما غضضت بصري، هزّ رأسه وكأنه يقول: «رويدك، سأريك» وبدأ يتحدث.

ـ أيها الجيران، العنزة ليست بقرة.

هتف بهذه العبارة بيجان مندهشاً.

ـ صحيح؟! ومن أين عرفت؟

وارتفع ضحك جماعي.

ـ يا كيشڤاردي، قل لهذا المعتوه أن يسد فمه وإلاّ قعدت في مكاني.

قال كيشڤاردي معيداً النظام:

ـ سأخرجك من الاجتماع يا بيجان.

سدَّ بيجان فمه بيده. وواصل إديميكا كلامه:

ـ أنتم تعرفون عنزتي، إن أحد قرنيها مكسور، وبها عرج في قائمتها الخلفية. وهي تدر كل يوم ليترين من الحليب فقط.

ـ أيها الكافر، وأنت أيضاً ألا يؤنِّبك ضميرك وأنت تحلب عنزة عرجاء؟

ـ لم أكسر أنا قائمتها، بينما الحليب متساو في جميع المعز... إذاً.. حسناً قلت إنها تدرّ ليترين من الحليب فقط، ليتراً في الصباح وليتراً في المساء. وماذا يحصل الآن؟ أحلبها في الصباح، أمّا في المساء فتعود وليس في ضرعها قطرة من حليب. وليتر الحليب، كما يقول طبيبنا، يعادل اليوم ليتراً من الدم...

فقال بيساريون:

ـ وطبيبنا يقول، يا إديميكا، إنَّ ثمرة خرما (برسيمون) واحدة تعادل بيضتين كبيرتين، وإنَّ ثمرتين من الخرما تعادلان دجاجة كاملة!

فغضب إديميكا وقال:

ـ وهل هذا غير صحيح؟

ـ صحيح بالطبع، وما إن سمعت به حتى غرست شجرة خرما أمام بيتي، والآن لست بحاجة إلى دجاج، ولا إلى خنّ الدجاج. فإنني أتغذى بثمار الخرما ولا همَّ ولا غمَّ.

ـ هذا شأنك، أما أنا فأقول إنَّ ليتر الحليب يعادل نصف ليتر من الدم

في أقل تقدير.

فصرخ أحد الحاضرين:

ـ اختصر يا إديميكا!

ـ لا، يا أعزائي، لست أنا الذي عيّنت ذلك ـ وكان واضحاً أن إديميكا أخذ كل شيء مأخذ الجد. فاستعجله زوسيما:

ـ حسناً، قل أخيراً مَن يشرب هذا الليتر من الدم من دم عنزتك؟

ـ لا يشرب دم عنزتي، بل دمي أنا! ـ وضرب إديميكا صدره بقبضته بقوة. وتناول قدح الماء وأطبقه بظمإ على حلقه الصغير، ومن ثم وضعه بجلبة على المنضدة، ثم رفع قبضته من جديد ليضرب بها صدره، إلاّ أنَّ زوسيما أسرع فأمسك بيده.

ثم خاطب زوسيما الحضور:

ـ هل يوجد متضرّر آخر هنا؟

ـ أنا! أنا! أنا! ـ وقفزت مينا وماكو وماشيكو وفاساسي.

ـ دع أصحاب المعز يثغون «ما.. ع.. ماع»! ـ طلب بيجان ذلك، وانخرط يقهقه، وتبعه الآخرون جميعاً.

اغتاظ إديميكا واندفع نحو كيشڤاردي وقال:

ـ هذا الأحمق يهزأ بنا!

ـ يا بيجان، كفَّ عن ذلك أو اخرج من هنا! ـ هدَّده كيشڤاردي، وأشار إلى زوسيما بالاستمرار. سأل زوسيما مينا:

ـ كم ليتراً من الدم تدر عنزتك يا مينا؟

ـ تدر أربعة ليترات.

ـ وعنزتك يا ماشيكو؟

ـ ثلاثة.

ـ وعنزتك يا ماكو؟

ـ عنزتي حامل، ولهذا فإنها تدر ليتراً واحداً.

ـ وكم تدر عنزتك يا فاساسي؟

ـ تدرّ ليترين.

ـ ٤ + ٣ + ١ + ٢ + ٢ أخرى لإديميكا، كم تساوي؟

أجاب محاسب الكولخوز:

ـ تساوي اثني عشر ليتراً.

ـ اقسمها على اثنين!

ـ ستة.

ـ فتساءل إديميكا في غضب:

ـ ولم القسمة؟

ـ شرح زوسيما:

ـ لأنكم تحصلون على النصف في الصباح، والنصف الآخر يحلبه مجهول في المساء.

فأيّدته أصوات:

ـ هذا صحيح!

ـ إذاً، فما هو المطلوب في هذه المسألة؟

أجاب بيجان:

ـ المطلوب في هذه المسألة: هل يدر المعز دماً أو حليباً؟

ـ اسكت، أيها المختل. المطلوب مَن يحلب معز الآخرين!

انفجرت في الصف عاصفة من التصفيق. قال العم غيراسيم هازًّا رأسه بارتياب:

ـ أنا لا أرى بين هذه الوجوه المصفرّة وجهاً يمكن أن يقال إنَّ صاحبه يشرب ليتراً من حليب المعز كل يوم!

سأل ساشورا، وكان حتى هذه اللحظة صامتاً:

ـ أيها الناس، هل من المعقول أنكم حقاً لا تعرفون من يحلب معزكم، أم أنكم تتحامقون عن قصد؟

التفتت جميع الرؤوس إلى ساشورا، وكنت أنا أكثر الناس دهشة، فتفرّست فيه. لفّ ساشورا لفافة رابط الجأش، ثم مرّر لسانه بهدوء غير اعتيادي، رواحاً ومجيئاً، على حافة مزقة الجريدة التي لف بها لفافته. شدّت خاتيا على يدي، ورمشت برموشها الطويلة رمشاً سريعاً. وهتف أحد الحاضرين:

ـ تكلّم يا ساشورا، تكلّم ولا تعذّب أرواحنا!

ـ داتيكو هو الذي يحلب معزكم! نطق ساشورا بهذا دون أن يرفع رأسه، وضغط زناد قداحته، فقدح شرارة.

صمت الجميع عند ذكر داتيكو، وكأنما تحوّلوا إلى صخور، وتوقّف الدم في عروقي، وتفصّد جبيني عرقاً بارداً.

ـ أي داتيكو، يا ساشورا؟ سأل زوسيما «أبو رقبة» أخيراً بصوت متلجلج.

أجاب ساشورا:

ـ داتيكو الذي نعرفه... لم يكفه أنه شاننا وفضحنا أمام العالم كله، والآن يجوب الغابة، مثل ابن آوى جائع، ويحلب معزنا. أغلب الظن أنه يعرف أنّه لو تعرّض لي، ولكم بالطبع، فإنه سيجد الحديدة حامية، فاختار المعز. ومن غيره يعمد إلى هذا العمل؟

وراح ساشورا ينفث الدخان من لفافته. فسألت فاساسي بتهيُّب:

ـ لعلّك ستتحمل خطيئة الناس يا ساشورا!

ـ لا، اطمئني، سيغفر الرب هذه الخطيئة!

صرخت ماشيكو وهي تصفق بيديها:

ـ أتمنّى أن ينزف دماً بقدر الحليب الذي شربه من عنزتي! إذا كان قد سار في هذا الطريق فعمّا قريب سيدخل البيوت، وينتزع فطائر الذرة الساخنة من الموقد دون أن يخجل.

وقالت ماكو:

ـ لا تستغربي، يا عزيزتي! فهذا بيجان قد رآه قبل أيام في وهدة الدب مدجَّجاً بالسلاح من رأسه حتى أخمص قدميه!

سأل زوسيما ناظراً إلى كيشڤاردي:

ـ قولوا إذاً، لِمَ يلزمه السلاح إذا كان لم ينو نية سوداء؟!

قالت مينا بقلق:

ـ اليوم ينتزع آخر لقمة من أفواهنا، وغداً يحرق البيوت، وبعد غد يقتل الناس أيضاً.

قال ساشوراء بهدوء:

ـ ولا غرابة في كل ذلك!

فتساءل العم غيراسيم:

ـ وأين ولي الأمر عندنا؟

وراح الناس يتهامسون بجلبة.

ـ قل لنا شيئاً، يا كيشڤاردي، فأنت ولي الأمر عندنا وعليك أن تجيب. قال بيساريون محدِّقاً إلى كيشڤاردي.

فأكّد له هذا الأخير:

ـ إننا نبحث يا بيساريون.. نبحث. نحن نبحث والمنطقة تبحث عنه!

ـ إنكم لا تبحثون جيداً، يا أعزائي، لا تبحثون جيداً!

قفز ساشورا من مكانه وقال:

ـ فمثلاً، أنت يا بادريا ماذا تفعل، وبأي شيء تشتغل؟ علّقت المسدس في حزامك مثل عظمة كلب بينما عيناك لا تبصران ـ هجم بهذا الكلام على رجل الميليشيا بادريا غاغوا.

بهت بادريا، ثم قفز أيضاً وهاجم ساشورا:

ـ يا ساشورا كفاتشانتيرادزه، أنا لست بحاجة إلى تعاليمك. لقد قال كيشڤاردي لك إننا نبحث، وهذا يعني أننا نبحث! لم ألتق ولم أصادف هذا المنبوذ في أي مكان، فماذا تأمر أن أفعل؟

ـ وأنت، مثلاً، ألا تخافه يا بادريا؟

ـ ماذا!؟.. ـ وصار بادريا في بياض الجدار ـ ليقف من قال هذا. ـ وران في الصف صمت القبور. ثم صرخ بادريا فجأة ـ ليقف من قال هذا! إذا كان رجلاً حقاً، وسأخرج دماغه! ـ وأمسك بادريا بالمسدس.

وارتفع طنين بين الناس من جديد.

قال إديميكا فجأة وقد نهض:

ـ اهدأوا أيها الناس.. اهدأوا، من الخير لكم أن تسألوني وسأقول من يحلب معزكم.

فتردَّدت أصوات مستفسرة:

ـ قل، يا إديميكا!

ـ نعم!.. لولا أنني أخاف أن أُكدِّر شخصاً عزيزاً محترماً جداً لقلت ـ ونظر إديميكا إلى العمة نظرة ذات مغزى.

قالت العمة بصوت لا يكاد يسمع، وقد امتقع لونها:

ـ تحدَّث يا إديميكا...

قال إديميكا بلسان متلعثم:

ـ كيتو! أنـ...ـت تعرفين كم أحبك... ولكن.. ولكن إن أنت أخفيت الأمر فإن ذلك سيضر بفتاك أكثر..

ساد صمت عميق.. واتجهت كل الأنظار إليَّ. وفجأة ضجَّ الناس دفعة واحدة:

ـ أنت تكذب يا إديميكا، صعلوك!

ـ ومَن يصدِّق ادعاءه!

ـ أنت الذي تحلب وتفتري على الآخرين!

ـ اجلس، يا إديميكا وإلاّ مزّقناك!

ـ مَن يثبت ذلك؟

قالت العمة بهدوء:

ـ انتظروا يا ناس! قل يا إديميكا ماذا تعرف!

ـ أنا لا أعرف شيئاً، ولكنني في صباح أحد الأيام التقيت سوسويا، وكانت خاتيا معه أيضاً ـ وأومأ إديميكا برأسه إلى خاتيا.. ولم تضطرب خاتيا بالطبع، كانت تحدّق إلى الأمام بهدوء. وواصل إديميكا القول ـ وقد قال لي «أود أن أحصل على حليب». عندئذ قلت «الحليب والدم في أثناء الحرب بقيمة واحدة». وماذا حصل؟ في المساء عادت عنزتي إلى البيت وليس في ضرعها قطرة من الحليب. وقد استمر هذا الأمر أسبوعاً كاملاً! هل قولي صحيح يا نساء؟ ـ وصمتت النسوة، وصمت إديميكا، وصمت الجميع وقد أذهلهم هذا الاكتشاف كما يبدو.

قال بيجان بقوة، بعد أن نهض عن الأرض مبتسماً ابتسامة مشرقة:

ـ كل هذه أكاذيب! إن إديميكا كذاب، وكذاب قذر! من قال إن سوسويا وخاتيا لصان؟ الذي حلب معزكم هو أنا.

سأل زوسيما وقد كدّره ما حصل:

ـ هل أُسجِّل هذر هذا الأحمق أيضاً؟

هزَّ الرئيس رأسه بصمت. وتابع بيجان قوله:

ـ حلبت كل العنزات بالتناوب. ثم ماذا؟ أنا لا أشتغل في الكولخوز، وليست عندي أيام عمل، وليس صحيحاً على الإطلاق قولكم: مَن لا يشتغل لا يأكل. فإن عنزكم لا تشتغل أيضاً في الكولخوز، ولكنها ترعى في كل مكان، وتأكل قدر ما تشتهي! فعمدت أنا إلى حلبها بشفتيّ، هذا كل ما في الأمر. ـ ومثَّل بيجان كيف فعل ذلك بعد أن وضع إبهاميه في فمه.

ـ هل انتهيت يا بيجان؟ سألت العمة وقد طنَّ صوتها في الصمت.

أجاب بيجان:

ـ نعم، يا كيتو، يا عزيزتي.

ـ إذاً، اجلس، يا بيجان.

جلس بيجان بيني وبين خاتيا وهو يهز رأسه برضًى، وغمز لنا غمزة لا تكاد تلحظ.

نهضت العمة من مكانها، وتكلّمت بصوت لا رنين له:

ـ اعذروني، يا جيراني، أنا الملومة في كل ذلك، أنا التي أرسلت الولدين بحثاً عن الحليب، وكانا يأتيان به كل مساء ويقولان إن الجيران هم الذين أرسلوه، ولم يخطر في بالي مرة أن أتأكد من ذلك. وقد كنّا بحاجة إلى الحليب لأجل مريض، فقد وجد بيجان جندياً جريحاً محتضراً جائعاً، وحملوه إلى بيتي. وقد أعاد حليبكم إليه عافيته وقواه، وهو الآن ينقه. اعذروني على ذلك، وسأرد لكم فضلكم يا جيراني.

توجه إديميكا إليّ قائلاً:

ـ اخزيتني يا سوسويا.. فضحتني أمام جميع الناس الطيِّبين! هل كنت تريد ذلك؟ لو جئت إليَّ وقلت لي حقيقة الأمر بصراحة لأهديت لك عنزة حلوباً ممتازة! يا لك من فاسد جعلني مادة للهزء! جعلت بيجان يضحك مني!

نهضت وساد الصمت مرة أخرى.

قال كيشفاردي مبتسماً:

ـ اخرج من مكانك يا سوسويا ماماالادزه، وقل لنا كيف حدث ذلك كله. نحن نعرف أنك لا تأتي بفعل سيّئ.

تقدّمت من المنضدة.. وقلت:

ـ العم كيشفاردي، العم إديميكا... أنا وخاتيا، قسماً بروح أمي يا عم إديميكا، لم نضع قطرة حليب واحدة في فمنا...

وفي هذه اللحظة أحسست بغصّة في حلقي، وأخذت وجوه الناس تهتزّ في عينيّ وتتكاثر، وتلألأت القاعة، وتحلّلت، وتحوّلت في عيني إلى لطخة. ثم تقدّم مني شخص، وقادني إلى مكاني، وأجلسني فيه، وحضنني. واستقر رأسي على كتفه.

فجأة دُفع الباب من الخارج بقوة، فانفتح مصراعاه بارتجاج، واقتحم ساعي البريد كوتيا الحجرة وقد علّق على كتفه حقيبته السوداء الضخمة. بدا لا يكاد يقف على قدميه، يترنح ويتمايل من جهة إلى أخرى، ومن جدار إلى آخر. وأخيراً، وبعد جهد شديد بلغ المنضدة، وركّز عليها كلتا يديه، وأفرج ساقيه بشدة، وبعد أن ثبّت نفسه بهذه الطريقة، نظر إلى القاعة بعينيه الكدرتين. وقال بلسان متلعثم:

ـ لا تستطيعون تحمُّل نظراتي، ها؟

حيّاه العم غيراسيم:

ـ مرحباً، يا كوتيا!

ـ مرحباً، أين الرئيس؟ ـ وحدّق إلى كيشڤاردي الواقف على مقربة. فأجاب كيشڤاردي بلطف واضعاً يده على كتفه:

ـ أنا الرئيس، يا كوتيا، ألم تعرفني؟

ـ أنت كيشڤاردي؟ ها، نعم، عرفتك، فأنت الذي عيَّنتني ساعي بريد.

ـ نعم، أنا الذي عيّنتك ـ وابتسم كيشڤاردي بلطف.

ـ ما دمت قد عيّنت، هيّا افتتح الاجتماع!

ـ الاجتماع افتتح، يا كوتيا!

ـ إذاً، اسمح لي بالكلام.

قالت كسينيا محتدة:

ـ صبّ على رأسه ماء من هذه القلة، حتى لا تطلع عيناه المخمورتان! أين سكرت هذه السكرة، أيها التعيس؟

التفت كوتيا نحو كيشڤاردي:

ـ قلت اسمح لي بالكلام!

ـ أي كلام، يا كوتيا؟ لقد انتهى الاجتماع!

توجه كوتيا بعينيه نحو الناس:

ـ اسمحوا لي أن أقول نخباً واحداً، يا مقطوعين!

ـ صُبَّ له قدحاً، يا كيشڤاردي، إنه يريد أن يقول نخباً!

قال بيجان:

ـ ما دمتم قد استمعتم إليّ يمكنكم أن تستمعوا إليه أيضاً.

وافق كيشڤاردي، ورفع يده قائلاً:

ـ حسناً، تحدّث.

انحنى كوتيا انحناءة كبيرة إظهاراً لامتنانه فكاد يفقد توازنه، وسأل:

ـ مَن بدأ الحرب؟ أنا أسألكم مَن بدأ الحرب؟

أجاب شخص بتهيُّب:

ـ هتلر بدأ الحرب، يا كوتيا، أم أنك تريد أن تتّهمنا نحن ببدئها؟

ـ كذب، ليس هتلر الذي بدأ الحرب.

ـ غوبلز!

ـ ولا غوبلز!

ـ ربما بيجان الذي بدأها؟

ـ أنا الذي بدأت الحرب، أنا يا كفّار! ـ همس كوتيا همساً قوياً، وهزّ رأسه بتعب.

ـ آه، أيعني هذا أنك هتلر؟

صاح بيجان ضاحكاً:

ـ وقعنا في مصيبة، هلكنا، أيها الناس، فماذا ستقول الحكومة؟! إن هتلر يعيش في شواخيفي، ويشتغل ساعي بريد، والرئيس كيشڤاردي يُسجِّل له أيام عمل.

سرى الضحك في القاعة. وانتظر كوتيا حتى عاد الهدوء، وتابع كلامه:

ـ نعم، يا جيران، أنا الذي بدأت...

فقال له إديميكا:

ـ اتَّهم نفسك تهمة غير هذه يا تعيس، على هذه التهمة تُرمى بالرصاص.

نادى كوتيا، وأجال عينيه في القاعة:

ـ يا كيساريا سوسيليا، انهضي، إذا كنت موجودة هنا..

ـ أنا هنا، يا كوتيا، ولكن لا تقل لي شيئاً رهيباً، لا تقتلني! توسّلت كيساريا.

وتحوّل لونها فجأة إلى لون التراب.

ـ بمن التقيت في ذلك الصباح، ومَنْ أول مَنْ قال لك: «الحرب بدأت، يا كيساريا». قولي مَن كان هذا الشخص؟

ـ ولكن ما دخلك أنت في ذلك يا كوتيا، وقد كان يجب أن يقول هذا أحد من الناس؟

ـ اجلسي يا كيساريا... يا لوكا بوتسخيشڤيلي، مَن قال لك، اللعنة عليه، «ابنك قُتل» ومن هدم موقدك؟ قل، عابك الله! وأنت يا أفغينيا، من حمل إليك نبأ النعي؟

وارتجف صوت كوتيا. وجمدت القاعة بمن فيها. وتعذّر التقاط الأنفاس. وهبط على قلبي حِمل ثقيل لا يطاق، فوضعت يدي على صدري خوفاً من أن ينتفض قلبي منه، وضغطت كفّي على فمي حتى لا أبكي، وأُعول. وقاسى الآخرون الذي قاسيت، وتسلّط علينا جميعاً توقُّع مصيبة أخرى جديدة.

بدّد الصمت صوت كوتيا الذي بُحَّ فجأة:

ـ ماذا يأتيني من النظر إلى دموعكم؟ ما الذي أجنيه من ڤودكا «سيبيتو» اللعينة؟ وما جدوى الحياة لي يا جيران إذا كنتم تخشون مجيئي؟ لا أريد أن أكون ساعي بريد، لا أريد!.. هل تسمعون؟! ألا تخاف الله يا كيشڤاردي؟.. ابني ألماسخان في الحرب أيضاً ألا تشفقون عليَّ يا ناس؟ يا إلّهي، أشفق أنت على الأقل! أنزل إلينا مَن يوزّع كل هذه الأنباء، فأنت رب قادر... أما أنا فبشر، بشر! لا أتحمّل أكثر، ما دمت أنت الذي خلقت هذه الدنيا، تكفّل بها بنفسك، ولماذا تحمّلني الأوزار كلها! ـ خلع كوتيا حقيبته من على كتفه، ورفعها إلى

الأعلى، نحو السقف ـ هل تسمعني يا إلّهي؟ أعطني علامة.

وقذف بالحقيبة على المنضدة، فانشقت، وانفتحت، وتناثرت منها رسائل الجنود المثلّثة الشكل، والجرائد، والمجلات. وخرجت أيضاً ظروف كتبت عناوينها على الآلة الكاتبة. تفرّس كوتيا في هذه الظروف التي كانت القرية كلها تخاف منها وكأنها الطاعون، ثم سقط على المنضدة، على تلك الكومة من المصائب والسرور الهش، وأجهش بالبكاء.

ظننت أنَّ جميع الحاضرين سيندفعون في الحال إلى الرسائل، إلاّ أنهم، وقد تملّكهم الخوف، نهضوا من أماكنهم واحداً إثر الآخر بسكينة وحذر، مثلما هم في الجنائز، وداروا حول المنضدة التي تراكمت عليها الرسائل، وانكب كوتيا عليها منتحباً وكأنما سُجِّي على المنضدة راحل عزيز، وكوتيا قريبه المفجوع، وخرجوا ببطء إلى الشارع.

*

طلعت الشمس لتوّها في الصباح الباكر، وجريحنا جالس في الشرفة يتطلّع في المرآة الصغيرة المسنودة إلى الحائط ويحلق ذقنه بالموسى. وكانت عمتي تخيط سروالي الممزّق بخيوط بيض لعدم وجود خيوط غيرها.

ـ صباح الخير، يا كيتو! ـ التفتُّ على الصوت فرأيت مينا واقفة عند السياج.

ـ مرحباً، يا مينا!

خاطبت مينا الجندي:

ـ أهذا ضيفكم؟ مرحباً يا سيدي، آمل أن تكون في حال جيدة؟

هزّ الجندي رأسه لمينا بابتسامة مرتبكة، ونظر إليّ مستعطفاً يطلب المساعدة.

قالت مينا لعمتي مبتسمة:

ـ إنه شاب طيب دون شك.

ثم أخرجت من سلتها زجاجة مملوءة بالحليب، وقالت:

ـ لا تتكدّري، يا كيتو، لم أدّخر أكثر من هذا ـ ووضعت الزجاجة على السلم ـ وأسرعت بالخروج حتى أن العمة لم تدركها لتشكرها.

وعقب مينا اندفع رومان، حفيد إديميكا، إلى البيت كالسهم، وقد ألقى حقيبة على كتفه. وصاح:

ـ يا عمة كيتو، مرحباً. لقد أرسل الجد هذه وقال: «ليشرب صاحبكم الجندي»! ـ ووضع على الدرج زجاجة صغيرة جداً، كتلك الزجاجات التي يرضع منها الرضَّع من الأطفال في العادة، واختفى كالشبح.

وخلال ساعة كاملة راقب أناتولي حليق الذقن، فاغر الفم من الدهشة، كيف كان الجيران يدخلون واحداً بعد الآخر، ويبتسمون له، ويقولون شيئاً غير مفهوم ولكن بلطف، ويضعون شيئاً من الحليب وينصرفون وعلى وجوههم الابتسامة اللطيفة ذاتها. وكان آخرهم بيجان الذي اكتفى بأن قال:

ـ يا كيتو، إذا حصلت على خميرة فإنَّ في الإمكان أن تصنعي الكثير من الجبن من هذا الحليب.

*

الجندي أناتولي

لجريحنا الجندي اسم جميل هو أناتولي، أما اسم عائلته فهو قيصري تماماً: رومانوف. ومع ذلك فإنَّ أهل القرية كلها يدعونه «صاحب سوسويا الروسي»، إلاّ أنا والعمة وخاتيا فإننا ندعوه باسمه.

كان أناتولي قد مكث في المستشفى في محطة ماخارادزه زهاء خمسة أشهر، وما كاد يتماثل قليلاً إلى الشفاء حتى أخذ يلح على الأطباء لإخراجه، إلاّ أنهم لم يسمحوا له بالخروج، فقد كان أناتولي مجروحاً جرحاً بليغاً جداً، وكان يسعل سعالاً جافاً. وفي أثناء الليل ترتفع درجة حرارته، إلاّ أنه كان ينفض ميزان الحرارة سراً، ويحاول، عند جولة الطبيب المناوب، أن يتظاهر، بكل وسيلة، أنه معافى. غير أنّ ذلك لم يسعفه كثيراً.

وكانت تصل إلى محطة ماخارادزه قطارات جديدة باستمرار، حتى أنّ المدرسة التي حُوِّلت إلى مستشفى لم تعد تتسع للجرحى، فكان الجرحى يرقدون في الممرات، وعلى الأرض، وكما يقال «ليس هناك موضع لقدم». وكان جميع الذين يقوون على النهوض على أقدامهم، ويستطيعون التحرك بأنفسهم، يُعْطون الإذن بمغادرة المستشفى على عجل. وأخيراً أذنوا لأناتولي أيضاً بمغادرة المستشفى، إلاّ أنهم قالوا له في المفوضية إنه لا يصلح لاستخدام السلاح، ولم يرسلوه بالتالي إلى الجبهة. فذهب بعد خروجه إلى سادجافاخو لينضم هناك إلى قطار عسكري. ولكنه حين دخل إلى قريتنا سقط في الطريق، وجاهد ليزحف إلى ناحية، وهناك وجده بيجان بين أعشاب السرخس.

في صباح يوم من الأيام شعر أناتولي بنشاط فطلب ملابس. جلبت له العمة سروالاً وقميصاً مغسولين مصلحين ومكويين، وخرجت من الحجرة. وارتدى أناتولي الملابس. وأنا، الذي لم أكن أرتاب في شيء، جلبت الماء للاغتسال، وقدّمت له الفوطة والمشط. ولكن عندما ربّت على خدي بلطف، وقبّلني في جبيني، عندئذ فقط أدركت حقيقة الأمر. خرجت إلى الشرفة، ورحت أنادي على عمتي بصوت يائس:

ـ يا عمة، تعالي بسرعة!

خرجت العمة من الحظيرة وقد أفزعتها صيحاتي، وقالت:

ـ ما الذي حدث؟!

ـ سيرحل، يا عمة!

ـ مَن سيرحل؟

ـ أناتولي، سيرحل أناتولي!

سألتني عمتي، ونظرت إلى أعلى بهدوء:

ـ إلى أين سيرحل؟

كان أناتولي واقفاً عند الباب، حسن اللباس، حليق الذقن، مصفَّف الشعر، يبتسم لنا نحن الاثنين ابتسامة مرتبكة. صعدت العمة إلى الشرفة، وتوقفت أمام أناتولي، فابتدرها قائلاً:

ـ يا سيدة، لقد تعافيت تماماً، وأستطيع أن أجر عظامي بنفسي. شكراً لكم جميعاً، ولا سيما لك يا سيدتي. ولن أنسى أبداً رعايتك واهتمامك. لقد سبّبت لك إزعاجاً كثيراً، فاعذريني. إلى اللقاء يا سيدة!

ومدّ أناتولي يده فصافحتها العمة. كنت أُنقِّل بصري بين أناتولي والعمة، وقد وقفا هذه الوقفة طويلاً، ثم إنَّ أناتولي التفت نحوي أخيراً وقال:

ـ هكذا، رافقني إذاً، يا سوسويا.

وهبط السلم، وسار عبر الفناء بخطى بطيئة موزونة. لم أتحرك ولم تتحرك العمة أيضاً، فرأيناه يتقدّم نحو الجانب الواطئ من السياج، ويستند إلى دعامة، ويضع قدمه على خشبة و... يتوقّف. ثم التفت، ونظر إلينا بعينين حزينتين مستغفرتين، وابتسم ابتسامة واهنة، وجلس على مرتفع من الأرض، هبطت أنا والعمة، واتجهنا نحوه.

قالت له عمتي:

ـ أنت لا تزال ضعيفاً جداً يا أناتولي! فأين يمكن أن تحملك قدماك؟! ابق، ولا داعي للخجل، ستأكل ما نأكله، سنتقاسمه. لا أحد الآن يأكل حتى الشبع على أي حال. امكث معنا شهراً، شهرين...

ظل جالساً مطرق الرأس، صامتاً. أمسكت عمتي بيدي، وعدنا إلى البيت. صعدنا السلم ودخلت العمة الحجرة، وبقيت أنا في الشرفة. ظل أناتولي جالساً في مكانه لا يتحرك. لبث هكذا وقتاً طويلاً في الواقع، ثم نهض واجتاز الفناء ببطء نحونا.

وذات يوم عدت مع عمتي من المدرسة فلاحظنا أن الحطب قد قُطع، والسياج الساقط رُكِّز على دعائمه ثانية، ووضعت ركائز جديدة لدوالي العنب.

كان أناتولي منطرحاً في الشرفة، فإن ذلك العمل كله قد كلّفه جهداً كبيراً. وعندما استرد شيئاً من قوته راح يقطع الشوارع صامتاً يعاين كل شيء، إذ كان كل شيء يجذب انتباهه ويدهشه، فيسألني أي عائلة بقيت بلا رجل على الإطلاق، وكان يذهب إلى ذلك البيت، ويساعد ربّته.

وكانت ربات البيوت يسألنني مرتبكات:

ـ كيف نجازي هذا الرجل الآن، يا سوسويا؟ أنعطيه نقوداً؟

ـ لا، من الأفضل ألاّ تفعلن هذا، وإلاّ فسيحطم كل شيء، إنّه مصاب بصدمة ـ كنت أُخيف ربات البيوت بهذا حتى لا يُسئن إلى أناتولي بهذا التعبير عن امتنانهن.

وكنت أنقل إلى أناتولي هذه الأحاديث، فكان يلقي رأسه إلى الوراء ويضحك من كل قلبه. وقد حاول أن لا ينفصل عني، فقد كنت مترجمه، وفي أول الأمر دليله أيضاً. وقد تبين لي أنَّه بطبعه لا يحب الكلام كثيراً، ولكن كان يُمطرني بالأسئلة، فقد كان أول إنسان في القرية قادمٍ «من هناك»، من الحرب. وكانت النسوة والشيوخ يلحون

عليه بالأسئلة عن الجبهة، وعن جيشنا، وعن هتلر، وعن الذي كان يجري في العالم بشكل عام. وكان أناتولي يقص كل ما كان يعرفه إلى أن أُصيب ـ وكان فلاحونا يعرفون ذلك جيداً من الجرائد والمذياع ـ ومع ذلك فقد كانوا يصغون إليه بانتباه شديد، وكأن حديثه آخر أنباء وأحداث اليوم.

عندما خرجت أنا وأناتولي لأولِ مرة للتجوال في القرية سار وراءنا عدد كبير من الأولاد:

ـ هل هو بطل، يا سوسويا؟

ـ بطل بالطبع!

ـ كم فاشياً قتل؟

ـ مليون!

ـ ياه!

ـ أحقّاً أنت تتكلم معه بالروسية أم أنك تخدعنا؟

فأرد عليهم بسخرية:

ـ أخدعكم.

ـ يبدو أنه يجيد الرماية جيداً.

ـ يقتل الطائر وهو يحلّق!

ـ ويصيب طائر الدج؟

ـ في عينه، من على بعد عشرين خطوة.

ـ ويطلق من خلال الطوق؟

ـ بالطبع!

ـ ويمكن أن يصيب رصاصة برصاصته؟

ـ دون شك!

ـ أوه، يا لها من براعة!

عندما رأى أناتولي لأول مرة قماشة الحداد السوداء، بحروفها البرونزية، على شرفة بيت لوكا توقف، وأنعم النظر فيها طويلاً، ثم التفت إليّ، وسألني:

ـ ما يعني هذا، يا سوسويا؟

ـ قُتل ابن لوكا في الجبهة.

ـ ماذا كُتب على القماشة؟

ـ كُتب: «نرثي كوكورا الذي استشهد قبل الأوان».

لم يقل أناتولي شيئاً. وواصلنا جولتنا. كان يتوقف عند كل رثاء مكتوب على قماشة حداد، وينعم نظره في الحروف المعوجة المرسومة بحب وتفجع لا حدود لهما، ولا يسأل شيئاً.

عدنا إلى البيت مساء في ساعة متأخرة.

سألت العمة حين جلسنا لتناول العشاء:

ـ أين كنتما طوال اليوم؟

ـ كنا نتفقّد بيوت القرية.

ـ وهل أعجبتك، يا أناتولي؟

ـ لا.

سألت العمة مندهشة:

ـ أين ذهبت به، يا ولد؟

أجبت:

ـ لم أذهب به إلى أي مكان، سوى أننا قرأنا المراثي على القماش الأسود.

*

سمك أبو شنب

عندما تتساقط الأوراق، وتنهمر على وادي سوبسا زخّات البرد، تنام الأسماك في النهر. إنّها تدخل في شقوق الأحجار الكبيرة، وتتوغل في وحل القاع، وتلتصق إحداها بالأخرى، وتنام حتى فيضانات آذار، حين يمتلئ نهر سوبسا بمياه الذوبان، ويدفع غضوباً مياهه الصفراء الهادرة. وكل صبي في قريتنا يعرف عادات الأسماك، هذه أسماك أبو شنب والرنجة. ولكنني أعرف شيئاً آخر أيضاً، أستطيع أن أُحدِّد تماماً المكان الذي تجتمع فيه هذه الأسماك لسبات الشتاء، ويسمّى هذا المكان نابيتسارا. عند الضفّة تقريباً تنتأ من الماء صخرة مغطاة بالطحلب يقال إنها صخرة حورية ماء. وفي الصيف نشوي، نحن الأولاد، جلودنا في الشمس هنا من الصباح حتى المساء، ونرمي أنفسنا من على الصخرة، ورؤوسنا إلى الأسفل، في فوّارة الماء الداكنة، التي يصنعها سوبسا لدى ارتطامه بصخرة ثابتة. ولكن وقت السباحة قد انقضى الآن، وحان وقت صيد السمك.

ها أنا مستلقٍ في ماء النهر على مقربة من صخرة حورية الماء، تصطك أسناني برداً. أسدُّ بيد شقًّا في الصخرة، وأُدخل الأخرى حتى الكتف في صدع عميق. وعلى الشاطئ تنتظرني خاتيا، وأناتولي، وبيجان. خاتيا جالسة على الصخرة، وأناتولي يوقد ناراً، وبيجان واقف عند حافة الماء، يرشدني ويصيح:

ـ هل يوجد شيء، يا سوسويا؟ فأهزُّ رأسي مؤكِّداً.

ـ أسرع إذاً، حذار أن تفلت منك سمكة! أهي سمكة أبو شنب أو رنجة؟

ـ أبو شنب!

ـ اسحبه من شنبه وحكّ له بطنه وسيستسلم لك حيّاً. احذر أن تصاب ببرد، واخرج من هناك بسرعة، فقد امتقع لونك! كان عليك أن ترتدي ملابس أسمك!

ـ انتظر، يا بيجان!

ـ هل السمك كثير، يا سوسويا؟

ـ كثير، كثير!

ـ أتظن أنه سيكفينا؟ لا تنس أنَّنا سنقسمه على أربعة! ـ فأهزُّ رأسي ثانية ـ ليس كالمرة السابقة. اكتفيت من السميكات الصغيرات، كل واحدة بحجم الخنصر، فلا تفكِّر في أن تفعلها ثانية! لكلٍّ حصة متساوية!

وقعٍ أبو شنب في يدي! هائل، بسُمْك المعصم تقريباً، وله شنب. وأحكّ بطنه بيدي، فينقلب على جنبه، مثل خنوص. وأسحبه من خيشومه بخفة، وأطبق على رأسه أسناني كي أُحرِّر يدي.

بيجان يقفز على الضفة كالطفل، وأبو شنب يتلوّى، ويلطم وجهي بذيله. وأتحمَّل على مضض. وبهذه الطريقة أسحب السمكة الثانية، وأرمي كلتيهما إلى الضفة. وأُدخل يدي في الشق مرة أخرى، وكأنني أسحب سمكة وراء أخرى. فما أكثر هذه الأسماك الرائعة هنا! وتفلح سمكتان أو ثلاث في الفرار. تحفر الرمل بخياشيمها وتغوص إلى قعر النهر، بينما أنبش أنا في الشق الخالي كاللص، وأصعد إلى الضفة.

خاتيا تحمل بيديها الاثنتين كبرى السمكات، وتقرِّبها من أذنها، وتصيخ السمع. وأبو شنب يضرب بذيله، ويفغر فاه، لافظاً أنفاسه.

ويسأل بيجان:

ـ ماذا يقول لكِ، يا خاتيا؟

ـ يقول أطلقيني.

فيقول بيجان:

ـ لو رأيته كيف فغر فمه لما تحمّلت خطيئته.

صمتت خاتيا. وفجأة، وقبل أن ألحق بها، استدارت نحو النهر، وقذفت بالسمكة في المياه الباردة.

صحت بها، وأنا أندفع نحوها:

ـ هل جننت؟

ولكن ما الفائدة؟ لم تعر خاتيا التفاتاً لصرختي اليائسة، وابتسمت راضية.

ـ ما الذي يفرحك؟ جرِّبي أن تخوضي في الماء المتثلِّج ساعة كاملة!

ناداني أناتولي:

ـ تعال إلى النار، يا سوسويا!

تقدَّمت من النار، وأقبلت خاتيا أيضاً، وجلست إلى جانبي.

ـ هل تشعر بالبرد؟ ووضعت يدها الدافئة على ظهري المبتل.

أجبت بحدة:

ـ بردت بالطبع ـ واقتربت من النار.

بعد دقائق نظرت إلى خاتيا. كانت شفتاها ترتجفان، مثل شفتي طفل قد كُدِّر، وهي تمسح بتنورتها صامتة يدها المبتلة التي كانت قبل لحظة موضوعة على كتفي. أحسست بغصّة في حلقي، فتوسلت إليها:

ـ خاتيا، يا عزيزتي، مسّدي كتفي مرة أخرى، فإنَّ لك يداً دافئة لطيفة.

ابتسمت خاتيا مسرورة، ودنت مني في الحال، واستقرت يداها الناعمتان على كتفي. ومررت راحتيها برفق من الأعلى إلى الأسفل، ثم إلى الأعلى، واستشعرت، وقلبي جامد، كيف يتسلّل دفء خاتيا إلى جسدي.

قالت خاتيا، وقد حشرت كفيها تحت إبطيها:

ـ هذا يكفي. الآن ألق شيئاً عليك.

استدرت، وتملّكتني فجأة رغبة في تقبيلها. ملت نحوها، وأمسكت خدَّيْها بكلتا يدي، وقبّلتها من طرف فمها. مسحت خاتيا بيدها موضع القبلة، وتضرّجت بالحمرة.

هتف بيجان فرحاً:

ـ هل تصالحتما؟ الحمد لله! والآن قسّم السمك! ـ وألقى أمامي ما اصطدت من السمك.

ارتديت ثيابي بسرعة، وشرعت أُقسِّم السمك.

قلت لبيجان:

ـ هذه حصتك، يا بيجان! ووضعت أمامه سمكة «أبو شنب» كبيرة مكتنزة.

ـ لا، قسّم السمك أولاً أربعة أقسام، ثم نجري قرعة، ويأخذ كل واحد قرعته.

حاولت أن أُطمئنه قلت:

ـ لسنا بحاجة إلى قرعة. لا تخف، لن أبخسك حقك.

ـ حسناً، ولكن إيّاك أن تقسم كما قسمت في المرة الماضية، فإن بطني أكبر بمرتين من بطنك، يا ابن الكلب.

تدخّلت خاتيا في الحديث:

ـ ماهر، يا له من ذكاء!

توجه إليّ بيجان، هازّاً رأسه بألم:

ـ حتى ولو كنت أكثر ذكاء منك، فإن ذلك لا يعني أنني أنوي خداعك. الأحرى بك أن تسكتي، فإنك لا تستحقين شيئاً. أما كفاك

السمكة الضخمة التي رميتها؟ أليس كذلك يا سوسويا؟

ووزّعت أنا الحصص:

ـ هذه لخاتيا، وهذه لي، وهذه لأناتولي.

ـ ومع ذلك أعطيتها حصتها، ها؟ ـ ونظر بيجان إلى سمكة خاتيا بأسف.

قلت مهدِّداً، وأثّر تهديدي فيه في الحال:

ـ اسكت، يا بيجان، وإلاّ استرجعت منك كل ما أخذت.

ومضيت أقول: هذه لبيجان، وهذه لخاتيا، وهذه لي، وهذه لأناتولي! ثم أعدت الكرة.

قال بيجان نافد الصبر:

ـ مَن تخدع، يا ولد؟

ـ ما هذا، يا بيجان؟

ـ لماذا تعطي سمكة لصاحب سوسويا الروسي؟

فقلت مندهشاً:

ـ ولم لا؟

ـ هكذا، يا سوسويا. بالرغم من أنك تريد إنقاص حصتي إلاّ أنني لست أبله! ـ حسناً لنقل إن هذه الفتاة عائلة منفردة، وأنا أيضاً. ولكن صاحبك الروسي لا يعيش على انفراد؟

ـ لا.

ـ ألا يعيش معك؟

ـ نعم، ولكن ما يعني هذا؟

ـ يعني أن لكما حصة واحدة.

ـ لماذا، يا بيجان؟

ـ اسمع، ألا يعيش معكما؟

ـ أتظنه لا يحتاج إلى طعام إذا كان يعيش معنا؟

فكّر بيجان، وحك رأسه، وفجأة ضحك بطيبة قلب:

ـ تصوّر، لم يخطر هذا ببالي أبداً!

لم يكن أناتولي يفهم ما يقول بيجان، ولكنه حدس سبب تذمُّره، فضحك بمرح.

قال وقد مدَّ إلى بيجان سمكته:

ـ أعطها له، يا سوسويا، أعطها.

تدخّلت خاتيا في نقاشنا قالت:

ـ ألا تخجل من نفسك، يا بيجان؟

قال بيجان مرتبكاً:

ـ آه، أخجل، أخجل! ـ وأعاد إلى أناتولي السمكة، مربّتاً كتفه ـ حسناً، يا صاحب سوسويا الروسي، كنت أمزح. إن هذه السمكة لك، فلتبق معك. ومع ذلك فاعلم أنَّ هناك مثلاً يقول «من يشتهي السمك عليه أن يخوض في الماء». فهزّ أناتولي رأسه باسماً، وكأنه يقول: «أنا أفهم ذلك».

تابعت القسمة حين عاد الوئام بيننا:

ـ هذه لبيجان، وهذه لخاتيا، وهذه لي، وهذه لأناتولي.

ـ مرحباً! ـ حيّانا صوت فجأة، وسقط بيننا ظل هائل.

رفعنا رؤوسنا جميعاً، وقفزنا من المفاجأة. كان رجل يقف على صخرة كبيرة، وكأنما انشقت عنه الأرض. وكان يحمل بندقية ويشد حزام كتف على سترته، غير أنه كان ينتعل نعلين فلاّحيّين. كان غير حليق الذقن، ملوّح البشرة بشدة. كان هو رئيس الفريق داتيكو.

ـ مرحباً! وقفز من على الصخرة، وتقدّم منّا.

قال بيجان مبتسماً:

ـ مرحباً، يا داتيكو الرئيس! ومسح بسرواله يده الملطخة بزفر السمك، ومدّها لداتيكو. غير أنَّ هذا لم يعره أقل التفات. وسألني:

ـ ألا تتلطّف بردّ التحية، يا فتى؟

رددت على التحية متجهِّماً، وأنا أضع السمكة في السلك.

ـ وأنتِ، يا بنت؟ واستدار داتيكو نحو خاتيا.

فقالت وقد قطبت حاجبيها:

ـ لم أعرف من أنت؟

ـ في تلك الليلة عرفتني جيداً ـ وصمت داتيكو ثم سألني ـ ومن هذا الروسي؟

قال بيجان:

ـ ألا تعرفه؟ إنه صاحب سوسويا الروسي.

ـ ذلك الروسي نفسه؟

ـ أجل.

لم يحوّل أناتولي بصره عن داتيكو. وسأل:

ـ هل صيد السمك ممنوع هنا، يا سوسويا؟ والظاهر أنه اعتقد أنَّ داتيكو حارس منطقة محمية.

ـ لا، إنه يستفسر عنك.

ـ ومَن هو؟

ـ هو؟.. لا أحد... مجرد...

ـ ماذا يقول؟

ـ يسأل من تكون.

ـ وبماذا أجبت؟

ـ وماذا يتعين عليّ أن أجيب؟ قل لي من أنت وسأخبره.

فكّر داتيكو، ثم قال بحدَّة:

ـ قل له إنَّ هذا لا يعنيه.

أضاف بيجان عن طيب قلب:

ـ نعم، قل له إنَّه داتيكو الذي يقوم بمهمة سرية للحكومة، وإلاّ فإنَّ هذا الروسي، في الغالب، سيظن أنه هارب.

صرخ داتيكو وكأنما قُطع بمنجل:

ـ بيجان، أيُّها التعيس، اعضض لسانك، وأطبق عليه أسنانك إذا كنت لا تريد أن تتذوق رصاصة حامية!

هزّ بيجان كتفيه مذهولاً.

طلب داتيكو وهو أهدأ حالاً:

ـ أعطوني شيئاً أدخِّنه.

كان جيبي مملوءاً بالتبغ، ولكنني رفضت أن أعطيه شيئاً. سأل أناتولي:

ـ ماذا يريد؟

ـ يطلب تبغاً.

ـ أعطه، فإنَّ لديك تبغاً!

ـ لديّ، ولكن ليس له.

قال أناتولي يقنعني:

ـ أعطه، فبماذا يفيدك التبغ؟

ـ قال داتيكو بصوت أجشّ:

ـ قلت أعطني شيئاً أدخنه، قبل أن أنتزعه منك بالقوة.

وقالت خاتيا أيضاً:

ـ أعطه، يا سوسويا!

أخرجت التبغ من جيبي، وقدَّمته إليه. لفّ داتيكو لفافة، وأخرج من النار عوداً مشتعلاً وأشعل اللفافة، وسحب عدة أنفاس متتابعة بنهم. ثم راح يقول كالمخاطب نفسه:

ـ إذاً، فهو ذلك الروسي نفسه؟ نزل... كيتو استبقته... وهذا التافه يسمِّيه عمّاً، ها؟

قلت له بينما كنت أجمع الأشياء:

ـ ماذا تبتغي، سر في طريقك!

فتابع داتيكو يقول:

ـ نعم، والناس يقولون في القرية إنَّ سوسويا حمل العم بيديه إلى البيت!..

ـ كل هذه أكاذيب،. فاذهب الآن. كفى! ـ قلت ذلك ونظرت إلى أناتولي بطرف عيني. كان يصغي إلى محادثتنا باهتمام.

ـ يقولون جاء به ليلقِّح عمَّته.

هجمت على هذا الوغد، إلاّ أنَّه صدّني بضربة قوية في صدري طرحتني على الرمل. هُرع أناتولي إليّ، وأعانني على النهوض. وسألني مستثاراً:

ـ مَن هذا الرجل، يا سوسويا؟

ـ لص، جندي فارّ من الخدمة، متسوِّل شقي، ألا ترى من هو؟

طلب أناتولي من داتيكو أن ينصرف، غير أنَّ هذا الأخير بدا وكأن لم يسمع كلمة.

ـ هل تصوَّرتم أنني لا أستطيع العيش بدونكم؟ أنتم لا تريدونني، نبذتموني! وأنا أيضاً لا أود أن أعرفكم! اذهب الآن، وبلّغ عني، لن تستطيع سلطات أمنكم أن تحطمني. قل للشرطيَّيْن من الخير لهما أن لا يلاحقاني، وإلاّ حوّلت بيتيهما حطاماً. عاملوني كإنسان، وإلاّ أحرقت جميع بيوتكم، كما يُحرق القش...

قلت قاطعاً عليه تهديداته:

ـ انتظر، سيحل الشتاء، وستخرج من الغابة كالحيوان الجائع.

ـ هذا لا يعنيك! أسرع وقل لكيتو إن لم تصرف هذا الروسي فسأذبحه كما تُذبح الجزور في رأس السنة.

سأل أناتولي:

ـ ماذا يقول، يا سوسويا؟

أجبت:

ـ يتحدّث عنك وعن العمة.

ـ وماذا يريد مني، ما شأنه بي؟

سألني داتيكو:

ـ ماذا يعزف لك؟

ـ يقول لي أخبر هذا الحقير أن ينصرف من هنا بنفسه.

احمرّ وجه داتيكو، وتصاعد الدم إلى عينيه، وتقدَّم من أناتولي وقال له:

ـ أصغِ إليَّ، أنا لا أريد أن أتقاسم كيتو معك، بل ولا الهواء الذي تتنفَّس، فارحل الآن من هنا، وابتعد عن طريقي، واترك تلك المرأة، إنها لي، أتسمع؟ إنها امرأتي، وإذا لم ترحل بالتي هي أحسن ضرَّجت أمواج سوبسا بدمك.

نظر أناتولي إليَّ مستفسراً.

قلت:

ـ يقول إنه يحب كيتو، ويريد أن تتركها وشأنها، ولا تنتزعها منه. وهو يهدِّدك بالقتل.

ضحك أناتولي، وقال:

ـ أولاً، أنا لا أخاف الديك الرومي هذا، ثانياً، أنا لا أنتزع العمة كيتفان منه، وثالثاً، كنت قد رحلت منذ زمن لو أن...

كان داتيكو ينتظر ترجمتي لكلمات أناتولي كالقوس المشدود.

قلت لـ«داتيكو»:

ـ إنه يقول أنا وكيتفان متحابّان، هل تسمع؟ ولن أذهب إلى أي مكان. لستَ أهلاً لكيتفان أيها المتسكّع التعيس، فارحل أنت.

بدا أنَّ داتيكو لم يعد يسمعني. تقدَّم من أناتولي والبندقية بيده. جمدت أنا وبيجان، بينما راح أناتولي يراقب تقدُّم داتيكو بهدوء.

صرخت:

ـ توقَّف، يا داتيكو، كذبتُ عليك.

إلا أنَّ داتيكو صُمَّ ولم يعد يسمع شيئاً. صاح بيجان به:

ـ هل جننت، يا داتيكو؟

اقترب داتيكو من أناتولي فواجهه تماماً، وكان يتنفّس بصعوبة، ومنخراه يرتعشان.

قال أناتولي بهدوء:

ـ أنزل البندقية.

هدَّده داتيكو بصوت مبحوح:

ـ سأقتلك!

أدركت أن ذلك ليس تهديداً فارغاً، فصرخت:

ـ اتركه، يا أناتولي، إنه يقتل حقاً!

وتوسَّل بيجان:

ـ من الأفضل أن تأتي إلى هنا، يا صاحب سوسويا الروسي.

غير أن أناتولي لم يتحرك.

صرخ بيجان، مندفعاً بين داتيكو وأناتولي:

ـ عُد إلى صوابك، يا داتيكو، ولا تخرجني عن صوابي! بالكاد أنقذنا هذا الرجل، أطعمناه الحليب المسروق!

ـ لا تلق نفسك في النار، يا بيجان، لن أرحم، من الخير أن لا تضطرني إلى تحمُّل وزر خطيئتك، يا أخ! ـ وأبعد داتيكو بيجان برأس البندقية، وعاد يواجه أناتولي.

أعاد أناتولي قوله:

ـ أنزل البندقية! وبحركة سريعة مفاجئة أمسك بفوّهة البندقية وأبعدها يساراً.

سقطت البندقية على الحصى. انحنى أناتولي يريد أخذ البندقية، إلاّ أنَّ داتيكو قبض على ذراعه بقوة، وبدفعة أقوى طرحه أرضاً، وانقضَّ عليه، وضربه على وجهه. بصق أناتولي في عينيه. زمجر داتيكو، وضربه ثانية. خرج الدم من أنف أناتولي، وجُنَّ جنون داتيكو تماماً كحيوان شمّ رائحة دم، فاستل سكيناً من وسطه.

صرخ بيجان وهرع نحوهما:

ـ ماذا تفعل، يا زنديق!

تشبَّث بكتفي داتيكو، وجذبه إلى الخلف بعنف، فارتمى هذا على ظهره، وثب بيجان فوقه، وضغط على خناقه بكلتا يديه. ازرقَّ وجه داتيكو، وتفصَّد جبينه عرقاً. وفجأة أنَّ بيجان أنَّةً مبحوحة. جمدت أنا

وأناتولي في مكاننا. فغر بيجان فمه ذاهلاً، واتسعت حدقتا عينيه، ترك داتيكو، ونهض بحركة بطيئة، وضغط بكلتا يديه على بطنه، ووقف بهذه الصورة، ناظراً إلى الأمام بعينين مفعمتين عذاباً، مفتوحتين على وسعهما. نهض داتيكو، ورفع البندقية عن الأرض، وحدّق إلى السكين الملطّخة بالدماء ببلاهة... ولم يعد إلى التهديد، بل نقّل بصره بيننا وبين بيجان شاحب الوجه، مصعوقاً. رفع بيجان يديه عن بطنه، ورفعهما إلى وجهه، وقد صبغهما الدم بلون أحمر قانٍ.

قال بيجان بخفوت، مبتسماً ابتسامة غريبة:

ـ قتلتني!

أجفل داتيكو، وأخذ يتراجع ببطء، ثم استدار فجأة، وجرى نحو الغابة.

امتقع وجه بيجان عذاباً وألماً، وضغط يديه على بطنه مرة أخرى، وانحنى بتوجُّس. تنبَّهتُ وأناتولي مِن الذهول أخيراً، وهرعنا إليه، ورفعناه على أيدينا.

أنّ بيجان وتألّم، وردّد:

ـ أوّاه! إنَّ جوفي كله يحترق!

ناديت خاتيا:

ـ خاتيا، ساعدينا!

كانت خاتيا، طوال هذا الوقت، واقفة إلى جانب صامتة. وقد شعرت بأنَّ شيئاً رهيباً حدث، ولكنها لم تعرف ما هو. تقدَّمت منا، وسألت بصوت مرتعش:

ـ ماذا حصل، يا سوسويا؟

ـ اجلسي، يا خاتيا.

جلست على الأرض طائعة. أضجعنا - أناتولي وأنا - بيجان على الرَّمل، موسِّدين رأسه ركبتي خاتيا.

لمست خاتيا وجه بيجان بيد مرتعشة، ومرّرت باطن كفها على جبينه المبلَّل بالعرق. ضغط بيجان على الجرح، فتدفَّق الدم خطوطاً من بين أصابعه.

عادت خاتيا تسأل ثانية:

ـ ماذا حصل، يا سوسويا؟ ـ غير أنني صمت، ولم أستطع كلاماً.

فقال بيجان، وهو يئنّ:

ـ قتلني ذلك اللعين.

لم أتحمَّل أكثر فأجهشت باكياً.

تمتم بيجان يهدِّئني:

ـ اسكت، يا صغيري الأحمق، كل شيء سيزول الآن، والألم قد خفّ بالفعل.

كان أناتولي راكعاً على ركبتيه أمام بيجان.

قال لي:

ـ ساعدني على حمله فوق ظهري، ولنعد به إلى القرية.

هنا سألني بيجان:

ـ ماذا يقول صاحبك الروسي، يا سوسويا؟

قلت من خلال الدموع:

ـ سنحملك إلى القرية.

ـ هل يريد أن يردَّ المعروف إليَّ؟ قل له، يا سوسويا، لا حاجة... أمهلوني... دعوني ألتقط أنفاسي، ليخفَّ الألم بعض الشيء، آخ-آخ، إذاً، فقد قتلني ذلك اللعين!

قال أناتولي:

ـ حدث هذا بسببي!

ـ ماذا قال، يا سوسويا؟

ـ يقول إنَّ الذنب ذنبه. بسببه حدث كل شيء.

قال بيجان:

ـ وما دخلك أنت، يا صاحب سوسويا الروسي؟ قطّاع الطرق يحملون الأسلحة ليستخدموها، ولولا السكين لما استطاع ذلك الجبان أن يغلبني. لا تتأثر، إذا شفيت فلن يفلت من يدي. سأجده، اتركوه الآن يجوب الغابات مثل ابن آوى جبان... ـ وصمت بيجان، وغطى عينيه بيديه.

صرخت بألم:

ـ يا بيجان! لا تفارقنا، يا بيجان!

ـ رويدك، يا سوسويا، لا تدفني قبل الأوان ـ وابتسم بيجان.

ـ أنا الذي قتلتك، يا بيجان! لو لم أستفزّ ذلك اللعين لما فعل شيئاً!

ـ وأنت أيضاً! ومَن تستطيع أن تقتل؟ أم أنك تظن أنه أراد قتلي حبّاً بالقتل؟ الرعب هو الذي أفقده رشده!.. الآن زال الألم، ولم يبق إلاّ الدوار في الرأس، والخدر في الساقين.

رفع بيجان يديه عن بطنه، وأخذ أناتولي يشد على جرحه بقميصه الذي مزّقه إلى ضمادات.

سأل بيجان خاتيا:

ـ ماذا بك، يا بنت؟ ـ ونظر إليها من تحت إلى فوق. كانت خاتيا تبكي، وقد تساقطت دموعها الصافية الكبيرة على جبين بيجان.

ـ هدِّئها، يا سوسويا، وأنت أيضاً لا تبك. من الأفضل أن تنظر إلى

الشمس، إنَّها الآن تغرب وراء كونتسخولا... وسيُجن الليل، ثم يبزغ الفجر، وتنهض الشمس من وراء سوريبا ويحل الصباح... سيحل الصباح للجميع، ولذلك اللعين أيضاً.. ستطلع الشمس، إلاّ لي فإنها لن تطلع أبداً!.. أترين الشمس، يا خاتيا؟

ـ نعم، يا بيجان، نعم، أراها! ـ وانتحبت خاتيا وألقت رأسها على رأس بيجان.

ـ سمكتي ستبقى لكم. عبثاً تجادلت معك، يا سوسويا! على أيٍّ حال كنّا سنأكلها سوية! لماذا صاحبك الروسي صامت، يا سوسويا؟ ـ كان أناتولي يمسك بيد بيجان ـ أشعر ببرد، يا سوسويا، برد وعطش!

ـ لا يجوز أن تشرب الماء، يا بيجان، فاصطبر قليلاً. سننقلك الآن إلى القرية، وستعالجك أكفيرينا.

ـ سوسويا، أعطني ماء من نهر سوبسا. لا يهم الآن... ـ وراحت أنفاسه تتلاحق، وتنقطع.

نظرت إلى أناتولي مذعوراً.

ـ إنه يريد ماء...

نهض أناتولي، وتوجّه إلى الضفة، وغرف براحته ماء.

رأيته يتقدَّم من بيجان ويقرِّب الماء من شفتيه، فسألته مندهشاً:

ـ ماذا أنت فاعل يا أناتولي؟

ـ قال بيجان بعد أن شرب الماء:

ـ عافاك الله! هذا الروسي أذكى منك، يا سوسويا.

فجأة رفع بيجان رأسه، وسمّر عينيه في وجهي.

ـ سوسويا، أيها الصبي، إلى أين ذهبت؟

ـ أنا هنا، بيجان، أحقاً أنت لا تراني؟

ـ لا أرى، يا سوسويا، لا أرى... ـ وأنزل بيجان رأسه ثانية على ركبتيّ خاتيا.

ـ لا تمت، يا بيجان، لا تمت! ماذا أقول للناس الآن يا عزيزي بيجان؟ ألا تخجل! ماذا أفعل الآن! بيجان، انظر إليّ، انظر!!!

ـ نعم، يا سوسويا، نعم، لا تخف.، هل غربت الشمس، يا صبي؟

ـ لا، لم تغرب بعد، يا بيجان.

ـ إذاً، فأنا لا أراها الآن.

قلت متضرِّعاً إليه ممسِّداً يديه:

ـ بيجان، أنت ترى الشمس، تراها! ها هي، انظر، يا بيجان، انظر إلى الشمس! قل إنك ترى الشمس، يا بيجان!..

وبردت اليدان.. وانطفأت العينان.

لم أعرف كم مرّ من الوقت. وضع أناتولي يده على كتفي، ولست أدري لماذا رحت أنظر إلى المغرب. كان جبل كونتسخولا يتوهَّج بلهب الغيوم الحمراء.

*

الشتاء والموقد

كانت الأيام الأخيرة من شهر كانون الأول باردة جداً. وذات مساء هبّت ريح عاصفة، وسقط أول ثلج. تساقطت قطع بيضاء كبيرة منه ببطء وسكون على سطح الأرض العارية القبيحة. وظل الثلج يتساقط طوال الليل. وفي الصباح خرج الدجاج من خنه إلى الفناء، ولم يكد يقوق حتى غاص في دثار الثلج الناعم الرخو. وتساقط الثلج في النهار أيضاً. كان ذلك شتاء. وفي الأمسيات الطويلة كانت الكلاب تنبح بلا انقطاع في كل أنحاء القرية. وكان الجار، حين يأتي ليقصّر من طول

المساء، يضرب حذاءيه في الشرفة طويلاً لينفض الثلج عنهما قبل أن يدخل الحجرة، ويدفئ أمام الموقد قدميه المتجمِّدتين، مُحمِّياً رجليه حتى الاحمرار، ثم تضع ربة البيت العشاء الضئيل على المائدة.

برزت دروب على وجه الثلج - من مدخل البيت إلى المطبخ، ومن المطبخ إلى النبع، ومن النبع إلى قبو النبيذ، ومن قبو النبيذ إلى الجيران، ومن قرية إلى قرية.

وهذا العام تساقط الثلج أكواماً.

طُمرت الأسيجة، إلاّ أنه كانت تظهر هنا وهناك من تحت الثلج أعواد الأسيجة تغري المرء بسحبها، للتوكؤ عليها، أو استعمالها حطباً، أو لهشّ الكلاب وبنات آوى الجائعة المتسلِّلة من الغابة.

وقلّ عدد التلامذة في المدرسة، فقد لزموا البيوت، يتدفأون إلى جوار المواقد، منتظرين أن يوطّأ الثلج. ومع ذلك فإنَّ جرس المدرسة ظل يدق في الأصابيح أصمَّ ممطوطاً، داعياً إيّانا إلى المدرسة. يدق، ويدعو...

وأناتولي جالس قرب النار منقلب السحنة، يصبُّ اللعنات على الموقد.

- لكم يلتهم من الحطب، ومع ذلك لا جدوى منه؛ إذا أدرت وجهك نحو النار جمد ظهرك.

نصحته العمة:

- اجلس الآن وظهرك إلى النار. - وكانت جالسة قرب النار ترفو جورباً.

- أوّاه، أين مني موقدنا الروسي!

سألت:

- يبدو أنَّ البرد عندكم أشدّ؟

ـ البرد جافّ عندنا، أما بردكم فينفذ إلى العظام، والرطوبة شديدة!
قالت العمة:
ـ غداً، يجب إزاحة الثلج عن السقف قبل أن ينهار.
والثلج ماضٍ في تساقطه، يتساقط دون انقطاع.
وتقول العمة:
ـ سوسويا، اذهب، واجلب حطباً.

وأضع عليّ معطف الجوخ، وأخرج لجلب الحطب. أجلب منه ملء ذراعي، وأضعه في الموقد، وأجلس عند قدميّ العمة، على فروة المعز.

ويهشُّ خشب الزان المبتلّ المعفّر بالثلج، إلاّ أن اللهب السَّاغب يلتهمه بنهم، ويضيء الوهج الأحمر الحجرة. وألاحظ أن أناتولي يرمق العمة، يحدق إليها غير محوّل عنها عينيه المشرقتين المتسعتين. والعمة جالسة، منكسة الرأس، ترفو الجورب. وأصرف بصري، ولا أريد أن أراقب أناتولي. ثم ألاحظ أن العمة ترمقه أيضاً، تخالسني النظر إليه. إنَّ أناتولي فاتح لون الشعر، فاتح لون العينين، نحيف، وسيم، ويبدو أصغر سناً من العمة بقليل. إنه الآن ينظر إلى الجمر في الموقد، الجمر الأحمر المتوقِّد، وأفكاره قد سرحت بعيداً. وأنا أسمع أنفاسه الثقيلة، وأرى عينيه تتجهان إلى العمة مرة أخرى. وأنا أرى كل ذلك منذ أمد بعيد، وأُدهش كيف لا يروعني هذا، ولا يغضبني. وأغلب الظن أن العمة مندهشة أيضاً. وأناتولي يلاحظ أنني أرى كل شيء، ويبتسم مرتبكاً، ويضع يده على كتفي. وأنا لا أُلقي عن كتفي يده، ولا أفهم لماذا تطيب لي هذه اليد الغريبة وهي مستقرة على كتفي. وأغلب الظن أيضاً أن العمة لا تفهم أيضاً، ولكنني أحس أن الأمر يلذ لها. وأنا راضٍ أيضاً، وأبتسم لأناتولي. أحدق إلى الموقد، وأنعم النظر طويلاً في الجمر الياقوتي المائل إلى الزرقة. وليتبادل أناتولي والعمة النظرات بهدوء وراحة بال.

«سوسويا حمل العمَّ بيديه إلى البيت» ـ فجأة يصخب هذا الصوت الكريه في أُذنيّ. وأُلقي للتوّ خشبة بقوة في الموقد الآخذ في الانطفاء.

ثم أسمع صوت أناتولي المهموم:

ـ ... أحرقوا، وسوَّوا بالأرض، ثم ساقوهم إلى ألمانيا... سأرحل... حتماً سأرحل!..

وأكفُّ عن الإصغاء إليه. إنَّه في كل يوم ينوي الرحيل، ولكنه لا يقدر على الرحيل. ويسعل أناتولي طوال الليل، ويعرق، يتصبَّب عرقاً كثيراً... ولكنني لن أقول له: لا ترحل، لأنني أعرف أنه سيرحل حتماً، وأنا أخاف رحيله. أنا أُحب عمتي كثيراً و... لا أُريد أن يرحل... وعمتي تخاف ذلك أيضاً، أشعر أنَّها تخاف.

*

قبر بيجان

ـ سلامٌ عليك، يا بيجان، هذا أنا، سوسويا، قد جئت إليك. لن أسألك عن شيء، فأنا أعرف أنني لو سألتك لقلت «كل شيء على ما يرام»، و«لست بحاجة إلى شيء»، ولا تريد شيئاً. في كل ليلة أحلم بك، وفي كل نهار آتي إليك. ولكنك تعلم يا بيجان أنني طوال الأسبوع الماضي لم أكن أستطيع المجيء، فاعذرني، يا بيجان، فقد كان الثلج عالياً حتى الوسط. وليخبرك أناتولي، فنحن الآن أيضاً قد وصلنا على الزلاّجة بصعوبة. في بادئ الأمر سننفض الثلج من على قبرك، ونصلح محط رأسك، ثم نصعد إلى فوق، ونكشط الثلج عن سطح بيتك. فاطمئن، يا بيجان، إلى أنني، ما دمت أسير على هذه الأرض، لن أترك بيتك يتهدم... هنا، تحت شجر التنوب، ليس الثلج بالكثير جداً، وسنقوم بالأمر بسرعة. إنَّ أغصان التنوب تحنو عليك، يا

عزيزي بيجان. أمس حلّ العام الجديد، يا بيجان، بل إنّ بعض الناس أطلق الرصاص احتفالاً، وغنّوا في بيت سيدونيا تشخايدزه، فقد كان هناك عرس. زوّجوا سيدونيا من فاجا دجيبوتي. وأنت تذكر أن فاجا عاد من الحرب مقطوع الذراع، وقد تزوّجته سيدونيا. كنت وعمتي من المدعوين، إلاّ أننا لم نذهب، فليس من اللياقة أن نذهب وأيدينا فارغة، لم تطاوعنا نفوسنا، ولم نُرِد ذلك. وها هو اليوم الأول من عام ١٩٤٣، يا بيجان. فانظر كيف غطّى الثلج شجيرات العليق البري، وأزهار أيار! ولكن لا بأس، ستأتي خاتيا، وتضع لها مساند، وتقتلع هذا العشب الطفيلي. إنّ الصليب أيضاً قد انخلع قليلاً، ولكن الخلع سأصلحه الآن. لم أرد أن أضع صليباً، إلاّ أنّ الجدة أكفيرينا أصرّت على ذلك، قائلة: «حرام أن يظل المسيحي بلا صليب». لا تقلق، إنه ليس من خشب عادي، بل من سدر جبلي. أتذكر خوختنا(*)؟ حسناً، لقد فككتها، وصنعت صليباً. والآن سنعدّل الصليب، ونذهب لنزيل الثلج عن بيتك. وسآتي غداً أيضاً.

رتّبت أنا وأناتولي القبر، وجلسنا على الثلج نستريح قليلاً. قال أناتولي:

– برد قاس.

أخرجت من جيبي قنينة ڤودكا، ومددتها نحو أناتولي. شرب عدة جرعات، وأعادها إليّ. وشربت أنا أيضاً. ونهضنا، وركبنا الزلاّجة على أقدامنا، ووضعنا الأعواد على أكتافنا، وتوجّهنا إلى بيت بيجان.

حلّ الغسق. ودخلنا القرية تعبيْن جائعيْن. عندما اقتربنا من بيت لوكا بوتسخيشڤيلي توقّف أناتولي عند الخوخة، وتوقفت أنا أيضاً. كانت الدعائم التي يقف عليها البيت قد غطس نصفها في الثلج، ولم يكن

(*) الخَوْخَة: كوّة تؤدي الضوء إلى البيت، وهي الباب الصغير في الباب الكبير.

هناك درب يوصل إلى البيت. كان الدرج وحده نظيفاً من الثلج. وعلى السطح كومة كبيرة من الثلج، ولاح البيت مثل فطر هائل، وقد نشرت على حاجز الشرفة قماشة سوداء. وأمام الباب الموصد تماماً أقعى كلب يهرّ متشكّياً يريد الدخول إلى الحجرة. وحين رآنا جرى هابطاً الدرج، وهو ينبح نباحاً شديداً، ولكنه لم يستطع أن يتقدَّم أكثر، وأجبره الثلج على التوقُّف، فظلَّ ينبح، واقفاً على الدرجة الأخيرة.

قال أناتولي:

ـ هل ندخل؟

ـ لماذا؟

لم يجب أناتولي بحرف، بل دفع الخوخة ودخل إلى الفناء. وتبعته أنا. هرَّ الكلب من الغضب، إلاّ أنه لم يعزم على إيطاء الثلج. وظهر لوكا على مدخل البيت، ونادى:

ـ مَن هناك؟ وقد ظلَّل عينيه بكفِّه، وشاب كليّاً، وتقوّس ظهره.

نظرت إليه وفكّرت كيف أطاحت المصيبة بهذا الشيخ القوي البنيان، وناديت:

ـ هذا نحن، يا عم لوكا، مرحباً!

ـ تفضلوا إلى البيت، يا سوسويا ويا صاحب سوسويا الروسي.

إلاّ أن أناتولي أسند سلّما عالياً إلى الجدار، وأخذ يرتقي درجاته. فقال لوكا مندهشاً:

ـ إلى أين يريد، صاحبك الروسي، يا سوسويا؟

ـ في البداية سنكشط الثلج، ثم ندخل الدار، ـ وصعدت في إثر أناتولي، إلى السطح.

ـ أوه، ولِمَ تتعبون أنفسكم، يا أولاد، منحكم الله الفرحة والتوفيق!

وأحسب نفسي حيّاً! حتى إلى هذا السطح اللعين لا أستطيع الصعود! وإذا سقط الثلج في هذه الليلة، أيضاً، فسينهار على رأسي! الله يعطيك العافية يا سوسويا! ـ ونادى لوكا زوجته، ثم دخل الغرفة ليجيء بها، فانتهز الكلب الفرصة، وانسلّ إلى داخل البيت.

أوشكنا على الانتهاء من كشط الثلج عن السطح. وقد تجمّدت يداي، وعندما اقتربت من المدخنة وضعتهما على نفثات الدخان الدافئة. دفئت يداي قليلاً. وفجأة التقط أنفي رائحة زكية لذيذة، فدعوت أناتولي وقلت له:

ـ تعال إلى هنا بسرعة!

أجابني أناتولي مواصلاً عمله:

ـ لا أحس بالبرد.

ـ أقول لك تعال!

ـ ما الخبر؟ ـ وجاء أناتولي غير راضٍ.

ـ شِمّ! ـ وسحبته إلى المدخنة، وقرّبت وجهه من عمود الدخان.

شم أناتولي الدخان ثم ابتسم وغمز لي. كانت تخرج من المدخنة رائحة زكية للحم عجل مقدَّد وفطيرة ذرة.

وها نحن الآن جالسون إلى طاولة واطئة عند الموقد ـ أنا، وأناتولي، ولوكا، نلتهم بنهم فطائر الذرة مع اللحم المقدّد اللذيذ. وزوجة لوكا، العمة باربارا، جالسة على السرير في ناحية، تنظر إلينا بعينين سوداوين حزينتين. ويصب العم لوكا قدراً من الڤودكا في قدح، ويقدمه إلى أناتولي.

ـ اشرب، يا صاحب سوسويا الروسي، فإن الڤودكا مثيرة للشهيّة.

ـ شكراً، لا أريد! ـ ويقدِّم أناتولي القدح إليَّ.

ـ هذه المرة الأولى التي أسمع فيها روسياً يرفض الڤودكا! اجلبي لنا نبيذاً. يا امرأة! ـ أوعز لوكا وأشار إلى الڤودكا يريد أن أشربها. جاءت العمة باربارا بجرة من نبيذ «أوديسا» وجلست على السرير ثانية. وصبّ لوكا النبيذ. وشرع يقول:

ـ أنا، يا عزيزيّ، مضيف سيئ الآن. أنت تعرف، يا سوسويا، أن ولدي كوكورا كان، أيضاً، مضيف وعمود هذا البيت وكنفه. ولكن ماذا بيدي وقد ذهبوا بنور بصري، وانطفأت ناري، وانهارت عائلتي، وأنا الآن نصف إنسان! ولكنني لا أزال قادراً على شكركما. الله يمدّ بعمريكما ويمنحكما الخير والسعادة، ويسلّمكما لتحملا إلى بيتي الأمل والسلوى، ـ ونظر لوكا إلى صورة كبيرة لابنه كوكورا كانت معلقة على الحائط، وأفرغ قدحه بجرعة واحدة.

كان كوكورا بقميصه المفتوح عند الصدر يبتسم متألّقاً مفعماً بالحياة، فلو أنّ ألف تبليغ بالوفاة جاء لما صدَّقت بمصرعه.

سأل أناتولي، وهو يشير إلى الصورة:

ـ أهذه صورته؟

هززت رأسي.

شرب أناتولي صامتاً، وصبّ له لوكا قدحاً آخر. شربه أيضاً، ووضع القدح على المائدة.

ـ اشرب، اشرب، يا بني، نخب صحتك! ـ وملأ لوكا الأقداح مرة أخرى.

ـ نخب صحتك، يا عم لوكا، وصحتك يا عمة باربارا ـ وابتسم أناتولي، وعبّ القدح الثالث.

ـ نخب صحتكم، ـ قلت أنا وشربت قدحي أيضاً. وملأ أناتولي قدحه مرة أخرى، وقد احمرّ خدّاه ولاحظت أنه ثمل بعض الشيء.

ـ انتظر، يا بنيّ ـ رفع لوكا يده، وأوقف أناتولي، ثم وضع بضع قطرات من النبيذ الأسود، من قدحه، على فطيرة الذرة ـ النخب الأول في عائلتي له، وأشار لوكا إلى الصورة.

ـ ولدي، ولدي! ـ تفجَّعت العمة باربارا وذهبت إلى الحجرة المجاورة.

ـ أتمنّى أن لا يطلع الصبح على مَنْ حطم عائلتي، ذهب الله بنور عينيه، عسى زوجته لا تخلع ثوب الحداد ـ دعا العم لوكا. وترامى من الحجرة المجاورة نشيج العمة باربارا المفجوعة. مسح العم لوكا دموعه، وتابع دعاءه ـ نابته النوائب تترى، ولا فارق البكاء بيته، ولتعش ذكرى ولدي كوكورا إلى الأبد... وأفرغ العم لوكا قدحه، دون أن يقرعه بقدحينا كما تقتضي الأصول، ونظر إلى أناتولي.

حوّل أناتولي بصره جانباً. وشربتُ، وقلت لأناتولي بصوت خافض:

ـ اشرب!

قال:

ـ نخب صحتنا! ـ وأفرغ القدح بجرعة واحدة.

ـ كان هذا النخب لذكرى كوكورا ـ شرحت له، وأنا أصبُّ له قدحاً.

ـ كفى، لن أشرب ـ ودفع أناتولي القدح. فغر لوكا فاه مدهوشاً، ونظر إلى أناتولي. وابتسمت مرتبكاً.

قال لوكا:

ـ يبدو أنه لا يستطيع أن يشرب أكثر...

ـ كيف لا أستطيع!؟ بل عندي رغبة شديدة في الشرب! انظر! ـ وبجرعة واحدة أفرغ أناتولي القدح.

ـ لقد ثمل. ـ قلت للعم لوكا مبتسماً. وتناهى إلينا مرة أخرى نشيج العمة باربارا المكتوم من الحجرة الأخرى.

قال أناتولي:

ـ مَنْ أنا؟ ـ ونهض مترنِّحاً.

قلت له:

ـ اجلس، يا أناتولي.

ـ مَنْ أنا، يا سوسويا؟

ـ أنت أناتولي.

ـ وعندما وجدتني، من كنت أنا؟

ـ عند ذاك أيضاً كنت أناتولي! ـ وابتسمت وتناولت قطعة أخرى من اللحم المقدَّد.

قال أناتولي:

ـ عند ذاك كنت رجلاً يُحتضر. والآن، في مكان ما، يشربون نخب روحي. ولكنني لا أريد أن أكون ميتاً... لأنني حيّ!.. ولا يريد أحد منّا، نحن الأحياء، أن يحسبونا أمواتاً... لا نريد أن نكون أمواتاً!.. ساقوهم جميعاً إلى ألمانيا، وتراجعنا نحن... عند ذاك تراجعنا... ولكنني حيّ، يا عم لوكا ـ وضرب أناتولي صدره بقبضة يده.

ـ أنت حي، يا بني، والله يعطيك العمر المديد.

ـ بينما أنا ميت بالنسبة إلى أبي وأمي. أليس كذلك؟ وأمي الآن تبكي عليّ...

ـ طبعاً!

ـ ولكنني حيّ! فلماذا يبكون عليّ؟ التبليغ عن الوفاة ما هو إلاّ ورقة. ويد الإنسان تمزِّق هذه الورقة. ليست الورقة تقتل الإنسان، بل

الرصاصة. أرني الرصاصة التي قتلت ابنك، أرني هذه الرصاصة، يا عم لوكا!.. قد يكون ابنك الآن مفقوداً في مكان ما، مثلي. أيجوز هذا، أم لا يجوز، قل لي؟.. آه، أنت لا تحب ابنك! ـ وهزّ أناتولي ذراعه بأسى.

قلت:

ـ اجلس، يا أناتولي. ـ فمرّر أناتولي يده في شعري، وطلب:

ـ صبّ لي. ـ وصببت له.

ـ أنت لا تحب ابنك، يا عم لوكا! اشرب وقل إنك لا تحبه! اشرب، اشرب!

شرب لوكا، وشرب أناتولي أيضاً، وجلس أخيراً إلى المائدة.

قال فجأة:

ـ انهض الآن، وارفع قماشة الحداد عن الشرفة!

سألني لوكا:

ـ ماذا ألمّ به؟ هل فقد عقله؟

وكرر أناتولي طلبه:

ـ ارفعها، ارفع تلك الخرقة! تلقيت ورقة ودفنت ابنك!؟ تنازلت للموت عن ابنك بسهولة! ماذا كان مكتوباً في الورقة؟ إنَّ ابنك قد قُتل؟ أستطيع أن أعطيك مائة ورقة تبليغ بأنه حيّ!..

قال لوكا:

ـ هذا الرجل سيفقدني عقلي!

ـ أُعطيك مائة شهادة على أن ابنك حي! ألا تخجل أيها العجوز؟.. تُصدّق بورقة، ولا تصدِّقني!.. ارفع شارة الحداد تلك! ـ ونظر أناتولي إلى لوكا من تحت حاجبيه.

أعاد العم لوكا ملء الأقداح من جديد. وكانت يده ترتجف، فانسكب النبيذ على المائدة.

سأل متضرِّعاً:

ـ سوسويا، ماذا أفعل، أيها الصبي؟ ـ وكان أناتولي ينظر إليه مترقِّباً.

ـ ارفعها، يا عم، إنَّه على حق.

ـ سيلحق بي العار! ـ قال لوكا متوجِّعاً.

ـ سيلحق بك العار إذا عاد كوكورا وأنت تلقاه في ثياب حداد! ـ وأحسست فجأة أنني سكرت تماماً.

وسكر لوكا أيضاً. وكان كوكورا يبتسم في الصورة على الحائط، وكانت ابتسامته أقوى من كل تبليغ على الأرض. أردت أن أقترب منه. نهضت، واتجهت إلى الصورة. وفي طريقي ارتطمت بالمنضدة، ثم بالسرير، وفقدت توازني، وسقطت عليه. ودارت الحجرة بي، ودارت، وصارت الصورة اثنتين في بادئ الأمر، ثم ثلاثاً، وبعد ذلك مئات الصور، سقطت عليّ، يلاحق بعضها بعضاً، من كل الجهات، وأحدقت بي مئات من صور كوكورا الباسمة. قلت:

ـ مرحباً، يا كوكورا!

جفل العم لوكا، ثم أمسك رأسه بين يديه، وأسند كوعيه على ركبتيه، وجلس هذه الجلسة مدة طويلة دون حراك. وصمت أنا وأناتولي أيضاً، ولم نتحرّك. تأرجحت الحجرة برفق، واستلقت المائدة إلى جنب، ومال الموقد حتى خشيت أن يتساقط الجمر، إلاّ أنه كان يهس بنعومة، ويضيء الجدران بلون أحمر.

بعد ذلك استقرَّ كل شيء في مكانه بالتدرُّج، واتخذ معالمه السابقة. وانطبق جفناي. وعندما فتحت عيني ثانية، وطوّفت ببصري في الحجرة، أدركت أن سورة السكر قد زالت.

أتذكّر كيف نهض العم لوكا وسار إلى الباب ببطء، وكيف خرجت العمة باربارا من الحجرة الأخرى وجلست بالقرب مني، ووضعت على ركبتي قطعتين من الحلوى. ابتسمت، وقبّلتها من خدها المتغضّن. وبعد قليل دخل العم لوكا الحجرة، وبيده القماشة السوداء مطوية. تقدَّم من الموقد، وركع على ركبتيه، وبعد قليل من التمهُّل ألقى القماشة في النار. وأظلمت الحجرة في الحال. ومضت ثانية، وأخرى، وثالثة... وفجأة نشبت ألسنة اللهب الحمراء في القماشة السوداء، والتهبت بسطوع واندفاع جامحيْن. وقد رأيت في ضوء النار كيف ابتسم أناتولي، وكيف تحدّرت الدموع على خدي العمة باربارا الذابلين، وكيف كانت يدا العجوز لوكا السمراوان المعروقتان ترتجفان.

عدنا إلى البيت في ساعة متأخرة من ذاك المساء. كانت العمة جالسة عند الموقد تطالع في كتاب. عدنا مبلَّليْن من أقدامنا حتى رأسينا، متوهّجين من الخمرة فلم نشعر بالبرد. وضعت العمة الكتاب، وألقت الحطب في الموقد. ثم قرّبت من النار مقعدين واطئين. ودعتنا:

ـ تعالا إلى هنا! ـ وأمسكت الكتاب ثانية.

تقدَّمت من العمة مترنِّحاً، وجلست على الأرض، ووضعت رأسي على ركبتيها.

ـ أين شربت، يا صبي؟

قلت بارتياح:

ـ أنا سكران، يا عمتي!

ـ أين كنتما؟

ـ وأناتولي سكران أيضاً، يا عمتي!

بلغ أناتولي المقعد، وأنزل جسمه عليه بحذر. ثم أمسك يد العمة، ومسّد عليها. سحبت العمة يدها، ونظرت إليّ بعبوس.

قلت بابتسامة مستغفرة:

ـ إنه سكران.

أمسك أناتولي بيد العمة ثانية، وضغطها على خده. استرخيت من الحرارة، وأردت أن أغني:

البنت هذي، والبنت تلك

وقعتـــا في حـــبي

ربّاه، ربّاه، ربي،

يا بنتـــيّ قلـــبي

قالت العمة:

ـ اضطجع، ونم، يا صبي. عليك أن تذهب إلى المدرسة غداً.

حذائي مشقوق

ودرس لا يدخل في الرأس

أرسلوني إلى الجبل لا بأس

فما نفع الدرس!

تلعثمت في الكلام. وأغمضت عيني.

وتمتم أناتولي: ماريا!..

فتحت عيني في الحال. مدّ أناتولي يده ومسّد رأس العمة. تنحّت العمة بحذر، ناظرة إليه بدهشة ووجل.

ـ اعذريني، يا ماريا، ولكنني وجدتك، يا ماريا...

ومسّد رأس العمة ثانية، فأبعدت يده.

ـ اسمي كيتو ـ تمتمت العمة بصوت لا رنّة فيه.

ـ أنت ماريا، لا تخادعيني!.. قولي، ألست ماريا؟ إن لم تكوني،

فلماذا أنت لطيفة على هذا النحو، جميلة وطيبة؟..

أعادت العمة قولها:

ـ أنا كيتفان.

تفرّس أناتولي في وجه العمة. حدق إليها طويلاً، ثم غطّى وجهه بيديه، وظلّ على هذه الحال مدة طويلة. وأخيراً رفعته أنا والعمة وقدناه إلى السرير، وأضجعناه عليه. وسرعان ما غفا.

ها أنا مستلقٍ على سريري وعيناي مفتوحتان. ذهب السكر، وذهب النوم عني أيضاً.

ـ عمة! ـ فتصمت العمة.

ـ لا أريد أن أنام، يا عمتي...

وتقول بخفوت:

ـ نم، يا سوسويا.

ـ مَن هي ماريا، يا عمتي؟

ـ لا أعرف، يا عزيزي ـ وبعد فترة صمت أضافت: أغلب الظن أنها زوجته.

ـ هل فُقِدت؟

ـ يبدو الأمر كذلك...

ـ هل سيجدها أناتولي؟

ـ ومن أين لي أن أعرف، يا صبي!

ـ قال إنه سيجدها.

ـ سيجدها، في الغالب، يا سوسويا!

ـ يا عمتي، هل سيرحل أناتولي؟

سادت فترة صمت أخرى.

ـ سيرحل، يا سوسويا، سيرحل حتماً ـ قالت العمة أخيراً.

أحسست أن عليّ أن لا أسأل أكثر من ذلك. انقلبت على جانبي، وأخذت أنظر إلى الموقد، وكان يشبه سماء غائمة ذات نجوم. كانت الجمرات تتوهّج ساطعة كالنجوم، وتنطفئ في غيوم الدفء الرمادية. وزاد شبه الموقد بالسماء المدلهمّة، وغامت عيناي نعساً أكثر فأكثر، ورحت أنظر بأسف إلى هذه السماء، حيث انطفأت الجمرات النجمية الحمراء الجميلة.

طاحونة بيغلار

إذا لم تقضوا ليلة في طاحونة بيغلار، ولم تثرثروا معه حتى مطلع الفجر، تتناقشون حول جميع حوادث القرية، ولم تتذوّقوا مرة خبزه المحروق الفطير الذي لا طعم له، ولم تنعسوا قبيل الصبح منهوكين من كثرة الأحاديث، وشاعرين فيما بعد بالظمإ القاتل، ولم تندفعوا إلى سد الطاحونة، ولم تعبّوا، كالحصان، ماء نهر سوبسا البارد، فلا تقولوا إنكم رأيتم قريتنا.

كم من الأمثال والحكايا تدور حول بيغلار وطاحونته، وكم جعالة تقاضاها في حياته كلها؟ لا أحد من قريتنا يستطيع أن يتحدث معكم ربع ساعة دون أن يذكر بيغلار وطاحونته.

حين تلتقي بأحد المارة في الطريق، وتلقي عليه التحية، وتتوقف، يقدم لك تبغاً ـ أو أنت تقدِّم له التبغ على الأقل ـ وإذا أخذت ولو قليلاً فوق الحاجة، فإنه ينتهرك قائلاً:

ـ ما هذا، يا رجل، أتحسب هذه جعالة بيغلار؟

وحين لا تجيد قص آخر نبإ على جارك يصرخ بك هذا قائلاً:

ـ تكلّم كما يتكلم الناس، يا شقي، لماذا تطحن مثل طاحونة بيغلار!..

وحين تُضجر سامعك بحديث مملّ طويل تسمع منه فجأة:

ـ أخذت تجرش مثل رحى طاحونة بيغلار!

وحتى السعال لا يسلم من بيغلار:

ـ لماذا تنبح مثل كلب بيغلار؟ ـ وبيغلار يطعم كلبه النخالة، والكلب المسكين يسعل ليلاً نهاراً.

أمّا بيغلار نفسه، فبدهيّ أنه لا يقول كلمة دون أن يذكر الطاحونة. فهي معيلته، وبيته، ومأواه، وزوجته، وذريته، وأقاربه ـ كل شيء له محصور في هذه الطاحونة.

والطاحونة ملك للكولخوز، وقد انتُخب بيغلار مديراً للطاحونة في اجتماع للكولخوز في أزمان قديمة. ومن المُستبعد أن يوجد رئيس جريء للكولخوز يجازف بإعفاء بيغلار من هذا المنصب؛ فمن سيذهب إلى الطاحونة حينئذ؟ لا أحد! وماذا ستصبح طاحونة بيغلار؟ لا شيء. ومَن يجرؤ على احتلال مكان بيغلار؟ لا أحد! وبيغلار يعرف هذا، والقرية كلها تعرفه، ويعرفه كل رئيس للكولخوز. ولتكن الطاحونة للكولخوز، فما يضير بيغلار، إنها، على أي حال، لن تفارقه مدى الحياة، هو لها، وهي له. وبيغلار يقيم في الطاحونة، وينام على الضوضاء المتواصل للماء المتدفّق على مرزابها، يتخذ الصندوق الذي يجمع فيه الجعائل مضجعاً له، والكيس المملوء بخيوط الذرة الشذيّة وسادة رأسه. وعلى الحائط عند الصندوق علقت البندقية التي يسمّيها المسدس. وإلى جانب البندقية عُلِّقت صورة المكتشف «ميتشورين» المنتزعة من مجلة. وإذا سألت بيغلار مَن هذا، يهتف بدهشة لا حدود لها:

ـ يا أحمق، ألا تعرف مَن هو هذا الرجل؟ هو ميتشورين، الرجل

الذي زرع العنب واليوسف أفندي في سيبيريا.

في سنوات الحرب ازداد معرض بيغلار للصور. والآن تزدهي إلى جانب صورة ميتشورين صور العسكريين بتسلسل دقيق حسب المراتب والخدمات. يأتي تشيبايف أولاً، ووراءه بوديني، وبعد ذلك تيموشينكو، وبيتري باغراتيوني، وسوڤوروف، وأخيراً كيكڤيدزه.

كما أنَّ بيغلار يحب المطالعة أيضاً. وأنا وجميع الذين يقرؤون الكتب في القرية نمدُّه بالكتب. غير أن لبيغلار مكتبته الخاصة، ويتجاور بسلام في رف واحد كتاب «بطل في جلد نمر»، والإنجيل، وطاسة للوبياء، وجرة ڤودكا، و«المرأة والاشتراكية» لبيبل.

وبيغلار مسرور دائماً بوجودي في ممتلكاته. أمّا أنا، فأعرف، مقدَّماً، وأنا متوجِّه إلى طاحونته، أنني لن أخرج من هناك حتى يطلع الصباح، وإن كنت أول الوافدين، فبيغلار يرتب الأمر لأكون آخر العائدين من لدنه. وأقول الحق إنني أيضاً أحب البقاء مع بيغلار، ولا أجد في نفسي ميلاً يدفعني إلى تركه. ونحن نتحدث عن كل شيء، نحلم، ونحطم الحصون الفاشية المقيتة، ونمحوها عن وجه الأرض، ونكسب الحرب، ونجتاح المدن اقتحاماً، ونتراجع، ونهجم من جديد، ونخبز الخبز في الرماد، ونجرش الذرة، ونأخذ الجعائل، وندخن أعطر تبغ في العالم، ونتبادل المديح، وبشكل عام نهنأ في هذه الطاحونة المدفأة تدفئة حارة، والتي تشبه قضاعة ألقاها نهر سوبسا على الشاطئ الرملي.

يُهيل بيغلار القمح في المستودع ويسألني:

ـ قل بصراحة، يا سوسويا، لماذا تعتقد أن الحرب ستستمر بضع سنوات أخرى؟

وأُجيب:

ـ لأن هتلر، يا بيغلار، كما تعرف، استولى على مناطق شاسعة يجب

أن تُستعاد منه، كما أفترض. أليس كذلك؟ ـ وأُلقي حطباً في النار.

يوافق بيغلار ويجلس إلى جانبي.

ـ وهذا الأمر، يا بيغلار، يحتاج إلى سنة أو سنتين.

ـ أهذا يعني، كما تقول، أننا سنكسب الحرب؟

ـ بالطبع!

ـ هل أنت متأكد من ذلك؟

ـ دون شك!

ـ حسناً، يا عزيزي. والآن قل لي: إذا أنا وأنت تحوّلنا إلى الهجوم، وهتلر لن يتراجع، فماذا تفعل عند ذاك؟

ـ سيتراجع!

ـ لن يتراجع!

ـ سنجبره على التراجع!

ـ حسناً إذا افترضنا أنه تراجع، ففي الصيف سيستجمع قواه ويهاجم ثانية. فماذا تفعل؟ ـ يضع بيغلار يديه على خاصرتيه وينظر إليّ بابتسامة لاذعة.

ـ لن يستطيع أن يستأنف الهجوم.

ـ ولكن ماذا لو استأنفه؟

ـ لن يستأنف.

ـ حسناً، لنفرض أنه استأنف الهجوم!

قلت متضايقاً:

ـ اسمع، هل أنت إلى جانبي أم لا؟ ربما أنت إلى جانب هتلر!

ـ أنا إلى جانبك، يا ابن الكلب، ولكن هل من المعقول أن هتلر أحمق مثلي؟

ـ بل أكثر حماقة!

ـ أحسنْ سلوكك، يا سوسويا، وإلاّ نطحت رأسك بهذا الصندوق!

ـ تفضّل، انظر ـ وأرسم الحدود على الرماد بعصاً ـ أنت ألمانيا وأنا الاتحاد السوفييتي. أنت تقف هناك، وأنا أقف هنا. والفصل الآن شتاء، والشتاء هو فصلي، فقد تعوّدت عليه، ولا أتجمّد فيه، فإنّ ثيابي أكثر دفئاً من ثيابك، وأنا شبعان، وفي وطني.

ـ جيّد، جيّد...

ـ وأنت متجمّد من شدة البرد، وليست عليك ثياب تدفّئك، ولا حذاء في قدميك للشتاء القارس، وأنت في أرض غريبة، وصاحب الأرض يستضيفك صفعات، أو ضربات على الموخّرة.

ـ مَن يضرب على المؤخرة؟

ـ الأنصار.

ويبدو الفرح على وجه بيغلار.

ـ وماذا تفعل الآن؟

يقول بيغلار باسطاً ذراعيه:

ـ يتحتّم عليّ أن أرحل، ولا بديل من رحيلي!

ووراء الباب راح كلب بيغلار ينبح ويسعل بشدّة.

ـ أتمنّى أن تختنق! ـ واتجه بيغلار نحو الباب. وصلت الجدة أكفيرينا، وماترونا، وفيدوسي. وبعد أن حيّاهنّ، وضعن أكياس الحبوب قرب مستودع الطحن، واقتربن من النار. شغّل بيغلار الدولاب الثاني، وأهال حبوب أكفيرينا في القمع، وجلس إلى جانبي، وقال:

ـ راقبن حبوبكن، يا نساء، فأنا الآن مشغول. ـ وهزّت النسوة رؤوسهن موافقات. أخذ بيغلار العصا من يدي، وخطّ خطاً جديداً، وقال:

ـ حسناً، يا سوسويا، أنا هتلر، تراجعت حتى وصلت إلى الحدود، فما الذي ستفعله بعد ذلك؟

تدخّلت الجدة أكفيرينا:

ـ قُطعت ألسنتكم، يا كسالى!

قال بيغلار غاضباً:

ـ انتظري، يا امرأة!

ـ ماذا أفعل؟ ـ قلت ذلك ثم قرّرت أخيراً ـ سأستمر في مطاردتك!

ـ وبعد ذلك؟

ـ بعد ذلك أعتقلك أنت وجميع جنرالاتك، وحكومتك كلها، وأجبركم على أن تدفعوا حساباً عن كل العذابات التي جلبتموها إلى بلادي. وسيضيع عليك كل شيء!

ـ وهل تظن أنَّ إنكلترا وأميركا تسمحان لك بذلك؟

ـ إذا لم تسمحا وجدتا الحديدة حامية!

ـ تجاوزت الحدَّ كثيراً! ـ علَّق بيغلار محذِّراً.

ـ هذا شأني! ـ ونهضت، ورفعت سروالي إلى فوق. انفضَّ المجلس الحربي.

سألتني ماترونا بتهكُّم:

ـ متى ستنتهي الحرب، يا ولد؟

ـ بعد عامين.

وسألت فيدوسي:

ـ لعلّها تصبر بعض الشيء، ها؟

قال بيغلار متنهِّداً:

ـ هذا غير ممكن، يا نساء، كم مرة حاولنا، وقلبنا كل هذا الرماد في الموقد، إلاّ أنّنا لم ندبِّر الأمر قبل هذا الوقت!

قالت الجدة أكفيرينا منفعلة:

ـ اللعنة عليكما! حسناً، هذا الصبي لا يزال فرخاً صغيراً، ولكن، أنت رجل راشد، تتفوّه بهذه الأباطيل كالأبله وتقول: أنا هتلر؟

ـ سمِّه ما شئت حتى لو قلت تافه. ولكن ألا تعرفين كيف وصف لي الجبهة كلها؟! لو لهتلر دماغ، لكان يجب عليه أن يشد أُنشوطة حبل حالاً، ويضعها في رقبته! ـ قال بيغلار وهو ينفض الطحين من الكيس.

وأخيراً جاء دور قمحي أيضاً. حللت عقدة الكيس، وقرّبته من المستودع، وانتظرت حتى طحنت الرحى آخر حفنة من القمح الموضوع قبلاً. ثم رفعت الكيس، وأخذت أهيل القمح في القمع. وقد امتلأ إلى نصفه. كانت الرحى تدور ببطء، والظاهر أن الماء كان قليلاً. اعتقدت أن ذرتي، في الغالب، لن تطحن حتى الصبح، فاستلقيت على لوحة قرب الموقد،توسّدت كيس ذرة يعود لأحد الناس، وقلت:

ـ سأنام، يا بيغلار. وأنت يا جدة أكفيرينا راقبيه حتى لا يأخذ جعالة كبيرة. إنَّ من المستحيل الوثوق به...

قال بيغلار غاضباً:

ـ ما دام لك هذا اللسان السليط فإنني سأضاعف جعالتي منك! ـ وتناول المكيال.

أسرعت في تهدئته:

ـ كنت أمزح، يا بيغلار، فأنا أعرف أنك لا تأخذ جعالة كلياً.

ـ ومَن قال إنني لا آخذ؟

ـ عجيب! أنا وأنت ربحنا الحرب سوية، وأنت تريد الآن أن تأخذ مني أجرة على الطحن!

ـ السياسة بالسياسة، يا عزيزي سوسويا، والذرة بالذرة. هذه قضية تخص الدولة، حصة للدولة، ولا يجوز الإضرار بها. فإذا لم آخذ منك، فلن آخذ منهنَّ أيضاً. ـ ونظر بيغلار إلى النسوة وقال: ـ هل أنا على حق؟

لم أعترض على بيغلار بعد ذلك. أخذت النسوة يتحدَّثن عن شيء ما، وتنهّدن، وتعجّبن، وابتسمن مغطيات وجوههن بأطراف المناديل، وتهامسن، وجفّفن جواربهنَّ المبلَّلة وهنَّ يمددن أرجلهنَّ نحو النار.

وارتفع البخار من أذيال تنانيرهنَّ الرطبة. اهتزت الطاحونة، وطنّت الرحى، ودار الماء على المجاديف، ورنَّ جرسان رنتين مختلفتين، وتقلّبت حبوب الذرة على بلعوم الرحى الذي لا يشبع، وأفغمت منخريّ بفوح الرائحة الزكية للدخان والطحين الطازج، والحجارة الحارة.

غنّت الطاحونة، وهمست، وصفرت بآلاف الأصوات المختلفة التي امتزجت بصوت واحد. وفوق المستودع صُفّت أكياس الذرة تنتظر دورها. ومع غناء الطاحونة، الذي لا ينقطع، تُحكى حكايات لا حصر لها، حكايات قريتي، وجيراني، ودار الحديث عن المحصول، وعن الحرب، وعن كل شيء.

هذا كيس ممتلئ ذرة، لا تقوى امرأة على حمله، ولا طفل. لا بد أنَّ رجلاً قوياً جاء به. ولكن مَن يمكن أن يكون؟ ماكاريا، في أغلب الظن، فمن غيره يستطيع أن يجرجر هذا الكيس؟والذرة عنده كثيرة، ولهذا فهو لا يجلس هنا منزعجاً من الانتظار، إذ لا حاجة إلى الاستعجال. سيأتي غداً ويأخذه. وهذا كيس صغير أزرق منقّط بنقاط بيض لا يسع لأكثر من ثلاث حقق، أي زهاء اثني عشر كيلوغراماً. وقد جاء به طفل في أغلب الظن، فإن رجلاً راشداً لا يقوم بهذا العمل اليسير. ويبدو الكيس إلى جانب الأكياس الكبيرة كدمية في ثوب أزرق منقّط. لمن هذا الكيس؟ ومن جلبه؟ ربما جلبه داتونا الصغير، ابن لاديكو؟ في الربيع رأيته يرتدي قميصاً أزرق من هذا القماش. أو لعل الكيس قد خيط من هذا القميص ذاته؟ لا أحد بانتظارك، أيها الكيس الأزرق، لأن هذا الطحين لا يكفي إلاّ لخبزتين أو ثلاث. ولا فرق إن أكلت اليوم أو صباح الغد، بل صباح الغد أفضل، لأن الغد أقرب إلى ما بعد غد. وصاحبك مطمئن إلى الغد، لأن له في الطاحونة عند المستودع كيساً أزرق منقّطاً، وفيه حقتان أو ثلاث حقاق من الذرة.

أكياس مملوءة حتى الحافة، وأخرى إلى النصف، وثالثة إلى الثلث. أكياس كبيرة، وصغيرة، سليمة، ومرقّعة، من القماش القطني المطبوع، من الخَيْش - من كل الأنواع. ولكل كيس قصته. وأنا أستطيع أن أُحدِّد بالتأكيد تقريباً من هو صاحب كل كيس، ومن سيأتي ليأخذه في صباح الغد، ومتى يستطيع أن يحمل إلى بيغلار مقداراً آخر من الحبوب للطحن.

يرتخي جفناي، ويغلبني النعاس. يا لها من طاحونة عجيبة! إنها تهدر، وتصفر، وتدمدم بآلاف الأصوات، وكل هذه الأصوات هي صوتها الموحَّد، وهي تغني، تغني أغنية غير مفهومة. والطواحين وحدها تستطيع أن ترسل هذا الغناء، فإنَّ القطارات تغني أيضاً، ولكن غناءها مختلف تماماً، ضجيجها أكثر من النغم، ثم إنَّ في القطارات لا يوجد سكون. أمّا هنا، فعلى الرغم من جعجعة الرحى دون انقطاع، وهدير الماء في المزراب، فإنَّ في الطاحونة سكوناً. وكل حركة، وخشخشة، وزفرة، وكل صوت غير عائد للطاحونة يُسمع بوضوح في هذا السكون المهيب. إنَّ وقع الأقدام، نباح الكلاب، صياح وعواء ابن آوى - كل ذلك يضايقك، ولا يدعك تنام إذا عزمت على قضاء ليلتك في الطاحونة، ولكن إذا قلب بيغلار الدنيا على رأسها أمامك، فإنك لا تسمع شيئاً، لأن بيغلار لحم هذه الطاحونة وعظمها، ولأن بيغلار يغنّي ويضج معها، ولا تستطيع الطاحونة أن تغني دون بيغلار.

أنظر إلى بيغلار بعد أن أغمضت عينيَّ نصف إغماضة. إنه يتناول المكيال ويدخله في طحيني، وبعد أن يملأه، يقف إلى جانب الكيس، ويختلس النظر إلى النساء. إنهنَّ منشغلات بحديثهن، غير ناظرات إلى بيغلار. عندئذ ينظر إليّ، ويطيل النظر، وبعد أن يحسبني نائماً، يعيد الطحين من المكيال إلى كيسي.

أغرق شيئاً فشيئاً في نوم هانئ ناعم، وأحلم بحلم لطيف.

وفجأة ينفذ إلى نومي نباح كلب بيغلار ممزوجاً بهرير وسعال. وأفتح عيني، وأحس أنَّ شخصاً يدفع الباب بعنف.

ينهض بيغلار، ويسير نحو الباب، ويرفع المزلاج، وهو يدمدم بشيء مع نفسه. ويدخل رجل ضخم تناثر عليه الثلج. ويتقهقر بيغلار، ويكاد يسقط في الموقد، وتقفز النسوة من أماكنهن. وأحس ببرد في جبيني، وبغصة في حلقي. وأرى داتيكو واقفاً يبسم وظهره إلى الباب المفتوح على عتمة الليل. ووجدت نفسي أنهض دون أن أعي.

ـ تحية! لماذا ذُعرتم؟ ـ ويضع داتيكو كيساً على الأرض قرب الموقد. ولا يرد أحد على تحيته.

لم أكن قد التقيت بـ«داتيكو» منذ ذلك اليوم الرهيب، ولم يكن قد ظهر في أي مكان. والآن، حين رأيته أصابني خدر، وجفّ فمي وحنجرتي، والتصق لساني في حلقي، وشعرت برجفة في كياني كله، وبارتخاء في ركبتيّ، وكي لا أسقط قعدت على الأرض.

اقترب داتيكو من النار، وأسند البندقية إلى الحائط، ونفض الثلج عن ثيابه، وجلس إلى جانبي. تنحّيت عنه، فقال:

ـ لا تخف، أيها التعيس، لست مصاباً بالطاعون.

ظلّ بيغلار والنساء واقفين مثبتين فيه عيونهم.

سأل داتيكو بحدّة:

ـ لماذا تتفرّسون فيَّ، ألم تروا إنساناً بعد؟ ـ ومد فوق النار يديه الضخمتين.

ـ الإنسان رأيناه... ـ قال بيغلار بصوت خافت وقعد على الصندوق، وانحشرت النسوة في ركن.

قال داتيكو، محاولاً أن يخرق الصمت الثقيل:

ـ اليوم سقط ثلج كثير، وسيكون المحصول وفيراً. ـ وأخذ يلف لفافة.

قالت الجدّة أكفيرينا:

ـ في أي حال سيحمل كل سويق(*) من ذرتك سبع أذينات(**).

ـ ولماذا تسخرين مني؟

أجابت أكفيرينا متنهِّدة:

ـ لماذا أسخر منك، وها أنت قد حملت إلى هنا عشرة أرطال من الذرة، بينما أنا يجب أن أجرجر بهذه الحفنة حتى المحصول القادم.

ـ الحمد لله، يا أكفيرينا، على أنني لم آخذ حقي منك، ولم أَسلبك شيئاً في الطريق.

ـ أنت قاتل إنسان، وقد لطّخت ضميرك بدم إنسان، والآن تستطيع أن تقطع الطريق والسكّين بيدك.

قال داتيكو:

ـ لو كنتِ رجلاً، يا أكفيرينا، لجعلتك تبلعين لسانك مع هذه الكلمات، ـ وأخذ نفساً عميقاً حتى أنَّ اللفافة اشتعلت إلى النصف.

ـ لو كنتُ رجلاً لعجنتك عجناً حتى يخرج كل دمك من جسمك، أيها الحيوان الوغد ـ وبصقت أكفيرينا في النار، واستدارت.

امتقع وجه داتيكو، ولكنه لم يرد بكلمة، سوى أنه التفت إلى بيغلار وقال:

ـ أنا مستعجل جداً، يا بيغلار، أفرغ ذرتي حالما يفرغ ما في القمع. وأشار إلى القمح الذي كان كيسي جاهزاً للطحن بالقرب منه. قال بيغلار:

ـ الدور دور ماكاريا بعد هذا.

ـ ماكاريا يستطيع أن ينتظر.

(*) تصغير ساق وهو المحور الأصلي في النباتات.

(**) الأُذينة هي ذلك الجزء الذي تتصل عنده الورقة بالساق.

ـ لكنّه قال إنه سيأتي ليأخذ الطحين.

ـ فلينتظر، أنا مستعجل.

صمت بيغلار. فنهض داتيكو ووضع كيسه بالقرب من القمع، وقال بابتسامة مخاطباً الطحّان:

ـ اشتقت إلى خبزك، يا بيغلار.

سأله بيغلار:

ـ وربّما تريد حمّاماً للقدمين!

قفز داتيكو، وكأنما ضُرب على وجهه بحزام، وقال:

ـ أمسك لسانك، يا بيغلار، وإلاّ عاجلتك بضربة!

ثم إنَّه نهض محتدماً، وانتزع بندقية بيغلار من الحائط، وأمسكها من ماسورتها، وضرب بمؤخّرتها الأرض بكل قوته، وفتح الباب، وقذف الماسورة في الثلج، ورمى المؤخرة في النار. لم يتحرك بيغلار من مكانه، إلاّ أنَّ خديه انتفخا. تناول داتيكو بندقيته، وجلس. وسأل بيغلار:

ـ هل رأيت؟ ـ وأشار داتيكو إلى كعب البندقية الذي التهمته النار.

قالت ماترونا وقد ارتعشت شفتاها:

ـ خطفك الموت، وسقطت الأرض على صدرك. ثكلتك أمك، ولبست على فقدك ثوب الحداد، كالذي ألبسه الآن.

قالت لها فيدوسي:

ـ مَن سيبكيه، يا امرأة، ومن سيلبس عليه ثوب الحداد!

ـ حذارِ يا فيدوسي، تريَّثي قليلاً، فأنا الآن حيوان! ـ ونهض داتيكو من مكانه.

غير أن فيدوسي تابعت كلامها:

ـ هجرك الموت نفسه إلى الأبد، ولا قبلت الأرض بك، ونزل العمى بعينيك، واحترق جسم كل من لبس عليك ثوب الحداد. إنَّ

المصيبة التي حلّت بي لن تستطيع أن تُنزلها بي من جديد!

ـ أنا لم أقتل ابنك، يا ماترونا، ولم يصرع ابنك على يدي، يا فيدوسي. لو كان لكما عقل لعشتما الآن كما... ـ وتلعثم داتيكو، ولم يستطع إكمال ما أراد قوله.

ـ نعم، مات، ولا أعرف حتى أين قبره، قبر ابني! لم يبق إلاّ قميصه الذي لا يجفّ من دموعي. ولكن أن يكون لي هذا القميص وحده خير لي من أن أرى ابني حيّاً على شاكلتك! كيف تجرؤ على أن تذكر بلسانك القذر أسماء أبنائنا!؟

وأرادت ماترونا أن تقول شيئاً آخر، إلاّ أنها لم تستطع، وانخرطت باكية بعد أن غطت وجهها بيديها.

طُحنَ قمحي، وتقدّم داتيكو من القمع، وأخذ يحل كيسه بيدين غير واثقتين. قال بيغلار بخفوت:

ـ الآن دور ماكاريا.

صمت داتيكو.

ـ إنه دور ماكاريا الآن ـ أعاد بيغلار ما قاله واقترب من داتيكو.

ـ ماكاريا ينتظر.

ـ لا ينتظر.

ـ ينتظر.

ـ لا ينتظر.

ـ ينتظر!..

بحّ صوت داتيكو، ودفع بيغلار في صدره، ورفع كيسه فوق القمع. ارتطم بيغلار بالصندوق، إلاّ أنه انتصب واقفاً، ثم اقترب من النار، وجلس، ونظر طويلاً إلى داتيكو. هلت طحيني في الكيس صامتاً، وراقبت بيغلار من طرف عيني. ثبّت بصره على النار، ولبث هكذا بعض الوقت، ثم نهض، وخرج من الباب. هرع داتيكو في إثره،

والبندقية بيديه، وعاد في الحال. جلس قرب الموقد واضعاً البندقية على ركبتيه، وقال:

ـ إنه واقف عند الباب، مغتمّ مني. ـ ثم ابتسم داتيكو ابتسامة ملتوية.

ما إن جلس برهة حتى قفز فجأة، وركض إلى الفناء، ثم عاد ثانية، وقال لي:

ـ سوسويا، قل له أن يعود، فأنا لن أفعل له شيئاً. لا تدعه يتجمّد على الثلج. ـ ولم أتفوه بكلمة.

ـ هل أنت أبكم، أيها الحقير! وهل سيتجرّأ عليَّ كل جرو قذر الخطم!؟

تابعت تعبئة طحيني صامتاً. وهكذا انقضت بضع دقائق. وفجأة انقطع ضجيج الماء في الطاحونة، وصرّت الرحى بصوت حزين. وصمت كل شيء، وساد الطاحونة سكون مطبق. في البداية، أصغى داتيكو مصعوقاً، ثم نظر مستوضحاً إلينا، وتقدّم من القمع. وتبادلنا نحن أيضاً النظرات ذاهلين، بينما وقف داتيكو أمام القمع عاجزاً، لا يعرف ماذا يفعل.

بعد قليل ظهر بيغلار في الباب مبلَّلاً من رأسه حتى أخمص قدميه، مربدّاً ومرتعشاً من البرد. وكان في يديه قضيب حديدي.

سأله داتيكو:

ـ ماذا فعلت، أيها التعيس؟

ـ ما دام بيغلار المسؤول الأول عن الطاحونة، وما دامت روحي في بدني، فلن تخبز خبزاً من طحين مطحون بطاحونتي! وها أنا أمامك، فاقتلني، وافعل ما تشاء!

نظر داتيكو إلى بيغلار، ثم تناول الكيس الفارغ، وطواه، وألقاه أرضاً، واستدار وتقدّم من الباب، وحين وصل إليه، توقف منكّساً رأسه، وخرج إلى الظلمة دون أن يستدير.

وقد رأيت، من الباب المفتوح، كيف حاد داتيكو عن الدرب الذي وطئته الأقدام على الثلج، وسار قدماً على الثلج العميق الذي لم تمسّه قدم، وكيف صعد في تل كونتسخولا، وكيف ابتلع ظلام الليل شخصه البادي كنقطة سوداء على الغطاء الأبيض الناصع للأرض الشتائية.

قال بيغلار مبتسماً ابتسامة قلقة:

ـ اعذرنني، يا نساء، إنَّ ذرتكن أيضاً بقيت دون طحن.

تقدّمت منه وقبّلته في خدّه الرطب البارد.

انتظر، يا مخادع، دعني أدفئ عظامي ـ قال ومسح بيده الخدَّ الذي قبّلت.

خاتيا وتسوتسا

ـ مرحباً، يا بيجان! ربما تظنّ أنني نسيتك! لا، يا بيجان، ليس أكثر من أنني لا أملك الوقت الكافي، فإنَّ لديّ العديد من الأشغال! بعد تلقّي الدروس نذهب للمساعدة في المزرعة التعاونية، وبعد ذلك ينتظرني عمل في البيت. ثم عليّ أن أحضِّر الدروس، وأقرأ شيئاً، إذ لا بد من إنهاء الامتحانات، على أي حال، إن لم يكن في درجات عالية، ففي درجات مقبولة على الأقل! لا يمكن أن أقضي العمر أركض حافي القدمين مرتدياً سروالاً مرقَّعاً! وأنت تعرف أنني الرجل الوحيد في البيت. وقد رحل صاحبنا الروسي، يا بيجان، رحل إلى الجبهة. نهض ذات صباح، ورحل. أنا لم أحدِّثك كيف جعل لوكا يرفع شارة الحداد عن الشرفة؟ لقد ألقاها لوكا في النار، وحين رأى الآخرون ما فعل لوكا حذوا حذوه. وأنت لا ترى الآن أي شارة سوداء في بيوتنا. والجميع يسمّرون عيونهم على الطريق، وينتظرون الأبناء والأزواج والأخوان

المفقودين. هذه هي القصة!.. والآن فُقد صاحبنا الروسي نفسه، لم نتلق منه سطراً واحداً... عندما ودّعناه، لم تتفوّه العمة بكلمة، بل ظلت تبتسم. وفي الليل... يا بيجان، سمعتها تبكي.

ماذا تعتقد، هل كانت تحبه؟ يبدو لي ذلك... الربيع الآن على الأبواب، يا بيجان، وقد أطلّ آذار، وانتظر برهة، وستتفتّق البراعم في شجرة العلّيق خاصّتك... أنا الآن أصنع مصطبة هنا عند قدميك، وها قد جلبت لوحة صُقلت وقطعت خصيصاً. وسأجلس عليها، وأقص عليك كل ما يحصل في قريتنا.

الأمور في الجبهة على هذا النحو، يا بيجان: لم نكتف بصدّ هجوم الفاشيين، بل إنَّنا دفعناهم إلى الوراء. ويقول العائدون من الحرب إنّ كل ذلك كان صعباً جداً جداً...

ـ مرحباً، سوسويا! ـ فجأة سمعت هذه التحية. التفت ورأيت جارتنا تسوتسا. كانت تسوتسا متزوجة من شاب من القرية المجاورة. وأنا أتذكّر يوم زفافها، وكأنما جرى بالأمس. وكانت السماء تهتزّ من الأغاني، وطلقات بنادق أصحاب العريس السكارى. سقطت ست أسيجة بقوائم خيولهم. وقد بكت أم تسوتسا بصمت، ماسحة الدموع بطرف منديلها، وكأنها تقول «لمن ربّيتك، يا ابنتي!»، وتوسّلت إلى العريس: «احرص عليها كما تحرص على حدقتي عينيك». وعندما أجلسوا العروس على الفرس، كالقيصرة تامارا، ودّعت الأم ابنتها، وكأنما كانوا يحملونها إلى آخر الدنيا. وكانت لا تفتأ تتوسّل «زوراني كثيراً، وإلاّ سأُجن من الشوق».

والآن عادت تسوتسا إلى أمها إلى الأبد... لقد بدأت الحرب بعد أسبوع فقط من زفافها، وبعد شهر تلقّت تسوتسا ورقة تبليغ باستشهاد الزوج.

ها هي الآن واقفة أمامي، جميلة، على يدها المنثنية سلّة خوص،

وعلى شعرها الداكن منديل أسود. إنها واقفة هنا، تبتسم كاشفة عن أسنان بيض متساوية لامعة.

حيّيتها دون أن أنقطع عن عملي:

ـ مرحباً، يا تسوتسا! ـ وبعد أن دققت آخر مسمار، ألقيت الفأس على الأرض، وجلست على المصطبة الجديدة.

قالت تسوتسا، وجلست على المصطبة أيضاً:

ـ مضت ساعة كاملة وأنا أنظر إليك من بعيد، وأنت تتحدّث مع شخص ما.

ـ لم أكن أتحدَّث إلى أحد، بل إلى نفسي ـ وتنحّيت.

ابتسمت تسوتسا ثانية، وقالت:

ـ عمَّ كنت تتحدث إلى نفسك، يا فتى؟

ـ كانت تسألني عن شيء، يا تسوتسا.

قالت ضاحكة:

ـ وبماذا أجبت نفسك؟

ـ أجبتها لا أعرف.

قالت تسوتسا:

ـ اسألني، يا سوسويا، فأنا أعرف كل شيء ـ وعبثت بشعري.

لزمت الصمت. انحدرت يد تسوتسا من شعري إلى خدي، ومن على خدي رفعت كفَّها ومرّرتها على صدغي.

ـ أصبحت رجلاً، يا سوسويا، وقد طلع الشعر في وجهك.

ـ أي شعر هو، مجرد وبر... ـ وأحسست بخدي يلتهب.

ـ وطَرَّ الشاربان، يا سوسويا. ـ تابعت تسوتسا كلامها، ومرّرت أصبعها على شفتي العليا.

ـ وهذا وبر أيضاً.

قفزت، وتركت المصطبة حيث جلست تسوتسا. خشيت أن تسمع دقّات قلبي الشديدة. رمقتني بعينيها الداكنتين الواسعتين وابتسمت، وتيّقنتُ من أنها سمعت دقات قلبي. ثم رأيت عِرقاً ينبض على جانب عنقها الأيسر.

سألتني وقد نهضت أيضاً:

ـ إلى أين تذهب، يا سوسويا؟

ـ ذاهب إلى البيت الآن، يا تسوتسا، فالشمس على وشك أن تغيب.

وانحنيت لأتناول الفأس، وحين رفعت قامتي، كانت تسوتسا على وقفتها تنظر إليّ.

همست:

ـ وأنت، إلى أين تذهبين؟

ـ أُريد أن أجمع أوراق الرودودندرون(*)، يا سوسويا، هل تذهب معي؟ معك فأس.

صمتُّ لحظات، وفكرتُ مع نفسي: هل أذهب أو لا؟

ـ قد تظلم السماء فجأة، وأنا... أخاف أن أكون وحدي.

ـ حسناً، سأرافقك، ولكن لنسرع قبل أن تغيب الشمس ـ قرّرت ذلك، وتناولت السلة من يد تسوتسا.

جرينا عبر الدرب هابطين التل الذي تقع عليه المقبرة، وسرعان ما أوغلنا في أجمات الرودودندرون. رحت أقطع الأغصان، من أجمة كبيرة، وأُلقيها حزماً عند قدمي تسوتسا. وقد جلست تسوتسا على الأرض إلى جانب السلّة. وسرعان ما صارت الأجمة عارية تماماً. جلست أيضاً إلى جانب تسوتسا. كان قرص الشمس الهائل البديع

(*) Rhododendron شجيرة زهرية مستديمة الخضرة واسعة الانتشار، تنمو في الصين وبورما وهضبة التبّت، وتسمّى الوردية، أزهارها جرسيّة الشكل.

يتدلّى فوق التلال، وكان يشبه قرص خبز الذرة الطازج المحمرّ. وقد أسفت أن يكون هذا الخبز الهائل بعيداً فوق التلال، وأن يغرب عنّا قسراً إلى أصقاع أخرى. لست أدري لماذا كان يذكّرني كل شيء الآن، في هذا الربيع، بخبز الذرة ـ رحى الطاحونة، وقرص المسنّ، والشمس، والقمر. إنَّ القمر أشبه الأشياء برغيف الخبز، تارة يكون معفَّراً بالرماد قليلاً، وتارة كليًّا، وتارة مقسوماً إلى شطرين، وفي أحيان أخرى لا يبقى منه إلاّ طرف واحد في السماء المتناثرة عليها جمرات النجوم وكأنها موقد متأجِّج. لربَّما كانت كلاب القرية الجائعة تنبح نباحاً متواصلاً، حتى الصباح، لأنها كانت تنظر إلى قرص القمر الشبيه برغيف الخبز.

مالت الشمس وراء التل، وانقسمت أيضاً إلى نصفين. وتوهَّجت السحب فجأة وكأنها لهب مستعر.

كانت تسوتسا تنزع الأوراق عن الأغصان، وتضعها في السلة بعناية. كانت تفعل ذلك على مهل، وتعجيلاً للعمل أخذت أنا أيضاً أنزع الأوراق.

قالت تسوتسا فجأة:

ـ أتظن أنني لا أعرف أنك تتحدّث إلى بيجان؟

ـ نعم، يا تسوتسا، كنت أتحدّث إلى بيجان.

ـ هل تتحدث إليه دائماً؟

ـ دائماً.

ـ كان بيجان يحبُّك كثيراً.

ـ وقد أحببته كثيراً أيضاً.

ـ الجميع يحبونك.

قلت مرتبكاً:

ـ لا أعرف.

ـ نعم، الجميع يحبونك.

ـ وأنت، هل تحبينني؟

لا أعرف لماذا سألتها هذا السؤال. مجرد خاطرة سنحت. احمرّ وجه تسوتسا، ولم تجب. وبعد ذلك قالت:

ـ لماذا لا تأتي إلى بيتنا، يا سوسويا؟.. أنت تزور الجميع، وتساعد الجميع أيضاً...

ـ سأزوركم قريباً...

ـ متى ستزورنا، يا سوسويا؟

ـ متى تريدين؟

ـ عندما تريد.

ـ حسناً، إذاً...

صمتت، ثم سألتني فجأة:

ـ لِمَ تتبعك تلك الفتاة كظلّك؟

ـ أتقصدين خاتيا؟

ـ نعم، خاتيا...

ـ لا تتبعني كظلّي، بل أنا الذي أرافقها في كل مكان، وهي ترتاح إلى رفقتي...

ـ وأنت هل ترتاح إليها؟

ـ أرتاح أيضاً.

ـ هل هي تحبك؟

ـ نعم، في الغالب، خاتيا تحبّني...

ـ كيف تحبّك، يا سوسويا؟

ـ لا أدري، ولكن تحبني مثل سائر الناس...

ـ وأنت تحبها؟

ـ كثيراً!

لم تقل تسوتسا شيئاً. وضعت الأوراق في السلة، ومسّت يدي يد تسوتسا مصادفة. فجذبتها، وكأنما مسّتها نار. وصمتت.

سألتها عندئذ:

ـ وأنت... ألا يحبك أحد، يا تسوتسا؟

قالت بابتسامة حزينة:

ـ لا أعرف، يا سوسويا، لم يقل لي أحد إنه يحبني...

ـ لا شك في أنَّ أحد الناس يحبك.

ـ لا، لا أحد يحبني، لا أحد! ـ هتفت تسوتسا، وحدّقت إلى عينيَّ، وما لبثت أن انكمشت من تحديقها.

ـ وأنت، هل تحبني، يا سوسويا؟

ـ أنا؟.. أنا لا أعرف...

ـ أنت لا تعرف شيئاً، يا سوسويا... هل تعرف حقًّا ما هي المرأة؟.. المرأة التي تزوجت، وبعد شهر فقدت زوجها فترمّلت؟.. أمن المعقول أنك تعرف معنى أن أكون وحيدة في مثل سني، يا سوسويا؟..

تحرّكت لأنهض، إلاّ أنَّ تسوتسا أمسكتني من يدي.

ـ سوسويا، يا عزيزي سوسويا، أنت ذكي. هل ستسخر مني، يا سوسويا؟ أنا وحيدة وغير سعيدة، لا أحد يحبّني!..

وجذبتني تسوتسا إليها، وطوّقتني بذراعيها. ولا أعرف لماذا طوّقتها أنا أيضاً، وقبّلتها من وجنتها، ثم من شفتيها.

همست في أذني:

ـ سوسويا، عزيزي... أنت فتى لطيف... أنت تفهم كل شيء... وإلاّ فخذ الفأس واقتلني، يا سوسويا...

أحسست في تلك اللحظة أنَّ شفتيها ترتعشان، وأنَّ كيانها يرتعش. طوّقت تسوتسا بشكل أقوى فأقوى، ومن ثمَّ انطبقت شفتاي على

شفتيها... وفجأة اجتاحتني رهبة كالرهبة التي تملّكتني في أول صباح من الحرب، حين رأيتُ الجمع الصامت أمام دائرة البريد، كالرهبة التي أحسستها عند ضفة نهر سوبسا، حين مات بيجان بين يديّ... ارتددت عن تسوتسا، وانتزعت نفسي من بين يديها، وأخذت أتراجع، حتى ارتطمت بأجمة، ثم استدرت مولياً لها ظهري، ودون أن ألتفت إلى الخلف عدوت مسرعاً نحو القرية. تهتُ عن الطريق، فشققت سبيلي خلال الأجمات، وسقطت في الحفر، والأخاديد، والسواقي، وركضت تقريباً عبر دوالي العنب، والأراضي المزروعة. ركضت مبتعداً عن تسوتسا، عن الرعب الذي استولى عليّ بالقرب منها دون أن أعرف السبب.

اندفعت في فناء بيساريون شاليكاشڤيلي كالمجنون، وارتقيت درجات السلم إلى الشرفة، وركعت على ركبتيَّ أمام خاتيا لاهث الأنفاس، وضغطت برأسي على قدميها. كانت خاتيا تجلس على مصطبة صغيرة، ووجهها إلى الشمس الغاربة. كانت عيناها، المفتوحتان على وسعهما، تحدقان إلى القرص الذهبي المحمرّ.

جفلت وسألتني:

ـ ماذا حصل؟ ـ وتلمّست يدها وجهي العرق الملتهب ـ ماذا حدث لك، يا سوسويا؟ هل حلّت بك مصيبة؟

ـ أنا أحبك، يا خاتيا!..قلت لها بحماسة.. وانهمرت الدموع من عيني.

ـ ألهذا السبب جئت راكضاً؟ أنا أحبك أيضاً، يا مجنون، والجميع يحبونك، فلماذا تبكي؟ أم أنَّ أحداً قال لك إنه يكرهك؟

مرّرت خاتيا يدها على وجهي برفق.

صحت في حنق من خلال دموعي:

ـ أنت بلهاء، بليدة، لا تفهمين شيئاً!

ـ قل لي أخيراً، ماذا حصل لك؟

ـ لا شيء، لا شيء، يا خاتيا. كنت عند بيجان في المقبرة، وفزعت.

قالت مبتسمة:

ـ ألا تخجل؟

ـ أخجل!..

يجب أن لا تذهب وحدك.

ـ نعم، ما كان يجب أن أذهب دون أن أصحبك معي، يا خاتيا، ونهضت ببطء.

*

أنا مستلقٍ في السرير على ظهري أحدِّق إلى السقف. والآن، نحن لا نشعل الموقد، لأن الربيع قد حلّ، وليس لي ما أحدق إليه في الليالي إلاّ السقف ذا الألواح. وتتعوّد عيناي الظلمة بالتدرُّج. ومن النوافذ يسقط ضوء القمر الواهن. وفي السقف تدب حشرة ببطء أشبه بخنفساء صغيرة أو ذبابة. هذه الحشرة أيضاً ساهرة لم تنم. لماذا؟ مَنْ يدري؟ اختفت الخنفساء في شقّ. وأنتظر خروجها بلهفة. ولكنها لا تخرج، ربما هي تحدّث حشرة أخرى عمّا وقع لها اليوم، أو ربما لم تجد أحداً، فغفت هناك، في الشق، أو ربما هي تستلقي دون أن يراودها النوم، مثلي... وأسمع أنفاس عمتي الرتيبة.

ـ وأسأل:

ـ هل أنت نائمة، يا عمتي؟

صمت تام.. وأشرع بالكلام:

ـ أتعرفين تسوتسا، يا عمتي؟ إنها في ريعان شبابها، وجميلة، ولكنَّ زوجها قُتل، ولا أحد يحبها، يا عمة، فماذا عليها أن تفعل الآن؟ ومَن ينبغي أن يحبها، ومَن بقي هنا ليتزوجها؟ مسكينة تسوتسا...

ـ ...؟

ـ ومسكينة أنت أيضاً يا عمّة، أنا الآن راشد، وأنت تحسبينني لا أعرف لماذا لا تتزوجين! أعرف. لا تتزوجين بسببي. الجميع يقولون إنك كرّست كل حياتك لابن أخيك. الآن لا أحتاج إلى الكثير من رعايتك، فقد كبرت...

ـ نم، يا صغير ـ أسمع عمّتي تقول ـ لماذا تجعل من نفسك واعظاً في منتصف الليل؟ربما شرّبك أحد الناس شيئاً، عسى أن لا تفوته الخطيئة!

أُغطي رأسي بالحِرام. وتكرّر عمتي القول:

ـ نم، أيها القَلِق المُقلِق!

وأحاول أن أغفو، ولكن ما أصعب النوم على عينيَّ هذا المساء!..

معركة الخنادق

لشدّ ما أتعبنا المدرِّس ليڤان غوريليدزه كثيراً، بالرغم من أنه استطاع أن يكسب قلوبنا، فأولعنا به ولعاً شديداً. وعندما عُيِّن مرشداً للصف، سررنا جميعاً غاية السرور. والآن صار يستاء منا، كما يستاء من أبنائه، ويلعننا، ويرفع الكلفة، ويشدّ آذاننا، حين نستحق شدّ الأذن. ولكنه إلى جانب ذلك كله كان يُبحُّ صوته في مجلس المعلِّمين دفاعاً عن كل واحد منا، وإذا ما تعرّض أحد تلامذته للطرد من المدرسة ـ وحدث مثل هذا بالفعل ـ فإن ليڤان كان يقاتل كالأسد، وينتصر.

ولم يحدث أن استدعى ليڤان أباً من آباء التلامذة بسبب سلوكه غير المرضي، أو بسبب درجات متدنِّية.

ـ أنا هنا أبوكم! إمّا أن أسحقكم وإمّا أن أصنع منكم أُناساً ـ كان يصرخ، في مثل هذه الأحوال، ويضرب المنضدة بقبضته ضرباً يترك أثره على يده، فيظل أسبوعاً كاملاً لا يحرِّكها. ومع ذلك فقد كنّا نفضّل

دروسه على الدروس الأخرى، ولا سيما أنَّ المعلم ليڤان كان يعطي دروسه عادة على ضفة سوبسا. كان يقسم تلاميذ الصف إلى معسكرين: المعسكر المعادي، ومعسكرنا، وتتحوّل الفتيات إلى ممرضات، ويصبح ليڤان نفسه رئيس أركان حرب المعسكرين. ويحدث لغط، وضوضاء، وعراك. و«يحتل» هذا المعسكر أو ذاك «مركزاً معززاً» ويقتحم «خنادق العدو» بالصراخ والصياح. ويقرع بعضنا بعضاً فتظهر الكدمات، ويشدّ بعضنا آذان بعض، حتى أنَّ الممرضات كان لديهنَّ من العمل ما يكفيهن. وكنت قائد الألمان، وكان جيشي يضم جميع الضعفاء، لأنَّه كان يجب قهر الألمان بالتأكيد. وبالمقابل كانت نخبة صفنا كلها تحت إمرة القائد «نودار العاقل».

كان جيشه الأحمر يحرز النصر دائماً. وهكذا كنت حتى نهاية الحرب الحقيقية لا أُمثِّل غير دور الأسير، والجريح، والجاسوس، والمخرِّب، والقتيل.

واليوم سيُراق دم الأخوة ثانية. الدرسان الأوّلان مخصّصان لفن الحرب، والقتال حتمي. وبعد المعركة يذهب جميع الذين بقوا أحياء إلى المزرعة لمساعدة الكولخوزيات في جمع الشاي.

الفصل ربيع، ونحن في شهر أيار. وأماليد الشاي تنمو بسرعة شديدة حتى أنَّ النسوة لا يتمكنَّ من جمعها. وإذا لم نساعدهن، فإن الشاي، مورد رزقنا، ينضج أكثر من اللازم، وسيتلف.

نحن فخورون بأنّنا نساعد الجبهة، وأنَّ لنا حصصَ عمل كالكبار. وإلى جانب هذا الفخر يوجد أيضاً فرح آخر - فرح جميع التلامذة على الأرض: فرح آتٍ من أن العمل في المزرعة يعفينا من الدروس، ونحن مستعدون، لقاء هذا الأجر، لا أن نجمع الشاي فقط، بل أن نقلِّب تربة الحرج الموجود على ضفّة سوبسا.

نصطف في صفين، وننطلق نحو الحرج.

الفتيات يسرن في غير نظام، واحدة تقود خاتيا، وتتحدّث خاتيا بشيء ما، وجميعهن يضحكن بصوت عالٍ.

ـ واحد، اثنان، ثلاثة؛ واحد، اثنان، ثلاثة... ـ يعد ليڤان لتنتظم الخطوات، وهو يسير إلى جانبنا. ويقفز لينتظم مع الإيقاع، ويواصل العد: واحد، اثنان، ثلاثة، بدّل خطوتك، يا مامالادزه! واحد، اثنان، ثلاثة، ارفع رأسك أكثر، يا كالاندادزه!

ويركض إلى الأمام، ويدير إلينا وجهه، ويرجع القهقرى، ويصيح:

ـ أعـ...ـلى!

ونحاول رفع أرجلنا إلى أعلى ما نستطيع، ونضرب الأرض بشدة.

ـ صقور! صقور حقيقية! ـ يصيح ليڤان ـ ابدأ النشيد!

سرور المحارب بقتل عدو

لا يضاهيه سرور

ورشاشاتنا

تلعلع...

وأبدأ، ويشترك الأولاد في النشيد، رافعين أصواتهم إلى أقصاها. ويمتلئ الحرج بأصوات صقور ليڤان، الذين يسيرون بخفة مرتدين قمصاناً وسراويل واسعة جدًّا ـ ثياب آبائهم وأعمامهم وأخوالهم الذين ذهبوا إلى الجبهة، بعضهم ينتعل أحذية طويلة الرقبة، وبعضهم كالوشات(*)، وبعضهم الآخر نعالاً جلدية، بل وفيهم مَنْ يطأون الرمل الناعم بأقدام حافية.

ونبتلع الهواء الصباحي المنعش، وغبار الأرض الجاف اللطيف بشكل مذهل، ونصرخ حتى تُبحّ أصواتنا:

(*) عن الفرنسية Galoche وهو الجرموق: نعل من خشب يُلبس فوق الأحذية.

ورشاشاتنا

تلعلع...

دن ـ دن ـ دن!

ـ الجميع... ـ يصرخ المعلم ليڤان، ونضرب بأقدامنا على نحو أشد ـ وقوف! واحد، اثنان! ـ ونجمد ـ إلى اليسار در!

ونستدير حسب ما نشاء، وإذا بكل واحد منا يفهم اليسار فهماً مختلفاً.

ـ واحسرتاه على آبائكم المساكين! تفرَّقوا!

ويجلس ليڤان في ظل شجرة جوز. وبعد استراحة، لخمس دقائق، يستأنف الدرس:

ـ مهمة معركة اليوم هي كالآتي: العدو يتحصّن في الجانب الأيسر من الفولغا. ـ وتشير يد ليڤان إليّ أولاً، ثم إلى نهر سوبسا. ـ ومهمتكم ـ وتتجه الأصبع المشار بها إلى «نودار العاقل» ـ إخراجه من الاستحكامات، والاشتباك معه في معركة بالأيدي، والقضاء عليه، وسوق فلول أسراه إلى الجانب الأيمن من الفولغا؛ ولا تتركوه يستحكم في الخنادق، بل تعقّبوه على الأثر حتّى مسافة ستين كيلومتراً.

قال «نودار العاقل» في جبن:

ـ ستون كيلومتراً! هذا كثير، يا معلم ليڤان!

فهدأت روعه قائلاً:

ـ لا تقلق، نحن أيضاً لن نركض هذه المسافة.

ـ يا بنات، تقدّمنَ إلى هنا، تحت شجرة الجوز مستشفى ميدان. ستكونين، يا خاتيا، كبيرة الأطباء، ويا ناتو ، وكاكانو، وتينا ممرضات، وسيبدأ الهجوم في الساعة العاشرة تماماً.

ويُخرج ليڤان من جيبه ساعة ضخمة بحجم عجلة عربة لها سلسلة تُمسك باليد، وينظر إلى قرصها، ثم يرفعها إلى أذنه، ويهزّها، ويشمّر

كمّه يائساً، ويعيدها إلى جيبه.

ـ سوسويا مامالادزه، قُدْ جيشك إلى ضفة الفولغا، ووزع أفراده على الخنادق.

ـ هلِ تحسبه جيشاً، أيها المعلم المحترم؟! أعرني «نودار العاقل» اليوم، وسأريهم!

ـ لا! احتل مكانك، يا سوسويا مامالادزه، في الخندق الأعلى!

قلت متوسّلاً:

ـ لا أريد، يا معلم، دائماً نحن ألمان، اسمح لنا مرة واحدة أن نمثِّل دور الحمر!

قال «نودار العاقل» متهكِّماً:

ـ انتظر قليلاً، وسنكيل لك الضرب حتى تصبح في الحال أحمر أزرق، حتى لا تعرفك أمك!

ـ ونصحني تاماز كيركادزه قائلاً:

ـ لماذا تعذِّبوننا!؟ استسلموا في الحال وينتهي الأمر.

فقلت مهدِّداً:

ـ سنرى مَن الذي سيستسلم.

وتفرّق الجيشان، كلٌّ إلى موضعه.

صففت الجنود عند حافة الخندق، وألقيت عليهم خطبة تاريخية:

ـ أيها الضباط والجنود، أنتم على أبواب حدث عظيم. اليوم يجب أن تظهروا لـ«نودار» العاقل أنكم لستم جبناء، ولستم أطفالاً سذّجاً لا يفهمون. أمامكم أغنى حرج لسوبسا ـ كرز، وكمثرى، ولو أنه فجّ لم ينضج بعد، إلاّ أنه يؤكل. وقد تذوّقته يوم أمس. وأنتم جياع وبلا ثياب لائقة ولا أحذية. وإذا ما ربحنا هذه المعركة الشرسة فسأكسيكم وأطعمكم وأسقيكم. أمّا إذا خسرنا، فإنَّ العار بانتظارنا، والأسر، والسباحة في ماء سوبسا البارد. أأنتم سامعون؟

ـ سامعون! ـ أجاب الجيش متأوّهاً.

ـ حسناً، أسرعوا وتجهّزوا بالقذائف (أقصد أحجار الأرض) وانزلوا إلى الخنادق!

نفّذ الجيش الأمر بطاعة.

يبدو أن الحمر أيضاً نزلوا إلى الخنادق. لا أحد يظهر في جهة العدو. وأعطى رئيس أركان الجانبين إشارة الهجوم. وساحة القتال مكشوفة، وليس أمامنا أجمة واحدة، ما عدا أشجار الجوز الكبيرة. وساد المواقع صمت القبور. وجّهنا فوّهات البنادق الخشبية باتجاه العدو، وجهّزنا القذائف، وجمدنا في أماكننا. كان «نودار العاقل» أول من خرج من معسكر العدو. لوّح بيده لجماعته، يشير إليهم بأن يتبعوه، وانبطح على الأرض، وراح يزحف باتجاهنا. كان رأسه يبرز من العشب مثل ثمرة قرع كبيرة.

هتف أوتيا كالاندادزه:

ـ أطلق على رأسه، ـ وتناول كتلة كبيرة عن الأرض، فأمرته:

ـ لا تطلق دون أمر مني!

قال سولومون جغنتي:

ـ ولكن إذا نهضوا على أقدامهم فلن نستطيع إيقافهم! من الأفضل أن يبدأ الإطلاق من هذه اللحظة!

علّق روميو تشانوكفادزه:

ـ إنهم الآن بعيدون، دعهم يقتربون أكثر.

وراح العدو يقترب. وكنت أعرف أن المقاتل حين يزحف لا يمكن أن يكون معه أكثر من «قذيفة» واحدة. ولهذا أملت أن نصدّ الهجوم الأول.

ـ لا تستعجلوا، يا أولاد، لن تكفيهم ذخيرتهم. أطلقوا حين أُصدر لكم الأوامر، ولكن إياكم أن تخرجوا من الخنادق، وتلاحقوهم،

فنحن لن نستطيع التغلب عليهم في معركة بالأيدي.

ـ هورّاي!.. ـ صرخ «نودار العاقل» فجأة، وانتصب على قدميه، واندفع نحونا مثل ثور صغير أفلت من عقاله.

وتبعته القوات كلها. تراكض الأعداء في خطوط متعرِّجة، منحنين نحو الأرض.

ـ هورّاي!... ـ صرخ «نودار العاقل» ثانية.

ـ اللعنة! ـ زعق أوتيا كاالاندادزه نافد الصبر، وألقى قذيفة على العدو بقوة. أصابت الكتلة الترابية رأس «نودار العاقل» وتفتّتت. سقطت البندقية من يدي نودار، وتعثّر، وسقط أرضاً.

صرخت:

ـ نيران!

وتساقط وابل من الكتل الترابية، التي تمثِّل القذائف، على جيش العدو. وتزعزعت الصفوف، وتساقط المحاربون على الأرض، وزحفوا متقهقرين إلى خنادقهم.

صرخت في إثرهم:

ـ يا نودار العاقل، لا تتجرأ بعد الآن، وإلاّ قضينا عليكم جميعاً!

قال أوتيا كاالاندادزه:

ـ آه، لو ألقيت الآن نظرة على جبينه، وبعد ذلك مستعد أن أموت!

قال إدوارد دجوبوا متخيِّلاً العاقبة:

ـ لو أنهم وصلوا إلينا لاختلط الحابل بالنابل.

ـ إياك والرعب! ـ صرخت بفاقد العزم هذا.

حذّرني كاجورا غاغوا:

ـ الآن يمزِّقنا بأنيابه كالكلب المسعور.

ـ مَن يخاف منكم سأعطيه العلم الأبيض في الحال، تفضّل ـ قلت ذلك، وأخرجت منديل الأنف.

ـ سوسويا ماماالادزه، من الأفضل أن تستسلم! ـ سمعت هذا التحذير من جانب الحمر.

قلت:

ـ مَن يرغي بهذا الكلام؟ اخرج، أرنا من أنت! ـ وخرجت إلى النصف من الخندق.

صاح العدو، وانتصب بطول قامته:

ـ هذا أنا، غورام تافبريدزه!

ـ وأين ذاك، أبو الرأس المحطّم؟

ـ مَنْ هو؟

ـ الرئيس!

ـ أنا هنا، ومن الأفضل أن تستسلم حيّاً! سأعد إلى ثلاثة، وبعدها سنشتبك في معركة بالأيدي. ـ وخرج «نودار العاقل» من الخندق.

قلت مفاخراً:

ـ جرِّبوا وسترون!

أعطى نودار أمراً بصوت خفيض، وفي الحال خرجت قواته كلها من الخنادق، واصطفت في صف واحد. فأمرت جماعتي:

ـ اخرجوا، يا أولاد، وأعدّوا كتل التراب!

خرج جنودي، وأحاطوني من كل الجهات.

هتف روميو تشانوكفادزه:

ـ يبدو أننا سنهلك!

وشرع نودار يعدّ بصوت عالٍ:

ـ واحد! اثنان! اثنان ونصف! ـ أخذت نودار الشفقة، وأطال مدة العدّ. وسرت دمدمة في صفوف جيشي. وصرخ تاماز كيركادزه من الجانب الآخر:

ـ انتقل إلى جانبنا، يا سوسويا، ما دام لديك وقت!

ـ لا أستطيع أن أخون الرفاق!

ـ انتقل، وسنعفو عنك.

ـ عمَّ تعفون عني، أيها التعساء؟!

ـ انتقل، يا سوسويا ماماﻻدزه، وإذا لم يعجبك الوضع فعُدْ من حيث أتيت!

ـ من الأفضل أن تستسلم، سنطعم الأسرى خبزاً أبيض وزبدة، عندنا الكثير من كل شيء، حتى راحة الحلقوم! ـ وأشار نودار إلى رقبته يمثّل ما عندهم من وفرة الطعام.

ـ يبدو عليكم، يبدو من بطونكم الملتصقة بظهوركم!

صاح نودار:

ـ ثلاثة!

وفي الحال هجمت قواته كلها علينا، وهي تصرخ صرخة الحرب.

صرخت: نار!

طارت ثلاث كتل، بدا أنَّ اثنتين منها سقطتا على رأس نودار. ولكن كان من المستحيل إيقافه وجميع أفراد جيشه المجنون.

ـ هورّاي! ـ هتفوا وركضوا، وصاروا على مقربة شديدة، حتى أنني رأيت كيف كانت عيونهم الوحشية تلمع.

ـ الويل لكم! ـ صاح أحد جنودي الشجعان، وفجأة اختلط الحابل بالنابل.

الضربات، والصفعات، والدفعات، والرفسات، توالت بسخاء من كل الجهات، بعضهم طُرح أرضاً، وبعضهم صُبّ التراب على رأسه، وبدأت من ثمَّ معركة حامية الوطيس بالأيدي.

ـ ماذا تفعل! اتركني!

ـ أذني، يا معلم، أذني!

ـ اترك سروالي، إنه لأبي!

ـ أنت أسير!

ـ أنا مقتول، مقتول!

ـ ارفع يديك!

ـ ارمِ العصا، وارفع يديك!

ـ ألقِ السلاح!

ـ من أين لي السلاح؟!

ـ اترك ياقتي، ستقطعها، أيها المجنون!..

ـ ابن الحمار هذا يظنني ألمانيًا حقاً!

ـ لا تبصق في الوجه!

ـ وأنت اترك أنفي!..

ـ ماذا جرى له؟ جُنَّ! يقتل من صحيح!!

وأخيراً هدأ الجميع، إلاّ أنَّهم كانوا يتنفّسون بصعوبة وبصوت مسموع. وجرّني اثنان من رجلي إلى مقر القيادة؛ وسيقت القوات واهنة العزيمة خلفي، وأيديها مرفوعة.

وأخيراً ألقوا بي عند قدمي المعلم ليڤان.

ـ أيها الرفيق رئيس الأركان! ـ ووقف نودار وقفة الاستعداد أمام ليڤان ـ أمركم نُفِّذ، وقضي على جيش العدو، واستولينا على الضفة اليسرى من الفولغا، وجيشنا المظفَّر يواصل زحفه نحو الغرب، ولا توجد ضحايا تقريباً. وقد أُسر الجنرال الألماني سوسويا مامالادزه، وها هو الآن مطروح عند قدميك.

سألت خاتيا:

ـ سوسويا، مرة أُخرى في الأسر، أيها الجبان؟ ـ وضحك الجميع.

وضحكت أنا أيضاً، ونهضت ونفضت سروالي.

ـ استريحوا، يا أولاد، نصف ساعة، ثم إلى الكولخوز!

اندفعنا بصيحات المقاتلين نحو ضفة سوبسا، ودخلنا المياه الباردة

قفزاً، مثيرين سحابة من الرذاذ المتلألئ. خضنا في النهر وكأننا قطيع من خيول أظمأها الحر والعطش. وبعد أن اكتفينا من السباحة، وغسلنا القذر والعرق عن أجسامنا خرجنا إلى الضفة، واستلقينا في ظل الأشجار. حدقنا إلى السماء الزرقاء الجميلة بشكل ساحر، وصمتنا. وصمت معلمنا أيضاً وراح يدخّن، وهو مستلقٍ على ظهره. كان يدخّن لفافة «تمب»، فكانت رائحة الدخان تدغدغ مناخيرنا بلطف. فتحنا مناخيرنا واستنشقنا الرائحة عميقاً. كان لدى كل واحد منّا تبغ، في الغالب، إلاّ أنّ اللفافات في زمن الحرب كان لها سحر خاص، ونكهة مميّزة. كانت اللفافة حلماً بالنسبة إلينا، والآن حين اكتسب هذا الحلم صورة واقعية، وصار على مسافة خطوتين منا، لم يجرؤ أحد على النهوض والتوجّه إلى ليڤان ليطلب منه لفافة حتى يسحب كل واحد نفساً منها، ويظل سنة كاملة يتباهى بأنه دخن لفافة «تمب».

لم يصبر «نودار العاقل»، على أي حال، وغمز لي، ولكزني بكوعه، يريدني أن أطلب لفافة. نقرت جبيني بسبابتي، وأشرت إلى السماء وكأنني أقول له «هل فقدت عقلك؟» إلاّ أنّ ذلك لم يؤثر فيه، وأخذ يقنعني بكل السبل، بالنظرات الدالّة، والإيماءات، واللكزات، والقرصات. وفي آخر الأمر عزمت على النهوض.

ـ يا معلم! ـ وتقدّمت من ليڤان.

ـ ما الخبر، يا سوسويا؟

ـ يا معلم، سمعت أنه قبيل الإعدام تنفذ آخر رغبة للمحكوم عليه بالموت، هل هذا صحيح؟

ـ صحيح! ـ قال وكأنه قد حُكم عليه بالإعدام، عشر مرات على الأقل.

ـ وأنا جنرال أسير، أليس كذلك، يا معلم؟

ـ نعم، أسير.

ـ يعني، أنكم سترمونني بالرصاص؟

ـ قال ليڤان مبتسماً:

ـ إذا فتحت فمك، وأجبت على كل الأسئلة فإنَّنا نرأف بك.

ـ لن أُجيب!

قال ليڤان بلهجة صارمة:

ـ إذاً، سنرميك بالرصاص!

ـ وإذاً، نفِّذ آخر رغبة لي في الحياة!

سأل بلهجة قائد مظفَّر:

ـ نفِّذ؟

هتف نودار بحماسة:

ـ أظن أنه ستكون أكبر وصمة عار في جبيننا إذا لم ننفِّذ آخر رغبة له!

رقّ ليڤان وسأل:

ـ قل، ماذا تريد؟

قلت متوسِّلاً:

ـ أعطنا لفافة واحدة، يا معلِّم، لتلاميذ الصف كله، وسنمضي من هنا، فلا ترانا ونحن ندخِّن.

جمد مرشدنا من المفاجأة، وانفجر بي فجأة:

ـ ماذا؟ لمن تتجرأون على قول ذلك؟ لي، أنا المرشد، ليڤان غوريليدزه! المحارب القديم! أقدِّم بيدي لتلامذتي لفافة من جيبي، أقدّم لكم هذا الشر اللعين، وأتلف رئاتكم، ودماءكم، وقلوبكم؟! قولوا بسرعة إنَّكم تمزحون وإلاّ فقدت رشدي!..

ـ نعم، نعم، كنا نمزح، يا معلم، اعذرنا! ـ أسرعت بالقول فَزِعاً، وتنحيت جانباً، وحذراً. وجمد الأولاد. وتنهَّد المعلم طويلاً، ودمدم، ثم هدأ شيئاً فشيئاً، وعاد إلى رقدته على العشب.

نادت خاتيا فجأة:

ـ يا معلّم، ـ وكانت طوال الوقت صامتة تتابع وتصغي إلى حديثنا بهدوء ـ أرجوك، يا معلّم، دع الأولاد يدخّنون، فإنهم سيتحدّثون سنة كاملة عن تدخينهم لفافات «تمب». اعذرني، يا معلّم!

ربّت المعلم خدّ خاتيا، ثم طوّق كتفها، وقادها في الطريق، وقال لي:

ـ ماما لادزه، اجمع أفراد الفرقة، واتبعوني إلى الكولخوز.

ـ الفرقة، اصطفاف! بانتظام! حركة! إلى الكولخوز... سر! واحد، اثنان، ثلاثة؛ واحد، اثنان، ثلاثة!..

واندفعت إلى الأمام بكلّ ما أملك من قوة، وبعد أن تقدّمتُ الفرقة، سرتُ في طليعتها.

ـ صقور أنتم، يا أولاد، صقور حقيقيون! بانتظام!

ـ نشيد، يا فتيان! ـ قابل الفرقة القائد العسكري.

ومرة أخرى أخذت أحذيتنا، وكالوشاتنا، وأقدامنا الحافية تضرب ضفة سوبسا، ومرة أخرى تطايرت في النسيم الفاتر قمصان آبائنا الواسعة، وملأت الأصوات الرنّانة الحرج بأغنية بهيجة:

ما أمهرك، ما أسرعك
في جمع أماليد الشاي!
من علمكِ هذا الفن
يا فتاتي
إن لم تتزوجي
في الخريف الآتي
سأرسل إليك في الصيف
خطّابة تواتي

... وفي الصيف بدأ جيشنا في الواقع الهجوم على طول الجبهة.

العجوزان والتوأم

شهر تموز من عام ١٩٤٣. إنَّه وقت السباحة حتى يزرقَّ الجلد، واللّعب حتى الإنهاك ـ لعبة كرة القدم، لعبة الليلو واللاختي(*)، لعبة الحمار الطويل، وقت المصارعة والجولات. وعلى الرغم من أنَّ الدراسة قد انتهت، في هذا العام منذ وقت طويل، إلاّ أنَّنا فقدنا ألعابنا هذه وتسلياتنا وملاهينا. وبدا أنَّ الأولاد فقدوا هواياتهم تماماً.

ـ يا بوندو المهزوز، تعال نلعب لعبة اللاختي!

ـ هل جننت؟ ومَنْ سيقتلع لي الأعشاب من الحقل؟

ـ يا نودار العاقل، تعال نلعب كرة القدم!

ـ لا أستطيع، يجب أن أقطع الحطب.

ـ أوتيا! ادعُ مَنْ عندك في البيت، ولنذهب للمصارعة!

ـ وأين منّي هذه المصارعة، يا سوسويا، وأنا لا أكاد أجرجر قدميّ!

ـ كنّا نعرف جيّداً أنْ لا وجود للكرات، وليس لأحد وقت للعب، وما من أحد يهتمّ للمصارعة الآن، كنا نعرف هذا، ومع ذلك فقد كنّا يدعو بعضُنا بعضاً، ونتوسَّل، رغم أن هذه كانت جهوداً ضائعة تماماً. وأحياناً كنّا نجتمع، ونبدأ اللعب، ولكن هذا أو ذاك كان يتذكَّر فجأة أنَّ عليه عملاً يجب أن يقوم به، ويخرج اللاعبون بالتدرُّج، وسرعان ما يهجر الجميع «الساحة» ـ وهي قطعة من الأرض غير المحروثة خلف البيوت كانت قد سلمت بمعجزة.

وقد أصبحنا الآن ننظر إلى قريتنا بعيون أخرى، ونراها رؤية جديدة، كما صارت القرية تنظر إلينا نظرة مغايرة، وتطلب غير ما كانت تطلبه من قبل.

(*) من الألعاب باللغة الجورجية، كلعبة الغُمَّيضة أو الطُّميمة.

في صباح أحد الأيام جاءت الجارة ماكو، وقالت للعمة:

ـ يا كيتو، يجب أن أجمع المحصول اليوم، وأريد أن يساعدني ابن أخيك.

قالت العمة لي:

ـ اذهب مع ماكو، يا ولد.

وذهبت مع ماكو كشاب راشد انضمَّ إلى فريق للمساعدة في جمع المحصول، واشتغلت مع ماكو حتى المساء، ثم شربت النبيذ، كشاب راشد أيضاً، وعدت إلى بيتي طروباً، وكشاب راشد سعلت ـ دون إرادتي! ـ عند الباب الخارجي. وعندما أعدّت لي العمة حماماً للقدمين، تذكّرت أن جدتي كانت تعدّ لجدي مثل هذا الحمام قبيل النوم، حين كان يعود إلى البيت بعد أن يكون قد قضى يوماً كاملاً في الحقل يعمل بجهد وتعب.

كان مساءً صيفيّاً دافئاً. قلبت العمة الصندوق، ودقَّت بيدها على القعر، وعلى الجوانب، وهزّته، وجمعت حفنتين صغيرتين من الطحين، ووضعت الصندوق في مكانه، وجلست تعجن لتخبز فطائر. راحت تعجن العجين ببطء ولمدة طويلة جداً حانية رأسها. كانت كمية العجين هزيلة جداً. وفجأة رأيت قطرة دمع أو قطرتين تسقطان من عينيّ عمتي على حافة المعجنة الخشبية التي تعجن عليها عادة.

ـ لماذا تبكين، يا عمتي؟ ـ سألتها بالرغم من أنني كنت أعرف تماماً ما ينغِّصها.

قالت العمة وقد رفعت قطعة العجين على كفها:

ـ هذا كل ما عندنا، يا سوسويا، ولا شيء آخر.

عجزت عن التفوُّه بكلمة. أزلقت العمة العجين من أصابعها، والتفتت إليَّ، وقالت:

ـ قل شيئاً، يا سوسويا، ماذا سنفعل؟

ـ عمة كيتو ـ نادت خاتيا من الفناء. فهتفتُ منادياً: ادخلي، يا خاتيا!

ـ مرحباً!

ردت العمة:

ـ مرحباً، يا خاتيا.

قرّبت من خاتيا مقعداً ذا ثلاث قوائم، وأجلستها عليه. ثم قمت وذهبت إلى الحجرة الخلفية، حيث كان يوجد صندوقنا العائلي. أمسكته من مقبضه وجررته إلى المطبخ. نهضت العمة من جلستها، وحدّقت إليّ ذاهلة.

ـ ما يعني هذا، يا ولد؟

ـ في هذا الصندوق ثياب أبي وأمي.

ـ إذاً؟

ـ إذاً سأبيعها.

قالت عمتي مغتاظة:

ـ هل فقدت عقلك؟

ـ سأذهب إلى نابيغلافي، وأُقايضها بالذرة.

ـ أتسمعين ما يقول، يا خاتيا؟

قالت خاتيا مع هزة من رأسها:

ـ أسمع.

ـ سأحملها إلى نابيغلافي، وأُقايضها بالذرة، لا يجوز أن نموت جوعاً.

قالت العمة:

ـ سوسويا، أرجع الصندوق إلى حيث جلبته ـ وتلجلج صوتها في الكلمات الأخيرة.

رفعت الغطاء، وشعرت بغصّة في حلقي. مددت يدي في الصندوق، وأخرجت من جوفه سترة أبي الجلديّة. في كل صيف كنت أنشرها تحت أشعة الشمس لتتهوّى، ولم أشعر إلاّ بشعور غامض جدّاً، بالحب والاحترام، نحو هذه السترة، إلاّ أنني الآن فزعت منها، وكأنني انتزعت الثياب من رجل عنوةً، وقد أذعن صامتاً.

صرخت فجأة:

ـ وسآخذ هذه أيضاً، أتسمعين؟ لم أعد صغيراً، ولا حاجة بي إلى أن أتعلَّم كيف أتصرَّف! ـ وشعرت بأن شفتي ترتعشان.

ـ لا تفعل هذا، يا سوسويا، أرجوك!

ـ سآخذها، سآخذها وأبيعها، فابكي ما شاء لك البكاء! سآخذ هذا الحذاء، وهذا السروال، وهذا القميص ـ سآخذ كل شيء! ـ تابعت ثورتي رافعاً الملابس من الصندوق. وفجأة تقطّع صوتي، فقد رأيت تحت القميص فستاناً ذا لون وردي باهت مطوياً ثلاث طيات. تناولته صامتاً، وبسطته، ومسّدته، وطويته ثانية بعناية. ثم أرجعت قميص أبي وسرواله، وأنزلت غطاء الصندوق.

ـ سآخذ الحذاء والسترة، يا عمتي، ولا شيء آخر. لا تبكي. سأستعير حمار ماناسا وأذهب عليه إلى نابيغلافي لأقايض الملابس بالذرة.

صمتت العمة.

ـ سأذهب غداً.

قالت خاتيا:

ـ سأذهب معك أيضاً.

في الصباح الباكر كنت وخاتيا واقفين في فناء بيت ماناسا نربّت على جنبي حماره الضامرين على نحو غريب.

قال لنا ماناسا محذِّراً:

ـ إنَّ للحمار أذنين كبيرتين، إلاّ أنَّه لا يسمع صوت الإنسان جيداً. هذا الحيوان عنود ومزاجيّ، ويحب المعاملة الحسنة.

قالت خاتيا ضاحكة:

ـ على العموم لن يكون أمام سوسويا إلاّ أن يصارح حمارك بحبِّه في الطريق.

ـ إذا لم يصارحه سيأسف، إنه حمار ويجيد الرفس، وليس حصاناً يذهب إلى حيث تسوقونه. لا، يا عزيزيَّ، الحمار يعرف قيمته!

قلت معترضاً:

ـ أيّاً يكن الأمر فإنَّ الحمار حمار!

اضطرب ماناسا وقال:

ـ لا، يا عزيزي سوسويا، أنت مخطئ جداً. هل تعرف أنَّ ناپوليون قهر مصر على الحمير؟ونحن، كيف دافعنا عن قفقاسنا؟ أتظن أن الحصان أو السيارة تصعد الجبال، ونجر المدفع أيضاً؟ لا! على الإطلاق! إن هذه البهائم المسكينة الوادعة هي التي رفعت المدافع على المنحدرات الجبلية.

قلت متسائلاً:

ـ أيعني هذا أنك لا تبدل الحمار بحصان؟

قال ماناسا بانفعال:

ـ وهل أنا مجنون؟ إنَّ هذا الحيوان يحملني ويطعمني! فكيف أبدِّله؟

أمسكت بمقود الحمار، وسقته إلى الباب الخارجي.

ـ لا تركبا كلاكما على الحمار، بل اركباه بالتناوب، وإلاّ فسيسقط في الطريق. انظر كم ضمر. وإذا راح يعاند فاجلس على كفله، وعند ذلك سيحملك خبباً لا يلوي على شيء.

قالت له خاتيا:

ـ نعم، يا عم ماناسا، فهمنا كل شيء.

ـ أنتِ لست كهذا الفتى! أخبريني من فضلك، هل خرف أبوك ليسلّمك إلى هذا العفريت؟

ـ لا تقلق، يا عم ماناسا!

ـ كونا ماهرين إذاً. أيعني أنك ستدفع لي كيلاً من الذرة أجرة استعارة الحمار؟

ـ نعم، نعم، يا عم ماناسا.

توسّل إليّ العم بيساريون أبو خاتيا، حين خرجنا، أن أحرص على خاتيا حرصي على حدقتيّ عيني وقال: «تُميتُني!»، ثم وضع غدارته على كتفي وقال: ربما يعطي لك أحد الحمقى ذرة بدلاً منها. ورافقنا حتى آخر القرية، وظل واقفاً مدة طويلة ينظر في أعقابنا.

في تلك السنوات كان الحمار ظاهرة نادرة جداً في منطقتنا، تماماً مثل السائح الأجنبي في بلادنا قبل الحرب. وها نحن ـ أنا وخاتيا ـ نسير في الطريق المترب الموصل إلى نابيغلافي، نسوق حماراً، فكان الذين يلتقون بنا ينظرون إلينا، والأطفال يتبعوننا بالقهقهات والصياح. وأنا، من الخجل، لا أعرف ماذا أفعل سوى أن أصرخ مُبعداً الأطفال. بينما الحمار يسير رصيناً غير مكترث لشيء، هازاً ذيله، موتِّراً أذنيه الطويلتين. وخاتيا جالسة على البرذعة كالقيصرة تامارا، تبتسم بارتياح. وتقول هازئة:

ـ ألم ير هؤلاء الأولاد حماراً في حياتهم، يا سوسويا؟

ـ قلِّلي من الكلام وإلا أرجعتك إلى البيت.

ـ إذا كنت تريد ذلك فأستطيع أن أعود!

ـ اجلسي، واسكتي.

ونتوغّل في الطريق، والشمس تحرق جلدينا.

وتتكلم خاتيا ثانية:

ـ لو أنّنا نتوقف عند أحد هنا...

ـ أين نتوقف، والجوع في هذه القرية أشدّ مما في قريتنا!؟

وأخيراً نخرج من هذه القرية اللعينة، وأتنفّس الصعداء. لن يلحق بنا الأطفال بعد الآن.

وصلنا في المساء إلى نابيغلافي. أوقفت الحمار عند أول بيت، وتقدّمت من بابه الخارجي، وناديت:

ـ يا صاحب البيت!

خرج إلى الفناء شخصان: رجل متوسط العمر ذو وجه مثقّب بالجدري كحجر الطاحونة، وصبي في مثل سني له أنف ضخم.

دعانا الرجل، وهو يفتح البوابة:

ـ تفضّلا!

قدت الحمار بمهابة إلى الفناء، وساعدت خاتيا على الترجّل، وحيّيت بأدب.

سأل الرجل المجدّر:

ـ من أنتما، وماذا تريدان؟

ـ عندنا سترة جلدية وحذاء نريد أن نستبدلهما بذرة، فهل تريد؟

ـ أرني.

أخرجت السترة والحذاء من الخرج،وعرضتهما. أخذ الرجل يفحصهما باهتمام.

سأل الصبي ذو الأنف الضخم:

ـ هل هذا الحمار لك؟

ـ نعم.

ـ وهذه الفتاة، أي قرابة تجمعك بها؟

ـ لا قرابة.

سأل بضحكة ساخرة:

ـ هل تبدلها بالذرة أيضاً؟

ـ لا تفتح فمك، ولا تتدخَّل فيما لا يعنيك.

سألت خاتيا:

ـ مَن هذا، يا سوسويا؟

أجبتها:

ـ أبو أنف!

عندئذ فقط لاحظ الصبيُّ صاحب الأنف الكبير أن خاتيا عمياء، فسأل بدهشة:

ـ أهذه الفتاة عمياء؟

ـ عمياء، ولكنها ليست صماء، أيها الخشبة العجراء!

سأل الرجل المجدَّر:

ـ اسمع، يا فتى، هل جئت لتبيع أم لتشتم؟

ـ أغلق فم هذا الثرثار، فقد فتحه مثل باب الزريبة.

غضب المجدَّر على الصبي الغرّ وصاح به:

ـ اسكت، يا ولد! ـ وتحوّل إليّ:

ـ أتبيع سترة في مثل هذا الحر؟! لست دودة قز لأدخل في شرنقة!

ـ هاتها، إذا كنت لا تريدها.

ـ على أي حال، كم تريد بدلها؟

ـ أريد عشرين رطلاً من الذرة.

ـ هل فقدت عقلك؟

ـ نعم.

ـ حسناً، لا تتخابث. سأعطيك كيلاً واحداً.

ـ الكيل يملأ جيباً واحداً من هذه السترة.

ـ حسناً، أملأ جيوبها، ولننه هذه المماحكة.

سألت خاتيا:

ـ سوسويا، ماذا يلبس هذا الرجل؟

ـ قميصاً ممزَّقاً! ـ وقد شملتُه بنظرة فاحصة من رأسه حتى قدميه.

قالت خاتيا بهدوء:

ـ هذا أفضل له! ملبوس العافية! أعطني السترة ـ ومدّت يدها. فأعطيتها السترة.

سأل المجدَّر:

ـ وكم تريد بدل الحذاء؟

عاد ذو الأنف الكبير إلى التعليق:

ـ نملأ الحذاء أيضاً بالذرة!

ـ حقاً، كم تريد؟

ـ لا شيء.

ـ أتعطيه للا شيء؟

ـ للا شيء يعيش ابنك البليد هذا، يجب أن تراقبه وتؤدِّبه ـ رددت بذلك وسحبت الحذاء من يد المجدَّر انتزاعاً تقريباً.

ـ احفظ لسانك، يا فتى، وإلاّ غطست رأسك في البئر! أتحسبني أخاف غدّارتك؟

قالت خاتيا:

ـ هيا، يا سوسويا!

اجلستها على ظهر الحمار، ومضينا في طريقنا بأنَفَة.

حين جاوزنا الباب الخارجي، قالت خاتيا:

ـ أوقف الحمار لحظة، يا سوسويا!

أوقفته فقالت:

ـ هل دخلا البيت؟

كان الرجل والصبي واقفين في الفناء ينظران في أعقابنا.
ـ لا، إنهما واقفان في الفناء.
التفتت خاتيا، وصاحت:
ـ يا عم، هل تشتري الحمار؟
قال المجدَّر متعجباً:
ـ وما حاجتي إلى الحمار؟
ـ قالت خاتيا ضاحكة:
ـ عندئذ سيكون في بيتك حماران!
فتح المجدَّر فاه فقط، بينما ركض ذو الأنف الكبير ليبحث عن حجارة، ولكن حين رأى أنني أمسكت بالغدّارة اختفى وراء ظهر أبيه.
مرة أخرى كنت وخاتيا في الطريق. وها هي البيوت الأخيرة من هذه القرية غير المضيافة. أبطأ الحمار خطوه.
ـ أين نحن الآن، يا سوسويا؟
ـ في آخر القرية.
ـ ما هو الوقت الآن؟
ـ حلّ المساء.
ـ لنقض ليلتنا عند أحد السكان.
أوقفت الحمار عند باب البيت الأخير، وناديت:
ـ يا صاحب البيت!
خرج إلى الشرفة رجل يحمل مصباحاً في يده.
ـ مَن هناك؟
ـ سوسويا ماما لادزه!
قال صاحب البيت مندهشاً:
ـ مَن سوسويا هذا؟

ـ مَن؟.. لا أعرف... سوسويا وكفى!

ـ تفضَّل، يا سوسويا، إلى البيت ـ ونزل الدرج، وتقدم من باب الحديقة، ووجّه إلينا ضوء المصباح، وتفحّصنا بعناية من القدم حتى الرأس. قلت:

ـ نود المبيت، إذا رضيت.

ـ تفضَّل، يا عزيزي. ـ وأنزل المصباح على عجل، وفتح الباب، وتنحى جانباً ليفسح لنا في الطريق.

دخلنا الفناء. ساعدت خاتيا على الترجّل، وقدتها نحو البيت، وكان صاحب البيت يسير في المقدمة.

ـ تفضَّلا، يا عزيزيّ، تفضّلا ـ وغطى المصباح بكفّه لكيلا تطفئه الريح.

سألته:

ـ وماذا عن الحمار؟

ـ انزع عنه برذعته، وليسرح في الفناء حتى الصباح، فهو لن يخرج من هنا.

وهذا ما فعلته. نزعت البرذعة عن الحمار، وألقيت الخُرج على كتفي.

نادى صاحب البيت:

ـ كاكانو! أطلي علينا!

ـ ما بك؟

أطلّت علينا من الباب امرأة كهلة متوسطة القامة تشدّ رأسها بمنديل.

ـ استقبلي الضيفين، يا امرأة!

قالت كاكانو مبدية حركة:

ـ تفضّلا، ادخلا الحجرة.

دخلنا البيت. أجلست خاتيا على السرير، وجلست إلى جانبها.

وتذكرت الدعاء فقلت ولكن بعد فوات الأوان:

ـ البيت عامر.

ردّت كاكانو:

ـ عمر الله بيتك! ـ وبعد ذلك ساد صمت قلق.

نظر صاحبا البيت إلينا متسائليْن، وكأنما كانا يتردَّدان في الجلوس. والظاهر أن خاتيا كانت تنتظر أن أكون أنا أول من يبدأ الحديث، بينما كنت أنا في الواقع أتفحّص الحجرة بهدوء، دون أن يخطر ببالي أن صاحبي البيت يتحرّقان لهفة إلى أن يعرفا من نحن، ومن أين جئنا، وما هي بغيتنا هنا. كان في الحجرة سريران أحدهما مقابل الآخر، جلست وخاتيا على أحدهما. وكان في الحجرة أيضاً طاولة وأربعة كراسي، وعند الموقد بضع مقاعد ثلاثية القوائم. ولا شيء آخر. وعلى الحائط علقت صورة شاب غاضب يرتدي قميصاً عسكريّاً مزرَّراً حتى الرقبة، وفي الإطار ذاته صورة أخرى له مشابهة. تعجّبت لماذا وضعت صورتان متشابهتان تماماً في إطار واحد.

سألت ربة البيت أخيراً، وقد نفد صبرها:

ـ مَن أنتما؟

ـ كنّا ذاهبيْن لاستبدال ملابس بذرة، وقد أدركنا الليل ونحن في الطريق، فإذا كان من الممكن أن تسمحا لنا بالمبيت عندكما...

هتفت كاكانو:

ـ بالطبع، أيها الولدان، وحياتي، لا أن تبيتا فقط، بل لا أترككما تذهبان إذا أعجبكما المقام هنا!

سأل رب البيت:

ـ أي ملابس معكما، يا ولديّ؟ ـ فوضعت الخرج أمامه.

ـ وهل هذا الوقت لفحص الملابس، يا بابيلو؟ يبدو أنَّ الطفلين جائعان!

ـ قال بابيلو:

ـ إذاً قومي بإطعامهما. لست أنا الذي سأخبز الفطائر! ـ وأخرج بضاعتنا من الخرج.

فحص السترة مدة طويلة، وقلبها وأدارها من كل الجهات، ثم لبسها ونظر إلى نفسه في المرآة ـ نسيت أن أقول إن على الحائط مرآة أيضاً ـ وهز رأسه عن رضًى، وخلع السترة، ووضعها على السرير بعناية. ثم تناول الحذاء.

سألني:

ـ أيمكنني؟ ـ وهو يحشر قدمه اليمنى في فردة الحذاء الضيّق.

هززت رأسي. بصق بابيلو على كفه، وحشر قدمه في الحذاء، وأمسك رقبته بكلتا يديه. واحتوى الحذاء رجل بابيلو، وكأنه قفاز.

ـ الله يعطيك العافية! ما أروع هذا الحذاء! بكم تبيعه، يا ولد؟ ـ ومدَّ الرجل اليمنى إلى الأمام، وأخذ يقرع الأرض برأس الحذاء، ويملّي بصره في الحذاء اللامع الناعم.

ـ بعشرة أرطال من الذرة! ـ قلت ذلك، ونظرت إلى خاتيا.

ـ عشرة أرطال من الذرة! ـ كرّرت خاتيا، وابتسمت.

ـ ثمن بسيط لو كانت لدينا ذرة! لا غرابة أن تسمّى قريتنا نابيغلافي(*). من قبل كانت هناك ذرة، وعنابر، ولكن لم يتبق شيء من ذلك حقاً! ـ قال بابيلو ذلك بتنهُّد، وهو يسحب الحذاء من قدمه. وفي أثناء ذلك وضعت كاكانو على الطاولة الواطئة جبنة طازجة، وفطيرة ذرة باردة، وجرة من النبيذ. ودعتنا قائلة:

ـ تعالا، أيها الطفلان، وكلا. أغلب الظن أنكما جائعان.

كنت عاجزاً عن الرفض. أمسكت بيد خاتيا، وقدتها نحو

(*) نابيغلافي باللغة الجورجية تعني ما يتبقى من عنبر الحبوب.

الطاولة.لم يصرف بابيلو عينيه عن خاتيا. أمّا كاكانو فقد وضعت خدها على يدها، وأخذت تهز رأسها بأسف. صبّ بابيلو النبيذ في الأقداح.

ـ ليكن الله في عوننا! ـ وشرب قدحه.

أعطيت خاتيا فطيرة وجبنة، وناولتها قدح النبيذ، وقرعت القدح معها.

قالت خاتيا:

ـ عسى أن لا يغيب الخير عن بيتكما ـ وشربت القدح كله.

سأل بابيلو، بعد أن ملأ الأقداح ثانية:

ـ من أنتما، يا ضيفيَّ العزيزين؟

ـ أنا سوسويا ماما لادزه، وهي خاتيا ـ وقد بدا لي أنَّ مثل هذا الجواب كان كافياً وافياً جداً.

ـ وما هي القرابة التي تجمعكما؟

ـ لا صلة قربى.

أضافت خاتيا:

ـ جاران فقط، ثم إنَّني وسوسويا ندرس في صف واحد.

سأل بابيلو مندهشاً:

ـ هل أنت تدرسين، يا عزيزتي؟

ـ نعم، وسوسويا يأخذني إلى المدرسة.

سألها بابيلو بتعاطف صادق:

ـ هل عيناك مريضتان منذ زمن طويل؟

ـ ليستا مريضتين، بل مجرد أنني لا أرى. إنهما لا تؤلمانني أبداً.

هتفت كاكانو بخفوت، وهي تهز رأسها:

ـ يا لحكمة الرب، أمن المعقول أن يُحرم ملاك مثلك الشمس ونور النهار! ـ وضغطت رأس خاتيا على صدرها، وقبّلت شعرها.

تدخّلت في الحديث:

ـ لا، خاتيا ترى الشمس، وقد قال الطبيب إنها ما دامت ترى الشمس فمن الممكن شفاؤها!

قال بابيلو منتعشاً:

ـ هل هذا صحيح، أيتها الفتاة؟ ـ وصبّ النبيذ ثانية.

ـ نعم، صحيح أنني أرى الشمس، وقد قال الطبيب في باتومي لأبي: «إنني ما دمت أرى الشمس فإنه سيعيد إليَّ بصري». عندما تنتهي الحرب سيأخذني أبي إلى باتومي، وسيجرون لي عملية جراحية.

قالت كاكانو:

ـ أنت خاتيا(*) حقاً، أدخلك الله الجنة.

أجابت خاتيا بأدب جمّ:

ـ أشكركما.

قال بابيلو:

ـ عوفيت يا فتاة... ما دام الطبيب قد وعد فسينجز وعده. ولكن كيف تركتك أمك تسلكين هذه الطريق الطويلة؟

ـ ليست لي أم، وأبي يسمح لي أن أذهب برفقة سوسويا إلى أي مكان.

ـ يبدو أنك تحبين صديقك سوسويا كثيراً.

ـ الجميع يحبونه.

قلت مستاء:

ـ إنها لا تسير على قدميها، بل أحملها على ظهر الحمار.

فقال بابيلو ضاحكاً:

ـ ولكن إذا حصلتما على ذرة فلن تستطيع إركابها على الحمار، فهو

(*) تعني «خاتيا» باللغة الجورجية الوضاءة الساطعة مثل الأيقونة القديمة.

لا يقوى على حمل هذه الحمولة.

قالت خاتيا:

ـ سنسير على مهل، وأنا أحب السير على قدميّ.

غضبت كاكانو وقالت:

ـ بابيلو، دع الطفلين يأكلان! لقد أمطرتهما بأسئلتك.

قال بابيلو:

ـ كُلا، يا عزيزيّ، وسنتكلم فيما بعد! ـ وقرّب منّا الفطائر والجبنة، وصبَّ النبيذ.

عندما فرغنا من تناول الطعام قال بابيلو:

ـ سأشتري هذا الحذاء، ولكن تساهل معي قليلاً.

ـ كم يجب أن أتساهل؟

ـ لا تحسب أنَّ بابيلو فاشاكيدزه رجلاً بلا ضمير. أنا أعرف ثمن هذه الأحذية، غير أنَّ الذرة الآن أعلى ثمناً، لأنها نادرة. وأنت، إن لم تكن محتاجاً إلى دقيق لما أخرجت من بيتك هذا الحذاء الممتاز. أليس كذلك، يا خاتيا؟

ـ نعم، يا عم بابيلو، ـ وابتسمت خاتيا.

ـ هكذا إذاً، سأعطيك لقاء الحذاء كيلاً واحداً من الذرة، يا سوسويا.

قلت معترضاً:

ـ هذا قليل جداً. يجب أن أعطي كيلاً واحداً لماناسا بدل استعارة الحمار. ـ وشعرت بخجل لسبب لا أعرفه.

أجاب بابيلو:

ـ نعم، يا أخي، هذه هي الحياة: حين لا يبقى ما يخصُّك تضطر إلى الاستعارة من الآخرين.

وصمت أنا.

ـ حسناً، أتبيعه بكيل ونصف الكيل؟

ـ إذا اشتريت السترة أيضاً أقبل.

ـ وكم تريد لقاء السترة؟

ـ عشرين رطلاً.

ـ أوّاه!

قالت خاتيا:

ـ هذه سترة أبيه الجلدية.

سأل بابيلو:

ـ هل لبسها كثيراً؟ ـ وشرع يرتديها.

ـ لبسها أبي مرة واحدة لا أكثر.

ـ أوه، اللعنة على الشيطان، أُعطيك لقاءها عشرة أرطال، وسأبقى جائعاً في الصيف.

أحنيت رأسي غير مدرك هل أوافق أو لا أوافق.

قالت خاتيا:

ـ هذه السترة الجلدية والحذاء يعودان إلى والد سوسويا، ولولا الحاجة لما باعهما، وعشرة أرطال قليلة جداً! عمّته لم توافق على بيعهما، إلاّ أنه انتزعهما على كرهٍ منها.

ـ هل أبوك في الجبهة؟

ـ لا.

ـ أليس لك أب؟

ـ لا أعرف.

ـ وأم؟

ـ لا أعرف.

ـ تمهّل، رويدك، قل لي بصراحة ما الخبر؟

قالت خاتيا:

ـ اعتُقل أبوه وأمه في عام ١٩٣٧، وعمّته هي التي تربّيه وترعاه، وهي المعلمة كيتو.

هز بابيلو رأسه كناية على الفهم، ثم خلع السترة. وبعد أن صمت قليلاً قال:

ـ إذاً، في عام ١٩٣٧؟

أكّدت له:

ـ نعم، في عام ١٩٣٧.

ـ اعتقلوهما ليلاً؟

ـ نعم، ليلاً.

ـ معاً؟

ـ لا، في البداية اعتقلوا الأب، ثم الأم.

ـ وبعد ذلك؟

ـ لا شيء بعد ذلك.

ـ لم يُسمع شيء عنهما؟

ـ لا.

سألت كاكانو بإشفاق:

ـ آه، يا لتعاسة أبويك! هل تذكرهما، يا بنيّ؟

ـ أتذكرهما بصورة غامضة، غامضة جداً. وأتذكّر أمي أكثر. ـ وطويت السترة بعناية، وقلت محاولاً أن أغيّر موضوع الحديث:

ـ يجب أن نرحل عند الفجر، يا عم بابيلو.

ـ نعم، يا بني، بالطبع. يا كاكانو، اغرفي خمسة أكيال ونصف كيل من الذرة لهذين الولدين.

حملت كاكانو كيسي صامتة، وذهبت إلى الحجرة المجاورة. واستأنف بابيلو الكلام، قال:

ـ نعم، إنَّ كل ذلك صعب، يا عزيزيّ. لقد أخذوا اثنين من قريتنا أيضاً: غابرييل الطحان، وأياكنته كونتشوليا محاسب دائرة الكولخوز. أخذوهما ليلاً. ومنذ تلك الليلة لا خبر ولا حديث عنهما. ـ وصمت بابيلو، وغرق في تفكيره. ومن الحجرة المجاورة كنّا نسمع كيف كانت كاكانو تصب الذرة.

ـ ألا تريد أن تشتري غدارة، يا عم بابيلو؟

ـ ها؟ ماذا قلت؟ ـ سأل وكأنه استيقظ من غفوة، وقد فتح عينيه.

ـ قلت، هل تشتري غدارة؟

ـ غدارة؟ نعم، غدارة... لا، لست بحاجة إلى غدارة. وما الحاجة إلى غدارة الآن؟ خلال هذه الحرب هاجرت طيور الدُجّ والعصافير. فماذا أصيد؟ على كل حال، في الشتاء تلجأ حيوانات شتى إلى القرية، والغدارة ضرورية دائماً. كم تريد لقاءها؟ ـ وتناول الغدارة، وجرّ المزلاج، ونظر في الفوهة.

لم أجب بكلمة، سوى أنني ضغطت على يد خاتيا، فقد كانت الغدارة ملكها، وهي التي يجب أن تحدد السعر. قال بابيلو:

ـ غدارة ممتازة، ولكن كم أعطيكما مقابلها؟

تمتمت خاتيا:

ـ لا شيء. ـ وكدت أعض لساني من الدهشة. سألها بابيلو:

ـ ألا تبيعينها؟

ـ لا، لا أبيعها، يا عم بابيلو، بل خذها دون مقابل، أنا أهديها إليك إذا كانت تعجبك.

ـ وكيف لا تعجبني مثل هذه الغدارة الممتازة، يا فتاتي العزيزة! ولكنني لا أريدها بلا مقابل، فإن أهلك سيوبّخونك على ذلك. ـ وأسند بابيلو الغدارة إلى الحائط، ومسّد شعر خاتيا الناعم.

ـ لا، وإلاّ فلا أريد! لا أحد سيوبخني في البيت، فإن هذه الغدارة

لي، وأنا أهديها إليك، وسأكون مسرورة جداً إذا قبلتها... ـ ورفّت رموش خاتيا سريعاً ـ أخبره، يا سوسويا، أن هذه الغدارة لي حقاً، وأن لا أحد سيوبِّخني.

أدركت أن خاتيا ستغضب إذا رفض بابيلو الآن، فنظرت إليه متضرِّعاً.

ـ إنها تخصُّها، وهي تهديها إليك، يا عم بابيلو، وإذا رفضت ستحزن خاتيا كثيراً.

هزّت خاتيا رأسها مؤيِّدة.

قال بابيلو متأثِّراً:

ـ ما العمل، إذا كان هذا قرارك... شكراً لك، أدعو لك أن تسعدي وأن تكوني مسرّة لأبيك ـ وقبّل خاتيا في خدها ـ كاكانو، تعالي هنا، أيتها المرأة، أين ضعت..؟ ـ افرشي للولدين! إنهما يريدان أن يناما. وتعالي انظري أي غدارة أهدت إليَّ خاتيا! ـ قال بابيلو مازحاً: مثل هذه البندقية تغري الإنسان ليصبح قاطع طريق!

دخلت كاكانو، فقدَّم بابيلو البندقية إليها.

قالت مذعورة:

ـ أوه، احترس! قد تنطلق!

وشرعت تبسط الفراش. وأخذت من جديد أنظر إلى صورة الشاب الغاضب، وأستغرب لماذا وضعت صورتان متشابهتان في إطار واحد.

سألت بابيلو:

ـ يا عم بابيلو، أهذا ابنك؟ ما اسمه؟

رفع بابيلو رأسه، ونظر إلى الصورة وعلى شفتيه ابتسامة حزينة.

ـ عن أيهما تسأل؟

قلت معاتباً:

ـ أتضحك مني، يا عم بابيلو؟

تدلّت شفتا بابيلو إلى الأسفل في ابتسامة مريرة، وحكّ قفاه، ثم تناول غليونه، وظل وقتاً طويلاً يحشوه بتبغ فركه في راحتيه، وأشعله من المصباح، وعاد ينظر إلى الصورة وقد أحاطت بوجهه غمامة زرقاء من الدخان.

ـ طوال عشرين عاماً كنت، أنا نفسي، أُخطئ في اسميهما، فأسأل كل واحد عن اسمه، يا سوسويا. وطوال عشرين عاماً كانت أمهما تضربهما وتعاقبهما كليهما على ذنب واحد منهما خوفاً من أن تخطئ فيفلت المذنب.

قالت كاكانو وتنهّدت تنهيدة عميقة:

ـ آه، ليت يديّ أمكما تيبّستا آنذاك، يا ولديّ.

ـ عشر سنين وهما يوتّران أعصاب معلّميهما بألاعيبهما، ولم يكن أحد يعرف من المذنب منهما ليعاقبه. وكان اثنان من المعلّمين يمتحنانهما في وقت واحد، في ركنين مختلفين من الصف عندما أنهيا المدرسة. حصل أحدهما على درجة «مقبول» والآخر على درجة «ممتاز»، ومع ذلك فقد استطاعا أن يحيِّرا اللجنة كلها حين قدمت لهما الشهادتين. أنا وأمهما فقط كنا نميّز بينهما، بشيء واحد فقط، بالوحمة التي كانت على فخذ ناسيا، بينما لم تكن على جسد باتوا وحمة مثلها. غير أنه في المدرسة لا يمكن أن يعرّوا جسديهما ليعرفوا من هو صاحب الوحمة. سبق ناسيا أخاه باتوا بسبع وعشرين دقيقة، فقد جاء إلى الدنيا قبله بسبع وعشرين دقيقة. وكلاهما خرجا إلى الجبهة في يوم واحد، وفي ساعة واحدة. وقد أرسلا هاتين الصورتين لنا في الشهر الأول من الحرب. فكبّرتهما. وفيما بعد فُقِد الاثنان معاً. وهكذا تنغّصت شيخوختنا، كما ترى...

وأجهشت كاكانو،ومسحت عينيها بطرف المنديل المشدود على رأسها، وردّدت:

ـ يا إلّهي امحق الذي أهلكنا حتى لا يبقى له أولاد، ولا أحفاد، وحتى تذرو الريح رفات ذريته! يا سميع، يا رب! كيف لم تفارق الروح جسد أمكما، يا ولديّ؟

ـ يا سوسويا، أيهما ناسيا، وأيهما باتوا، على أي حال؟

ـ إنهما متشابهان تماماً، يا خاتيا.

ـ هل هما وسيمان؟

ـ نعم وسيمان، يا خاتيا.

ـ مَن يدري ماذا تعانيان، وأين أنتما الآن، يا ولديّ العزيزين! ربما أنتما جائعان، ربما مريضان، وأمكما التي تأخر الموت عنها تأكل وتشرب، وتنظر إلى نور الدنيا، ولا تموت. لو حطمت رأسها بصخرة! ـ وبكت كاكانو.

قال بابيلو كاظماً غيظه:

ـ اهدئي، يا امرأة، يكفيك! ـ ثم حدّثني قائلاً:

ـ وهكذا، يا عِزيزيّ، هذه هي السنة الثالثة وهذه المرأة المسكينة تقتل نفسها كمداً، وتقتل نفسي.

ـ يا لفجيعتي، يا ولديّ، مَن يدري؟ فقد تكونان مشوقين إلى عطف الأم ورعايتها! ليتني أراكما مرة واحدة، وبعد ذلك أطوي ذراعيَّ على صدري، وأغمض عيني. يا لفجيعتي لو أن رصاصة أصابتكما، يا ولديّ الوسيمين...

قالت خاتيا فجأة:

ـ يا عمة كاكانو، فُقد في قريتنا شاب أيضاً، وضاع كل أثر له، ثم عُثر عليه... قبل ثلاثة أيام فقط عُثر عليه...

سألت كاكانو رافعة يديها عن وجهها:

ـ هل هي سعيدة أمه، وماذا يكتب إليها؟..

ـ لم يكتب، ولكنّه جاء بنفسه، يا عمة كاكانو.

سألتها أنا مندهشاً:

ـ عمّن تتحدّثين، يا خاتيا؟

ـ عن ابن أياكنته دجابوا، هل نسيت؟

قال بابيلو، وأخذ يتململ في جلسته جرّاء نفاد الصبر:

ـ وهل تحدّثت إليه، يا فتاة؟ ماذا يقول؟

ـ يقول إن أحوال هتلر سيئة... سيئة جداً. فقد ابتكرت جماعتنا سلاحاً رهيباً، يطلقون عليه اسماً نسائياً هو «كاتيوشا»، و«كاتيوشا» هذه تهدم وتحرق كل شيء في طريقها.

قال بابيلو:

ـ سمعت هذا أيضاً، حدثيني ماذا قال أيضاً؟

لكزتني خاتيا قائلة:

ـ تكلّم، يا سوسويا، لقد كنت هناك أيضاً، أتذكر؟

ماذا يجب أن أقول؟ فتحت فمي، ولكنني لم أستطع أن أتصوّر ما ترمي إليه خاتيا. كنت أعرف جيداً أن ما من أحد في قريتنا قد عاد إلى عائلته في الشهر الأخير جريحاً كان أو عاجزاً أو مصاباً بصدمة، وأعرف أنه قبل يومين بالتحديد حلت مصيبة سوداء بأياكنته دجابوا إذ تلقى ورقة تبليغ بمقتل ابنه.

قال لي بابيلو، وكان قد جمد يترقّب:

ـ تكلّم، تكلّم، يا فتى، ماذا قال لك؟

ـ قال إنّ هذا السلاح يحرق كل شيء... ـ ارتجلت على عجل ـ الآن تقصف طائراتنا برلين... عن قريب ستفتح جبهة ثانية...

ـ ومتى، متى، ما الذي يؤخّرهم!

أجابت خاتيا عني:

ـ عن قريب! الآن لدى جيشنا وفرة في كل شيء: في الطعام، واللباس، والعتاد، ولا يُقتل إلاّ عدد قليل لأن الخنادق منظمة بشكل

جيد. والألمان يتراكضون على الدوام... ـ قالت خاتيا ذلك دون أن تتوقّف لتلتقط أنفاسها.

زفرت كاكانو:

ـ أحقاً أنَّ أمكما تعيش حتى ذلك اليوم السعيد؟ ـ وحدقت إلى صورتي ولديها بعينين مغرورقتين بالدموع.

ـ ولكن لا ترد رسائل، يا خاتيا! ـ تمتم بابيلو بخفوت وقد نكّس رأسه.

ـ ولكن، يا عم بابيلو، من أين لهم الوقت الآن ليكتبوا رسائل؟

ـ وإذا كان عمود بيتي قد انهار فعلاً؟ وإذا لم يكن ولداي في الوجود؟ ماذا سأفعل عندئذ؟ بأي نهر أُغرق أساي؟ ـ وهز بابيلو ذراعه يائساً.

ـ حدّثه، يا سوسويا، ماذا سمعت أيضاً من فاجيكو، ألا تذكر؟

سألتها متضرّعاً:

ـ ماذا قال، يا خاتيا؟

ـ قال إنه كان في وحدته الكثير من الجورجيين، ومن بينهم، كما يظهر، توأم...

خاتيا! ما أقدرها على الكذب، كما يبدو، وبشكل يبدو صحيحاً! جفَّ حلقي. وكان غليون بابيلو يرتجف في يده. بينما ركعت كاكانو على ركبتيها أمام خاتيا، تتطلّع إلى وجهها من الأسفل، وتلتقط كل كلمة بفيه فاغر، مثل سمكة قذفت على شاطئ، تبتلع الهواء، مؤملة أن تجد فيه قطرات الماء المانحة للحياة. وعندما صمتت خاتيا، جذبت كاكانو طرف ثوبها تريدها أن تواصل حديثها، استطردت خاتيا:

ـ كان هناك شقيقان، أليس كذلك، يا سوسويا؟نعم، توأم... قال إنهما متشابهان مثل نصفي تفاحة...

ـ وبعد؟ ـ همست كاكانو.

ـ يقال إنهما كانا يحملان نياشين... ونحن جميعاً نحبهما.

سألت كاكانو بصوت متقطِّع:

ـ كانا توأمًا؟ ـ فهزت خاتيا رأسها.

ـ ما اسم عائلتهما؟! ـ وندّت من كاكانو أنة.

أجابت خاتيا بهدوء:

ـ لم أسأله عن اسم عائلتهما.

ـ ماذا كان اسمهما؟

ـ ذكر اسمهما، ولكنني نسيت، ولا أتذكّر. ألا تتذكّر، يا سوسويا؟

ـ لا، يا خاتيا، أنا لا أتذكّر أيضاً.

ـ إنَّهما حيّان، على الأقل؟

ـ نعم، لم تُصبهما رصاصة!

قالت كاكانو:

ـ أنا ذاهبة معكما لترشداني إلى هذا الرجل، يجب أن أتكلم معه! ـ وأمسكت يديّ خاتيا، وضغطتهما على صدرها.

صمتت خاتيا قليلاً، ثم سألتني:

ـ يا سوسويا، جاء ليوم واحد، أليس كذلك؟

ـ نعم ليوم واحد ـ أجبت بصعوبة.

فسألت كاكانو:

ـ أيعني هذا أنه قد رحل؟

هزت خاتيا رأسها موافقة.

توجّهت كاكانو إليّ:

ـ ماذا أفعل الآن؟

أجبت بصوت مفتعل:

ـ قال إنه سيعود قريباً.

ـ وإذا لم يعد؟

ـ سأكتب إليه، وأعرف منه كل شيء، يا عمة كاكانو، ـ قلت ذلك

وأنا أحاول أن أتفادى نظراتها.

قالت كاكانو متضرِّعة:

ـ أسد إليَّ هذا المعروف، والله لا ينساه لك!

ـ نعم، يا عمة كاكانو، سأكتب إليه حتماً...

ـ يا إلّهي، أيعني هذا أن ولديّ في قيد الحياة؟ أيتها السماء احفظيهما، واستجيبي لصلواتي!.. قلت إنهما شقيقان، أحدهما يشبه الآخر تماماً؟ يا رب السماوات، في العالم الكثير من الأشقاء، والتوائم، أعطهم جميعاً العمر المديد، ولكن، يا ربي، احفظ لي ولديّ، ناسيا وباتوا، أتوجه إليك، أصلي لك، يا ربي!

رفعت كاكانو ذراعيها، وصلّت، وفي عينيها الدموع، للعليّ القدير لكي يحفظ ولديها اللذين ربما يكونان ميتين أو على قيد الحياة.

كان بابيلو طوال هذا الوقت يجلس صامتاً، وقد خشيت أن ينهض ويقذف بنا خارج بيته نحن الكاذبيْن بلا ضمير، إلاّ أنه كان يصغي بهدوء غريب إلى كل سخافاتنا، ويبتسم... لم يصرف بصره عن خاتيا، ويداه ترتعشان قليلاً، وحاجبه الأيمن يرف. كانت الغرفة صامتة جداً، وفي هذا الصمت تردّد همس كاكانو وكأنه ابتهال. ومن على الحائط كان ينظر إليّ وجهان متشابهان مؤطَّران بإطار واحد.

صمتنا وقتاً طويلاً. وأخيراً تمتم بابيلو:

ـ يا إلّهي، أمن المعقول أنه لم يكن عندك من تعاقبه غير هذه الفتاة الطيّبة؟

ونهض، وتقدم من كاكانو، وأنهضها من ركوعها. وقادها إلى الباب.

ـ ناما الآن، يا عزيزيّ، متّعكما الله بأحلام حلوة إكراماً لطيبتكما. ـ قال ذلك. وانغلق الباب خلفهما دون صوت.

جفانا النوم أنا وخاتيا. طلبت مني خاتيا أن أقودها إلى الفناء. هبطنا

الدرج وأجلستها على العشب الهزيل تحت شجرة جوز، واستلقيت موسِّداً رأسي على ركبتها. كان المساء دافئاً جداً من أَمْسِيَة حزيران. وكانت النجوم الكبيرة المشعة ترصِّع بكثرة أديم السماء الداكنة المتكاثفة. كان يبدو وكأن اليد إذا امتدت استطاعت أن تقتطع جزءاً من السماء بنجومه، فقد كانت السماء على هذا النحو لصيقة دانية. كانت الجنادب تصرّ، وفي مكان قريب يهدر ماء نهر، وتنقنق ضفادع. وكانت الكلاب، حراس القرية الأوفياء، تتنادى بكسل. وفي قريتي أيضاً توجد مثل هذه السماء، ومثل هذا الهدوء، ومثل هذه الأصوات تعكّر صفو الصمت الأزرق لليل الحزيراني. وعمتي، في أغلب الظن، مستلقية تحت شجرة الجوز في فناء بيتنا، متّكئة على وسادة، تنظر إلى الأمام في الظلمة الفضية للسماء المنجَّمة، وتفكر فيما أُفكر فيه. ما أروع الأمر لو أن السماء تعكس كل شيء كما تعكس المرآة، إذاً، لرأى بعضُنا بعضاً حين ننظر إلى السماء. وتعارفنا جميعاً، وتصادقنا... ولتعرّفت على العالم كله، ولعرفني كل الذين يعيشون على أرضنا. ولرأيت بلداناً كثيرة، جميع البلدان، ولرأى الجميع بلادنا. عندئذ لن تكون هناك حروب في أغلب الظن، لأن الناس سيدركون أنهم جميعاً ليسوا سيئين بالشكل الذي يتصوّره بعضهم أحياناً، وسيرون أن في العالم الكثيرَ من الخير. لو أنَّ السماء كانت مرآة لرأينا فيها مَن الذي أُصيب بضائقة وعوز، ومَنْ الذي يعيش بيسر ورغد، ولساعد أولاء ذوي الضائقة من الناس... نعم، لكان ذلك شيئاً رائعاً...

قطع صوت خاتيا حبل أفكاري:

ـ سوسويا، بِمَ تفكر الآن؟

ـ أنا نفسي، يا خاتيا، لا أستطيع أن أفهم ذلك...

ـ ومع ذلك فبِمَ كنت تفكر؟

ـ أفكر في السماء.

ـ ماذا تفكر في السماء، يا سوسويا؟

ـ أفكر لو أنّ السماء كانت مرآة...

ـ حسناً... لنفرض أنها مرآة.. ماذا سيكون عندئذ؟

ـ مثلاً، لو أن شيئاً سقط في عيني، لنظرت في السماء وأخرجت ذلك الشيء.

ـ لا، قل الحقيقة!

ـ آه، يا خاتيا، لو عرفت كم سيكون ذلك رائعاً! ـ قلت ذلك وتفرّست من جديد في السماء الرقيقة الوامضة بالنجوم. وصمتت خاتيا.

وبعد فترة قصيرة قالت:

ـ ما أشدّ دفء هذه الليلة.

ـ اسمعي، يا خاتيا، أتظنين أن بابيلو صدّق كلامك؟ ـ سألتها بعد لحظة صمت أخرى.

ـ لو أني قلت إن ولديهما قُتلا فهل كانا يصدّقان كلامي حقاً؟

ـ ولماذا يجب أن يصدّقا كلامك؟ إنّ كلامك كذب!

ـ ولا يمكن أن يكون هذا وذاك كذباً، يا سوسويا! إنّ بابيلو وكاكانو لا يستطيعان أن يصدِّقا أن ابنيهما قد قُتلا، فليصدّقا بأنهما على قيد الحياة.

ـ وإذا كانا قد قُتلا؟

ـ ولكنني لم أقل إنّ الشقيقين التوأم كانا ولديهما، فليأملا... دع بابيلو وكاكانو يصدّقان أنّ ولديهما حيّان. أهذا شيء سيئ حقاً؟ لا أحد منّا يعرف مصيرهما بالتأكيد. وهذا جوهر الأمر...

وسألتني من جديد:

ـ فيم تفكر، يا سوسويا؟

ـ أفكر في أننا غداً سنكون في البيت، وبأن العمة ستخبز لنا فطيرة

كبيرة كبر هذا القمر، وسنأكلها بشهية...

ـ ما هو لون السماء، يا سوسويا؟

ـ السماء زرقاء، يا خاتيا.

ـ وما هو اللون الأزرق، يا سوسويا؟

وفكّرت.

ـ الأزرق لون سماوي ـ حاولت أن أشرح، شاعراً بعجزي عن تفسير ماهيّته.

ـ وهل السماوي لون جميل؟

ـ جميل جداً! أنت تذكرين القصيدة «اللون السماوي، اللون الأزرق...».

ـ جميل، وما هو الجميل؟

ـ الجميل؟... ـ نهضت، واستدرت نحو خاتيا، وأخذت أحدق إلى وجهها المكتسي لون الليل الرقيق.

ـ عينان سماويتان كبيرتان، وأهداب سود، وحاجبان أسودان. ـ ومرّرت أصبعي بحذر على حاجبي خاتيا، فابتسمت ابتسامتها الوضاءة. ـ وواصلت قولي: وشعر كستنائي، وأنف مستقيم صغير، وشفتان مكتنزتان، وأسنان بيض، وحنك مستدير... ذلك هو الجميل، أتفهمين، يا خاتيا؟ ـ ووضعت يدي على كتفيها، وأحسست بارتياح كوني استطعت أن أشرح لها ما هو الجميل بهذا الشكل الصحيح.

ـ أيعني هذا أنني زرقاء سماوية؟

تنهّدت يائساً.

ـ وأنت، ما شكلك، يا سوسويا؟

ـ أنا قرد!

ـ وما هو شكل القرد؟

ـ أنا مثله تماماً.

تلمّست خاتيا وجهي، وسألت:

ـ ما لون شعرك؟

ـ أسود.

ـ وعيناك واسعتان، وأهدابك طويلة. وما هو لون عينيك؟

ـ بنيّتان.

ـ وأنفك صغير ومستقيم أيضاً، وأذناك صغيرتان، وحنكك مستدير، وشفتاك مكتنزتان أيضاً. وأسنانك.

ـ الأسنان بيضاء لدى الجميع، يا خاتيا.

ـ إذاً، فأنت وسيم، يا سوسويا؟

ـ جيّد أنك لا ترينني!

ـ أنا أراك، يا سوسويا، أراك أنت والشمس، ولا شيء غيركما...

وأنزلت خاتيا يديها.

طوّقت كتفيها، وجذبتها نحوي، وأطاعت خاتيا يديّ بنعومة. وضعت رأسها على ركبتي، وانحنيت وقبّلت عينيها بلطف، ثم قبّلت شفتيها، ورقبتها، وعدت إلى شفتيها، وجمد كلانا هكذا لبعض الوقت. وعندما رفعت رأسي كانت خاتيا تبتسم ابتسامة غريبة.

ـ خاتيا!

ـ اصمت، يا سوسويا...

استلقيت على ظهري عند قدمي خاتيا، وأخذت أحدق إلى السماء. انحنت خاتيا عليّ، ووضعت خدها في موضع القلب مني. وصمتت ولم تبد حراكاً. والظاهر أنها كانت تتسمّع إلى دقات قلبي. بينما أحسست أنا تسرّب دفء خدها إلى جسمي، كما حدث آنذاك على ضفة سوبسا، في ذلك اليوم الخريفي الرهيب، حين لمست يديها.

نظرت إلى النجوم. كانت السماء زرقاء أو سماوية... وهل من الممكن أن يُحدَّد لون السماء!؟ ولكنَّ السماء كانت كعيني خاتيا.

سمعت بقبقة النهر البعيدة، وخرير مياهه، وغناء الجنادب الصداح، ونباح الكلاب الرتيب؛ سمعت كل ذلك، ولم أر غير السماء المنجَّمة وخاتيا. وخاتيا لم تر غيري وغير الشمس. والسماء ذاتها، السماء الهائلة، السماء الزاهرة، كانت ترانا كلينا، وتبتسم لنا.

*

عندما استيقظت كان ضوء الصباح الباهت ينصب في الحجرة. نظرت من النافذة فرأيت الصبح قد طلع. ارتديت ملابسي، وسرت بهدوء نحو فراش خاتيا. كانت خاتيا نائمة وقد حشرت كلتا راحتيها تحت خدِّها، وكانت شفتاها منفرجتين قليلاً. مسست يديها، وهززتها برفق:

ـ خاتيا، يا خاتيا!

ـ ماذا حدث، يا سوسويا؟ ـ فتحت عينيها في الحال، وجلست على الفراش.

ـ نوّرت الدنيا، وستطلع الشمس قريباً. انهضي وارتدي ملابسك، أنا ذاهب لأضع برذعة الحمار.

ـ حسناً.

نزلت إلى الفناء. كان الحمار يقضم العشب بنهم، موتِّراً أذنيه الكبيرتين. رفعت من القرمة البرذعة التي تركتها هنا مساء، وألقيتها على ظهر الحمار، وشددت الحزام. وعندما صعدت الدرج عائداً إلى البيت وجدت خاتيا قد لبست ملابسها.

همست لها:

ـ هيا، لنذهب.

قالت بدهشة:

ـ لماذا تهمس؟

ـ بابيلو وكاكانو لا يزالان نائمين.

ـ هذا يعني أنَّ الوقت مبكّر جداً الآن.

ـ نعم.

ـ وهل نرحل دون أن نودّعهما؟

ـ لا يحسن أن نوقظهما، لنذهب.

وقدتها إلى الشرفة.

ـ لا يجوز، يا سوسويا، عيب!

ـ لا عيب مطلقاً، أفضل بكثير من إيقاظهما في مثل هذه الساعة المبكرة! لنذهب!

نزلنا إلى الفناء، ثم عدت ثانية، وحملت كيسَيّ الحبوب، وربطتهما معاً، ووضعتهما على ظهر الحمار.

ـ هيا! ـ وأمسكت يد خاتيا.

ـ آه، أيها المراوغان، أتهربان؟ ـ سمعنا فجأة.

كان العم بابيلو واقفاً على الشرفة أشعث، قليل الثياب ـ قرّرتما أن تجلبا العار عليّ؟ تعودان إلى البيت مع الفجر بلا طعام ولا شراب؟ ماذا سيقول الناس، ها؟ ـ وهدّدنا بأصبعه.

ـ يا عم بابيلو، نشكرك كثيراً، ولكن يجب أن نغادر في ساعة مبكرة لكي نصل إلى البيت قبل حلول الظلام، ـ ونظرت إلى بابيلو بعينين آسفتين. فوافق قائلاً:

ـ هذا صحيح، يا عزيزيّ.

ـ وهكذا نرحل، يا عم بابيلو، فإلى اللقاء.

ـ أترحلان؟

ـ نعم، نرحل، شكراً، شكراً جزيلاً لكما على كل شيء.

قال، وهو يحك صدغه:

ـ انتظر، يا أخ، انتظر! ـ ثم دخل الحجرة مسرعاً، وبعد بضع دقائق خرج إلى الشرفة ثانية. أحسست بغشاوة على عيني: فقد رأيت العم

بابيلو يحمل السترة الجلدية والحذاء، وينزل الدرج، ويتوقف أمامي.
لم أستطع أن أنطق بكلمة واحدة، فقد جفّ حلقي، والتصق لساني بلهاتي. ـ هذا، يا ولدي، حذاؤك! وهذه السترة! ـ وألقى بابيلو السترة على ظهر الحمار.

تناولت الحذاء الذي مدّه إليّ.

سألته بصوت واهن:

ـ ألا تريده، يا عم بابيلو؟

قال بابيلو:

ـ لا أريده، يا ولدي، ـ ووضع يده على رأسي ـ لا أريد الحذاء، ولا السترة، سأحتفظ بالغدارة وحدها فهي هدية، وابتسم.

تمتمت:

ـ لماذا، يا عم بابيلو؟ هل الثمن باهظ؟ ـ وشعرت بأن شفتي السفلى تتلوى دون إرادتي.

ـ لا، يا ولدي، ليس باهظاً، بل مجرد أنني لا أريد!

ـ وما العمل الآن؟

تقدّمت من الحمار، ورحت أرفع الكيسين عن البرذعة. غير أنَّ بابيلو اعترضني، وقال:

ـ ماذا تعمل، يا ولد؟

التفت إليه، وقلت:

ـ قلت إنك لا تريد!

ـ وما علاقة الذرة؟

ـ استرجعها.

ـ لا، يا عزيزي، لن أفعل ولو قتلتني! كيف استطعت أن تظن ذلك! لا أعيد الذرة، وأعيد إليك الحذاء والسترة فقط، فخذهما. ولماذا تتخلى لي عن الذرة؟ لقد أعطيتها لك بلا مقابل ـ قال وداعب شعري.

أوه، ذكيّ!

ـ يا عم بابيلو...

ـ ماذا؟

ـ يا عم بابيلو... لا أريد الذرة إذاً... أنا... أنا... لست متسوِّلاً!.. ـ غمغمت أخيراً، وشعرت بتدفق الدم إلى وجهي.

رفع بابيلو يده عن رأسي بحركة حادة، وسأل بلهجة باردة:

ـ ماذا قلت؟ ـ فأطرقت برأسي. ـ ماذا قلت لي؟ ربما أخطأت السمع؟ ـ وفجأة انفجر وكأنه لغم بطيء الانفجار. ـ آهٍ منك، أنت، يا عيّار، كيف تجرؤ على أن تقول لي ذلك؟ ومن علّمك أن تتحدث على هذا النحو مع الشيوخ؟ متسوّل! ها؟ فكر في الأمر! وهل كنت متسوِّلاً عندما قبلت منك الغدارة؟ أيعني أنّ هذا تسوّل؟ إذا قدّم إنسان إلى إنسان بعض حبوب الذرة يعني أن هذا الرجل متسوّل؟ أنت نفسك لا تعرف ما هو المتسوّل... خاتيا، هل تسمعين بأي هراء يتحدّث صديقك الرائع سوسويا؟ إنه يقول: «لست متسوِّلاً!».

لم أستطع التحمُّل أكثر فانفجرت باكياً كالطفل الصغير. وقلق بابيلو أيضاً فأسرع يطوِّقني، وأخذ يلاطفني.

ـ لا، يا عزيزي سوسويا، لا تبك، يحفظك الله، لماذا كل هذا البكاء؟ ستكبر قليلاً، وتصبح رجلاً، فتلبس هذا الحذاء وهذه السترة... أتحسب أنها لا تصلح لك؟ زرني مع خاتيا في زفاف ولديّ، إذا سارت الأمور على ما يرام! أسامع أنت؟ أرجوك! والآن ارحلا... إنَّ تلك الأكيال الخمسة والنصف من الذرة لن تهلكنا أنا وكاكانو، وخزان الذرة عندنا مملوء فضلاً عنها، ومؤونتي يمكن أن تطعم عشر عوائل لمدة عشرة أعوام. ومع ذلك ستفسد الحبوب، وتتعفن («أه، يا بابيلو، كم تود أن يكون كلامك صحيحاً!..» ـ فكرت وأنا أصغي إلى الكذب الصُّراح عن الاحتياطات الهائلة من الحبوب). ارحلا، ارحلا، يا

عزيزيّ... ـ ودفعني بابيلو برفق.

نادته خاتيا، واتجهت نحوه:

ـ يا عم بابيلو!

ـ ما الأمر، يا خاتيا؟

تقدّم نحوها. توقّفت خاتيا على مقربة منه، ومدّت ذراعيها، ولمست وجهه، ثم وقفت على أطراف أصابعها، وجذبت رأسه نحوها، وقبّلت خده بقوة.

قدتُ خاتيا نحو باب البيت الخارجي. وكان الحمار قد خرج إلى الشارع، وأخذ يضرب الأرض بحوافره دون عجلة.

ـ لا تنسيانا، أيها الولدان. عرّجا علينا حين تكونان في هذه المنطقة. على الأقل لتشجيع امرأتي العجوز قليلاً! ـ ودّعنا بابيلو بهذه الكلمات.

ـ إلى اللقاء، يا عم بابيلو!..

ـ إلى اللقاء، يا عزيزيّ!..

شيّعنا بابيلو بنظراته حتى غيبنا المنعطف. سرت وخاتيا صامتين في طريق مقفر.

استيقظت القرية شيئاً فشيئاً. ظهرت هنا وهناك أعمدة خفيفة من الدخان فوق المواقد، وتصايحت الديكة شقية بأصوات بحّاء، وصفقت بأجنحتها، داعية إناثها. وقوّست الكلاب ظهورها مستندة إلى قوائمها الخلفية، وتمطّت بتلذّذ، ثم حركت ذيولها، فقد أثار حمارنا فيها اهتماماً شديداً وقلقاً، فكانت تنطلق نحو أبواب الحدائق بنباح عالٍ. كان الصباح يدق أبواب القرية.

عندما تجاوزنا طرف القرية، وارتقينا رابية تسلّق عليها الدرب، توقّفت خاتيا.

سألتها:

ـ ماذا حدث، يا خاتيا؟

ـ لم تجب خاتيا بشيء. كانت عيناها مصوّبتين نحو الشرق. ومن وراء جبال سوريبي ارتفعت الشمس هائلة.

إلى أين تسعى، أيها الدرب، حين تلتقي بالطريق العريض وتسير بحذاء سوبسا، على ضفته الرمليّة؟ إلى أين تمضي بقريتي؟ لقد رأيتك، لأول مرة، مزدحماً بالناس، حيّاً في عام ١٩٤١، حين سرت ببحر من الأنفُس. فإلى أين حملتهم أيها الدرب؟ إنَّ لك نهاية لا بد أنك عائد بعدها إلى الوراء. عُدْ بالذين حملتهم أيها الدرب، عُد بهم! لقد كنت أعلم أنه سيأتي يوم تحملني فيه أيضاً إلى الآماد غير المنظورة، ولكنني كنت سأعود إلى هنا، وستحملني أنت ذاتك، عاجلاً أو آجلاً، وتعود بي من حيث أتيت. أنا لا أريد أن يحمل نبأ عودتي شخص آخر غيري، سأعود بنفسي وأقول: هذا أنا، أيها الناس، أنا عائد! وأريد أن يقول ذلك كل الذين حملتهم، وأن يعود كل واحد منهم ـ على قدميه أو على عكازين ـ ولكنّه يعود ليقول: «هذا أنا، فاجيكو، زوج تسوتسا!»، و«هذا أنا، كوكورا، ابن لوكا...» أتسمعني، أيها الدرب؟ عُد بأولئك الذين حملتهم، واختطفتهم منّا في عام ١٩٤١! عُد بهم، وعُد بكل ما أخذته منذ ذلك اليوم الحزين. ها قد حان الوقت، وعام ١٩٤٤ في نهاياته، عام ١٩٤٤.

استطاع زكاريا كيغورادزه الذي عاد من الحرب أن يتزوج، وأن ينجب طفلاً، وقد سمّى طفله، الكبير الرأس، «روزفلت» إكراماً للحلفاء.

وفي الأُمسيات كان الجيران يجتمعون بعوائل الذين أسعدهم الحظ بالعودة، وكانوا مقعدين، وكانت الأحاديث تدور عن الحرب والوضع في الجبهة حتى بزوغ الفجر. وكانت تُحكى أباطيل وترّهات، وأشياء مُبهجة وحزينة عاشها الراوي نفسه أو سمعها أو رآها، وكان كل شيء

يُروى يُسمع باهتمام بالغ، ورجاء خفيّ، فلعل اسم الحبيب الغائب يأتي في السياق. وبين الآونة والأخرى كانت الحكايات التي لا تنتهي تقطع بسؤال خجول: «وفتاي، ألم تلتق به في مكان ما؟».

نعم، عادت قريتي، عاد الذين كانوا أول من حملتهم، أيها الدرب، في عام ١٩٤١، إلى نار الحرب ودخانها. لم يعودوا على الشكل الذي خرجوا به: عادوا يضعون نياشين، ولكنهم فقدوا أيديهم وأرجلهم، وثقب أجسادهم الرصاص وشظايا القنابل، وأُصيبوا بالصدمات، ومع هذا كله كانوا فرحين وفي همة عالية: فقد كانت بانتظارهم حياة السلام، وسماء الوطن. عادوا بالنصر من طرق أوروبا الغريبة البعيدة وقد غطى غبارها أحذيتهم، ومعاطفهم. جاءوا فرادى، جاءوا على الدرب ذاته الذي سلكوه جميعاً في ذلك اليوم الحار من حزيران عام ١٩٤١.

وكان هذا الدرب يبدو مثل خيط ملقًى في شبكة هائلة يجرّها شخص غير منظور بحذر وإصرار على الضفّة، وفي هذه الشبكة تضطرب حياة مثخنة بالجراح ولكن منتصرة متوثّبة.

*

الألماني الأسير

ومرة أُخرى خلا صندوقنا من الطحين، ومرة أُخرى ظلت المقلاة باردة لمدة طويلة. ولكنّنا نحمد الله، إذ لم يبق على أوان نضوج عرانيس الذرة الجديدة غير أسبوع واحد. كانت النسوة ينقرن كل يوم عرانيس الذرة بأظفارهن، وكانت العمة تنقرها أيضاً، إلاّ أنّ الذرة كانت لا تزال طريَّة جداً وغير ناضجة، ومن الخطإ قطعها.

قالت عمتي ذات صباح:

ـ اركض، يا ولد، إلى بيت مينا، واطلب منها مكيالاً آخر من الطحين حتى يوم الاثنين!

قلت:

ـ لا أستطيع أن أذهب لأطلب منها مرة أخرى، أخجل، اذهبي أنت بنفسك!

قالت العمة مبيِّنة حجّتها:

ـ سأضع أنا المقلاة على النار كي تحمى!

وفي الحال أبطلت حجتها:

ـ سأحميها أنا!

ابتكرت العمة حجّة أخرى:

ـ ومَن سيجلب الحطب؟

ـ أنا سأجلب الحطب.

ـ والأوراق؟

ـ والأوراق أيضاً ـ أبطلت كل حججها دون رأفة.

كنت أعرف أنها تخجل من الذهاب لطلب الطحين من الجارة، فإنَّ هذا الطلب من أم تلميذتها كان أسوأ لها من الموت. كنت أفهم كل ذلك جيداً، إلاّ أنني عاندت، لأنني خفت أن تعتذر مينا، أمّا إذا ذهبت العمة بنفسها، وطلبت، فلن ترد الجارة طلبها.

بادرت العمة تقول:

ـ اسمع، يا سوسويا...

ـ لا تطلبي مني، يا عمتي، أنا لن أذهب أيًّا تكن حجتك ـ قاطعتها فوراً ـ فأنا أستحي، أستحي، أستحي، أتفهمين؟

ـ وأنا، ألا أستحي؟

ـ نعم، ولكنني أستحي أكثر منك!

تنهّدت العمة، وتناولت المكيال، وخرجت من الفناء. سحبت من السياج أربعة أوتاد قديمة، وقطّعتها، وأشعلت النار، ووضعت المقلاة. ثم وضعت على الموقد إبريق الماء، وقطعت أوراقاً من غصن شجرة

جار الماء(*)، ووضعتها عند المعجن، ورحت أنتظر رجوع العمة.

وأخيراً رجعت. وضعت مكيال الطحين عند المعجن، ونفضت ثوبها.

ـ ماذا قالت مينا؟

ـ أهالت العمة الطحين في المعجن، وغسلت يديها ولم تجبني.

ـ ماذا قالت، يا عمتي؟

ـ صُبَّ لي الماء!

صببت لها الماء.

ـ على كل حال، ماذا قالت لك؟

أخذت العمة تعجن العجين.

ـ قالت ليرفع سوسويا العديم الضمير المقلاة عن النار!

اندفعت للقيام بما أمرت.

سألتها بلهجتها الجافّة أيضاً:

ـ وماذا قالت لك أيضاً؟

ـ قالت ليضع الأوراق في المقلاة.

نفذت هذا الأمر أيضاً. دوّرت العمة الفطيرة، قدَّمت لها المقلاة فوضعت الفطيرة على الأوراق. نشّت الفطيرة. أحسست بطعمها في فمي، فأخذت أُسرع في ابتلاع لعابي.

ـ وماذا قالت أيضاً؟

ـ قالت حين تخبزين الفطيرة لا تعطي قطعة واحدة لذلك الصبي العديم الضمير!

غطّت العمة المقلاة بصفيحة من الحديد عليها جمر متّقد.

ـ وبماذا أجبتها؟

(*) Alder : جنس شجر حرجي يألف الماء من فصيلة البتوليات.

ـ أجبتها لن أعطيه.

ـ وماذا قالت؟

ـ قالت إذا لم يغلق فمه فأدخلي أنفه في الجمر!

صمت، واقتربت من الموقد.

من العسير جداً الجلوس بالقرب من فطيرة ذرة تُخبز وأنت تتضوّر جوعاً. فأنت تنظر إليها، وتحلم، وتنتظر، وينفد صبرك قبل أن تنضج. والوقت، وكأنَّما نكايةً بك، يمرُّ ببطء شديد، حتى لا يكاد يتحرك. وجلست العمة أيضاً.

وأكاد أموت، وأختنق بلعابي، وأتململ في جلستي، إلاّ أن العمة تجلس وكأنما لا يعنيها من أمري شيء، وكأنها لا تنتظر اللحظة التي تخبز فيها الفطيرة.

رفعت الصفيحة الحديدية قليلاً، نظرت في المقلاة، فلفحت أنفي الرائحة الحارة.

قالت العمة:

ـ انتظر، يا ولد، دع العجين ينضج، فلا يزال نيئاً!

قلت معترضاً:

ـ وماذا أيضاً؟ أيطعم الناس الديوك الرومية والعجول بالعجين؟!

ـ ليس لك فقط تُخبز الفطيرة، ابتعد عنها!

غيّرت مكان جلوسي. وعادت دقائق الانتظار اللاّنهائية تطول. وفاض كأس اصطباري. والآن فقدت العمة اتّزانها أمام إغراء الرائحة، ورفعت الصفيحة. قلت لها ساخراً:

ـ انتظري، يا عمتي، لا يزال العجين نيئاً.

ـ الحمد لله، لقدنضج، وتنهّدت، ووضعت الفطيرة نصف الناضجة في فوطة.

جررت الطاولة الوطيئة. وضعت العمة الفطيرة في صحن،

وأخرجت من العلبة القرص الأخير من الجبنة، وقطعته إلى عدة قطع. وأضفت أنا إلى المائدة زجاجة النبيذ، والملح. وجلسنا إلى المائدة. قطعت العمة الفطيرة نصفين، ثم قطعت كل نصف إلى نصفين أيضاً، ووضعت ربع الفطيرة لي في صحن، ثم أخذت حصتها، وابتسمت لي أو للفطيرة، لست أدري.

قرّبت الفطيرة من فمي، وعضضتها مُحرقاً لساني بها، وإذا بي أسمع شخصاً يسعل في الفناء بحذر. نظرنا، أنا والعمة، في وقت واحد من خلال الباب المفتوح. كان هناك رجل يقف في وسط الفناء يرتدي قميصاً عسكرياً ألمانيّاً حائل اللون، وينتعل حذاءين هائلين على نعلين خشبيين. وكان له خدان غائران، وكأنما من أثر لكمة، وعينان زرقاوان، وشعر أصهب. ابتسم بذلّة، وهز رأسه. كان الرجل ألمانيًّا. قال:

ـ ألماني، أسير!

وكان الصبيان قد ذكروا مؤخَّراً أن مائتين من الأسرى الألمان قد نقلوا إلى المنطقة، وأنهم يعملون في موقع للبناء. وقد تقاطر الناس عليهم لإلقاء نظرة، وعادوا من هناك بحصيلة وافرة من الأخبار والأقاويل. إلاّ أنني لم أذهب إلى المعسكر. وهذا الجندي الألماني الأسير الواقف الآن في فنائنا كان أول ألماني أراه في حياتي، ولهذا وضعت قطعة الفطيرة، ونهضت، كما نهضت العمة أيضاً.

قال الألماني، وانحنى بأدب:

ـ غوتن مورغِن(*).

هتفت العمة، وسوّت شعرها بحركة لاإرادية:

ـ أسير ألماني!

أعاد الألماني قوله مبتسماً، وانحنى ثانية:

(*) Guten Morgen ألمانية عربيُّها: صباح الخير.

ـ غوتن مورغن.
أجبت، ونظرت إلى العمة:
ـ غوتن مورغن.
سألت العمة وقد شحبت واضطربت:
ـ ما حاجته، يا سوسويا؟
ـ لا أعرف. إنه لم يقل حتى الآن غير «صباح الخير!» ـ ماذا تريد، يا ألماني؟ ـ وشمّرت كمي أسأله عن بغيته، فقال:
ـ هتلر كاپوت(*).
ـ هذا نعرفه، فنحن نقرأ الجرائد، الحمد لله أنَّه «كابوت» قريباً. لكنَّ الذي لا نعرفه هو ماذا تريد.
قال الألماني، وهزّ كتفيه:
ـ لا أفهم!
سألته بالروسية:
ـ ماذا تريد، أيها الرجل؟
ـ يوحنا، إيخ بين يوحنا(**)! ـ قدَّم نفسه لي، وضرب صدره عدة مرات.
توجهت إلى العمة في حيرة من أمري:
ـ ماذا يريد هذا الوغد الشريد، يا عمتي؟
ـ لا أعرف، يا ولد! ـ وهزّت كتفيها.
ـ خنده خوخ(***)! ـ صاحت بهاتين الكلمتين الألمانيّتين، اللتين حفظتهما من دروس الفن العسكري.

(*) هتلر Kaputt أي انكسر.
(**) ich heisse John : أنا اسمي يوحنا.
(***) Handehohe : أي ارفع يديك!

رفع الألماني يديه إلى فوق في الحال، ولاحت عليه الدهشة.

ـ هتلر كابوت ـ قلت ذلك، فأعاد الجندي عبارتي بسرعة: «هتلر كابوت».

لم أعرف كيف أطلب منه بالألمانية أن ينزل يديه، فاضطررت إلى أن أتقدّم منه، وأن أُنزلهما بنفسي.

سألته بالروسية:

ـ ماذا تريد، ما حاجتك؟

فقال:

ـ خبز، خبز...

ـ آ...، هل تريد خبزاً أسود أم أبيض؟

ـ لا أفهم!..

ـ هل تأمر أن تُعطاه مع الزبدة والجبنة، أم خبزاً حافًا فقط؟

ـ خبز، زبدة!

ـ آه، سندويتش؟

قال الألماني فرحاً:

ـ سندويتش، سندويتش.

ـ وما رأيك بـ«خاتشابوري»(*)؟

ـ ألماني، أسير ـ أعاد القول وابتسم، وكأنني بدون هذا البيان لم أعرف أنه «ألماني، أسير».

ـ هل وقعتم في المصيدة، أيها الأوغاد؟ اذهب، واطلب من صاحبك هتلر أن يطعمك!

ـ هتلر كابوت!

ـ نعم، نعم، كم أنا حزين! ـ وقطّبت.

(*) من المطبخ الجورجي (فطائر اللحم).

وفهم الألماني أنني أسخر منه، فتوجه إلى العمة الآن وقال:

ـ خبز، فراو(*)، خبز... ـ وارتجفت شفتاه.

وفي تلك اللحظة لاحظنا، أنا والعمة، أنه لم يعد ينظر إلينا، وأن نظره مسمَّر على باب المطبخ المفتوح على مصراعيه، وقد لاحت المائدة المعدة للفطور.

قلت للعمة:

ـ جُنّ هذا الرجل، من أين لنا الخبز والفطائر! ـ وكانت عمتي واقفة شديدة الشحوب.

ـ خبز، فراو! ـ أعاد الألماني القول، وعيناه لا تزالان مصوّبتين على باب المطبخ.

وفجأة اندفعت العمة إلى المطبخ، وقبل أن أتفوّه بكلمة خرجت منه بقطعة من الفطيرة، ودسّتها في يد الأسير.

ـ آوه، دانكه شور(**)، فراو، دانكه شور! ـ قال ذلك وفي الحال دسّ القطعة في فمه.

رأت العمة لمحاً كيف يزدرد الأسير الطعام، فما كان منها إلاّ أن اندفعت إلى المطبخ وعادت ببقية الفطيرة.

صرخت في يأس:

ـ هل جننت، يا عمتي، لتفعلي ذلك؟

ـ اتركني، يا سوسويا! ـ وهرعت إلى المطبخ مرة أخرى ـ خذ، أيها الألماني، كُلِ الجبنة الطازجة، واشرب هذا النبيذ، وفطيرة يوم الغد، خذها، خذها، لا تخف! ـ ودفعت إلى الألماني المشدوه طعامنا الذي حصلنا عليه بصعوبة، وراحت تقهقه فجأة.

(*) Frau بالألمانية: سيدة.

(**) Danke Sehr بالألمانية: شكراً جزيلاً.

ناديتها فَزِعاً:

ـ يا عمة!

ـ اسكت، يا سوسويا، اسكت، ودعه يأخذ كل شيء! أي شيء آخر تريد، أيها الألماني، قل لأعطيه لك؟.. ـ وراحت تضحك، وكأنما من فرحة غامرة. قال الألماني:

ـ لفافة، لفافة!

ـ أعطه تبغاً، يا سوسويا.

رددت غاضباً:

ـ لا يوجد تبغ.

ـ عندك تبغ، وأنا أعرف، أعطه!

قلت مقطّعاً العبارة:

ـ لا.. يو.. جد!

ـ أقول لك أعطه، يا سوسويا!

وقلّبت بيديها جيوبي، وأعطت التبغ كلّه للألماني الذي استبدت به الحيرة تماماً.

ـ والآن ارحل، ارحل! ـ ودفعته برفق نحو باب الخروج.

ـ آوه، دانكه شور، فراو، دانكه شور!

ـ اذهب، اذهب! ـ وضحكت العمة بصوت عالٍ.

نظرت إليها مصعوقاً، هل جُنّت عمّتي؟

سألتني العمة:

ـ هل ترى، يا سوسويا؟

ـ دانكه شور! ـ كرر الألماني، وهو يسير مترنِّحاً نحو باب الخروج.

ـ قالت العمة فرحة:

ـ اذهب، اذهب، لا حاجة بك إلى الشكر! ـ ثم عانقتني، وضمّتني إلى صدرها، وفجأة انتحبت باكية.

أسرع الألماني المصعوق في الخروج من الفناء، وبعد أن تلفّت في قلق، سار في الطريق قدُماً.

ـ يا عمة، لماذا تبكين؟ ـ لم أفهم شيئاً، وقد أفزعني كثيراً سلوك عمتي.

ـ لا شيء، يا سوسويا، لا شيء. هل رأيت، أيها الصبي؟ ـ ونظرت في أعقاب الألماني.

كانت العمة تضحك وتبكي وتبلِّل خديْها بالدموع.

ـ هل رأيت، يا سوسويا؟

ماذا يُفترض بي أن أرى؟ لا أدري. ولكن لو أنَّ أحداً من الناس رأى عمتي في هذه اللحظات لقال إنها فقدت عقلها دون شك. لم أر قط مثل تلك السعادة على ملامح وجهها.

في الليل، وأنا مستلقٍ في الفراش، على ظهري، كما هي عادتي دائماً، رحت أتمنّى حلماً لطيفاً. وأنا أحب الأحلام، وعندما لا أرى حلماً أحسب وكأنَّني ميت. يبدو لي الأمر على هذا النحو: عندما نتحرك في النهار، ونتحدّث، ونفعل شيئاً ما، فنحن أحياء، أمّا في الليل فإذا نمنا ولم نشعر بشيء فنحن أموات. والتعيس من لا يرى أحلاماً: أي أنه يكون ميتاً نصف حياته، يعني أنه من المائة عام التي يعيشها (لو عاش هذه المائة) لا يعيش في الحقيقة إلاّ خمسين عاماً. أمّا أنا، فلا! أنا في السادسة عشرة، وأنا طوال هذه الأعوام أرى في كل ليلة أحلاماً. ومن النادر، والنادر جدّاً، لبضع مرات في حياتي، في أغلب الظن، لم أر في الليل حلماً. وأنا أعيش في الليل على هذا النحو: أسير، وأتحدّث، وأفرح، وأبكي، وأتألّم من شيء، وقد أحس بالبرد، وبالحر، وفي كل مرة بعد الأحلام المختلفة، اللطيفة والمزعجة، أستيقظ سعيداً،

لأنني استيقظت، ولأنني كنت أعيش في الليل أيضاً، في الحلم. وأنا أتحدّث مع العمة قبيل النوم، ليستمر في النوم بعد ذلك حديثنا، لأنَّ العمة لا تبوح دائماً بكل ما في قلبها، وأنا أشعر بذلك، بينما في الحلم تكون صادقة حتى النهاية؛ وهي رقيقة جداً، فتقبّلني، وهذا نادراً ما يحدث في اليقظة، بل وإنها تبدي لي وجهاً صارماً في اليقظة عن عمد. وفي الحلم تخبرني بحبها لي أيضاً بشكل مختلف تماماً عما في اليقظة، بل وتقول: «ليس لي أعز منك في الدنيا كلها». وهذا ما أعرفه، ولكنها في اليقظة لا تقوله.

واليوم أيضاً أريد أن أتحدّث إليها قبل النوم، ولكنّني خجل بعد أحداث هذا النهار، وخائف. ولهذا أستلقي في فراشي صامتاً، وأسأل، لا أعرف مَن أسأل، أن يرسل إليَّ حلماً لطيفاً.

ـ سوسويا، أيها الصبي!..

ـ ماذا، يا عمة؟

ـ هل أنت نائم؟

ـ لا، يا عمة، أنَّى لي النوم!..

ـ هل رأيت ذلك الألماني يا سوسويا؟

ـ رأيته، بالطبع، وددت أنني لم أره قط! ـ وتنهّدت وأحسست بمغص في معدتي.

قالت العمة:

ـ انتهت الحرب، يا سوسويا، ألا تفهم؟

ورفعت جذعها على كوعها.

ـ ماذا تقولين، يا عمة؟ مَن قال لك إن الحرب انتهت؟

ـ انتهت الحرب، يا سوسويا، ما دام الألماني جاء إلينا يطلب صدقة!

صمتٌ.

ـ لا تتكدّر، أيها الصبي، لأنني أعطيته كل شيء. عند ذاك كنت مستعدَّة لأن أهدي له البيت!

ـ نعم، يا عمة، أنا أفهم...

ـ انتهت الحرب، يا فتاي!

ـ نعم، انتهت.

صمتت العمة للحظات، ثم أضافت:

ـ هل أنت جائع، يا سوسويا؟

ـ لا، يا عمة، مطلقاً، وأنتِ؟

ـ وأنا أيضاً لا أحس بالجوع.

ـ إذاً، نامي، يا عمتي.

ولم نتحدث أكثر. غير أنَّ كلاًّ منّا لم ينم. انقضى وقت طويل. وتصايحت الديكة. نهضت بهدوء، وسرت نحو سرير العمة. كانت تبتسم في نومها. يبدو أنها كانت تحلم حلماً لطيفاً سارّاً.

تصايحت الديكة مرة أخرى، خرجت إلى الفناء. كان دخان خفيف شفاف يماميّ اللون ينبسط على سطوح البيوت المجاورة، والأسيجة، ومنحدرات التلال.

وتنوّرت الدنيا ببزوغ الفجر.

الرجل الغريب

في الربيع، عندما يذوب الثلج على جبال سوريبي، يبدأ نهر سوبسا بالتمرُّد. يخرج إلى الضفاف، ومثل رجل ممسوس يمزّق الملابس على جسده، ينطلق هادراً باللُّجج الثقيلة المزبدة، ويجتاح كل ما يعترض طريقه. يقتلع الأشجار المعمَّرة، ويجرفها معه، ويلطم السدود بصدره، ويحطم الجسور، وبعد أن يحيلها إلى حطام يحملها في

الدوّامة السريعة بعيداً إلى البحر. ويصبح الإنسان، والحيوان، والخشب، ضحايا للنهر المزمجر. ثم يهدأ سوبسا بالتدرُّج، ويخفت، وتصفو مياهه، ويعود إلى مجراه الأصلي، تاركاً على الضفّتين ركاماً وطيناً خصيباً، وكأن ذلك تكفير منه عن الضرر الذي ألحقه بالبشر والحجر. ومع ذلك فإنَّ الناس يحبّون سوبسا، نهرهم العزيز. وهم لا يخافون منه، ويعرفون عاداته. وهم يقفون، خلال عربداته الربيعية، على ضفتيه، ويلتقطون منه بالخطاطيف قرم الخشب والألواح، ويصطادون السمك المندفع مع الماء الهادر الكدر وقد حاد عن الطريق. وهم يقيمون السدود، ويرفعون الحواجز، ويسدُّون حلقه بما يحمل من الأحجار، والحصى، والقراضة، ويقومون بذلك في كل ربيع بجهد حثيث، وكأنهم يصارعون، لأول مرة، النهر الربيعي المتمرِّد. وأحياناً يكتفي الناس بالوقوف أو المشي على الضفة، مراقبين سوبسا، وازنين في عقولهم ما قد يقذف هذا النهر المزاجيّ الجموح المتقلِّب من أشياء جديدة، وما قد يخطر في باله.

ألقينا ـ أنا، و«نودار العاقل»، وأوتيا كالاندادزه، وكاجورا غاغوا، وياغو أنتيدزه ـ الشبكة بالقرب من نابيتسارا قبل الآخرين. وبالطبع أثار عملنا هذا جميع الصيادين وأغاظهم. وكان بينديكته كوتوبيدزه أكثرهم غيظاً.

اندفع نحونا يصيح ويصرخ:

ـ آه، أيها المحتالون! ماذا سيبقى لي؟ مصارين أسماككم؟ انتقلوا جميعاً قبل أن أقلع مصارينكم بدلاً من السمك!

سأله نودار:

ـ أيعني هذا أنه يجب أن نأكل مصارين أسماكك؟

ـ أصغِ إليَّ، ارفع هذه الشبكة، وأبعد رأسك من هنا، ولا تخرجني عن طوري!

سأله ياغو:

ـ وأين سنلقي الشبكة؟

ـ ألقها حيث تريد.

قال ياغو فرحاً:

ـ أعطاك الله العافية! أتريد أن نلقيها هنا؟!

ـ مرة أخرى، ماذا قلت لكم؟

قلت له متسائلاً:

ـ ما الذي تريده، يا عم بينديكته؟

أجاب بينديكته مندهشاً:

ـ ألم تفهم؟ أعتقد أنني قلت بعبارة فصيحة: أخرج شبكتك، وانزل إلى الأسفل مع التيار! ـ وراح بينديكته بنفسه يجمع معداتنا.

ـ يا رفيق بينديكته! ـ شرع ياغو يقول. احتدّ بينديكته وقال:

ـ ومَن هو رفيقك هذا، يا أبا المُخاط؟

قال نودار العاقل:

ـ اسمع، سوبسا ليس ملكاً لك على ما يبدو؟

ـ بلى ملكي، وكيف لا! لم تكن أنت قد جئت إلى الدنيا حين نصبت الشبكة هنا!

ـ اسمع، يا عم بينديكته، إنَّ هذا النهر ليس لي، وليس لك، إنه ملك للسلطة السوڤييتية، وحتى السمك الذي يسبح فيه ملك للسلطة السوڤييتية!

صرخ بينديكته:

ـ كيف تجرؤ، أيها الجمجمة الفارغة، أن تعلِّمني ما هو لي وما هو للدولة؟

قال نودار:

ـ مسطور في الدستور أنَّ كل واحد منا يملك الحق في الراحة، وبالطبع في الصيد أيضاً.

ـ أنت تعلِّمني ما هو مسطور في الدستور؟ أنا الرجل الذي عايشت خمسة دساتير!

ـ هذا ما هو مسطور فيه، ماذا أستطيع أن أفعل!.. ـ وبسط نودار ذراعيه بتأسف.

صاح بينديكته:

ـ ما الذي سُطر فيه؟ سُطر فيه أنَّ نودار العاقل وسوسويا الأحمق انتزعا اللقمة من فم بينديكته كوتوبيدزه!

ـ لا، ليس ما تقول تماماً... ولكن... ليأكلوا جميعاً!

ـ مسطور هكذا؟ ـ ووصوص بينديكته عينيه ـ ولم يجئ فيه أنَّ الله خلق الشيوخ والصغار، وأن الصغار من أمثالك يجب أن يعاملوا الشيوخ باحترام؟

ـ لم أقرأه، يبدو أن هذا لم يُسطر هناك!

ـ لم يُسطر؟

ـ لا!

ـ يعني غير مكتوب؟

قال ياغو:

ـ غير مكتوب، على الإطلاق!

ـ أه.. يعني هذا غير مكتوب، بل مكتوب أن تأكلوا أنتم، وأنا أنظر إلى أفواهكم؟

قلت مؤمِّلاً إيّاه:

ـ توجد الكفاية في سوبسا للجميع، يا عم بينديكته!

سأل بينديكته مستمراً في جداله:

ـ لا، أنا أسألك هل كُتب هذا؟

قلت بحدّة:

ـ غير مكتوب!

ـ أهذا ما تسميه دستوركم؟ ـ واستل بينديكته الفأس من حزامه، وتقدَّم من الشبكة بتحدٍّ.

ـ ماذا؟ ماذا قال عن الدستور؟ ـ تحرك أوتيا كالاندادزه فجأة.

التفت بينديكته:

ـ ماذا قلت أنا، أيها الصبي؟

ـ ويسأل أيضاً! ألم تسمعوا؟ قال إنه عايش خمسة دساتير، فأي دستور هذا! ألا يعجبك دستورنا؟ ـ ووضع أوتيا يديه على خاصرتيه.

قال بينديكته:

ـ لا تتفوّه بكلام لم أقله، يا صبي، أنا لم أقل ذلك!

سأل نودار:

ـ حقًّا لم تقل لي؟ وعندما جئت إلى هنا، وأعلنت أن هذا النهر لك، وأخذت تهدِّد بأنك تفعل كذا وكذا، وأنك تقلع مصاريننا... أنت، يا عمي العزيز بينديكته، صاحب ملكية خاصّة حقيقي، وأثر ضار من الآثار المتبقّية من الرأسمالية!

ـ كيف تجرؤ على أن تقول لي هذا؟ ـ وانخفض صوت بينديكته إلى حدّ الهمس اضطراباً. فتدخّل ياغو أنتيدزه:

ـ ألم تقل ذلك؟

ـ ها نحن نفضحك الآن، عند ذاك لن ينفعك شيء حتى لو ضربت رأسك بالحائط!

ـ أين ضميركم، أيها المتبطِّلون؟ على الأقل اسحبوا الشبكة إلى الأعلى قليلاً، يا خائني المسيح!

فوعدناه أن نسحبها إلى الأعلى قليلاً.

ـ ألقى بينديكته فأسه على كتفه، ونظر إلينا طويلاً، وبعد ذلك بصق

و مضى. لم نتمالك أنفسنا فانفجرنا ضاحكين. التفت إلينا وردّد:

ـ أي صنف من الناس أنتم، أيها الملاعين! بلا ضمير!

قلت أدعوه إلينا:

ـ تعال إلينا، يا عم بينديكته، سنقدِّم لك تبغاً جيداً!

حكّ بينديكته قذاله، وفكّر بعض الوقت، وجاء إلينا. قدَّمت له تبغاً. لف بينديكته لفافة، وأشعلها، ودخنّا نحن أيضاً.

شرع بينديكته يتحدّث بكل هدوء:

ـ يا أطفال، أنتم لا تزالون تجهلون أنَّ للنهر، مثلما للغابة، قوانينه: سواء آصطدتم فيلاً أم فأراً أم سمكة أم حوتاً، فإن الصياد يجب أن يحترم الصياد الآخر، وإذا وجد صياد جذر «جن سن»(*) وعلّم المكان الذي وجده فيه، ثم يأتي صياد آخر إلى المكان ذاته ويسرق الجذر يُقتل. هكذا! يجب أن يساعد الصيادُ الصيادَ الآخر. أتظنونني لا أريد أن تصطادوا السمك؟ ولكن على ألاّ يقذ ب الواحد من الآخر بهذا الشكل. انظروا، إنَّ لاديكو نصب شبكته في مكان أوطأ من المكان الذي كنت أقف فيه. وأين هو، وعلى أيّ مسافة؟ إنه لو أطلق الرصاص عليّ لما أصابني. ولماذا؟ لأنني لا أقترب منه إلى حدّ مرمى بندقية. فذلك لا يجوز. أمّا أنتم، فأنتم لا تدخلون في مرمى البندقية فقط، بل إنكم تقتربون من أنفي أيضاً. وهذا لا يصح، لا... ـ ونهض بينديكته ـ والآن كونوا أذكياء، وابتعدوا بحذر حتى لا يجرفكم النهر، وإلاّ فإنكم لن تصطادوا السمك فقط، بل إنَّ السمك سيصطادكم. هل فهمتم؟

وانصرف بينديكته. ونهضنا نحن أيضاً، وجمعنا أشياءنا، وصعدنا باتجاه التيار.

نصبنا في الأعلى خيمة. كانت المياه الكدرة تحمل معها أسماك «أبو شنب»، وتسقطها في الشبكة. وها هي سمكة تلبط في الفخ

(*) Gin -seng: الجِنْسة أو الجِنْسينغ: نبتة صينية.

تطلب النجدة، ولكن من أين لها النجدة! ونمسك السمكة اللّدنة الزَّلِقة من خياشيمها، ونقذفها إلى الضفّة.

قال نودار فجأة:

ـ انظر، يا سوسويا، هذه صديقتك خاتيا قادمة!

التفتّ إلى الخلف. كانت خاتيا واقفة عند الخيمة. هتفت:

ـ خاتيا!

لوّحت بذراعها، وهتفت بكلام أيضاً، إلاّ أن ضجيج النهر غطّى على صوتها، ولم أتبيَّن كلماتها.

هتفتُ ثانية:

ـ ماذا بك، يا خاتيا؟ لماذا جئت؟

ضمّت كفّيها حول فمها كالبوق، وهتفت بشيء. ولم أفهم شيئاً أيضاً.

سألت نودار:

ـ ماذا تريد؟

ـ لا أسمع شيئاً أيضاً، اصعد إلى الضفة، واعرف الأمر!

سرت نحو الخيمة.

ـ ما الخبر، يا خاتيا؟

ـ مرحباً، يا سوسويا ـ ومدّت لي يدها.

ـ وكأنَّك لم تريني اليوم! أنا أعرف لماذا جئت! ـ وصافحتها.

ـ أريد أن أصطاد السمك معك، يا سوسويا!

ـ هذا غير ممكن، يا خاتيا، إنَّ سوبسا كالمجنون. أتسمعين هديره؟

قالت خاتيا:

ـ سوسويا، قدني إلى مكان الشبكة!

قال أوتيا كالاندادزه:

ـ هل جُننت؟ ـ وكان قد خرج من الخيمة.

توسّلت خاتيا، ومطّت شفتيها استياءً وحزناً:

ـ أريد أن أصيد السمك أيضاً، فلا تكونوا عديمي الضمير. خذوني إلى حيث الشبكة!

ـ ولكن السمك هنا، خذي منه ما تشائين! ـ ووضع ياغو أمامها دلواً مليئاً بالسمك.

ـ لا أريده بهذا الشكل! أريد أن أصطاد بنفسي، وبيدي!

ـ اسمعي، من الأفضل أن تعودي إلى البيت.

ـ لن أعود! ـ وجلست خاتيا على الرمل الحار.

ـ ادخلي إلى الخيمة، على الأقل! سيذوب دماغك تحت أشعة الشمس!

ـ لا.

صحت غاضباً:

ـ لا؟ اجلسي إذاً في مكانك. ـ وسرت نحو الشبكة.

سألني نودار:

ـ ماذا تريد خاتيا؟

ـ تريد أن تصطاد السمك.

ـ إذاً، جئ بها إلى هنا!

ـ هل جننت؟

ـ إذاً، فسآتي أنا بها!

ـ توقّف، بحق الله!

ـ لا تخف، لن أغرق حبّك ـ وضحك نودار، وركض نحو الخيمة.

جلسنا، نحن الثلاثة، عند الشبكة. ولم تظهر سمكة. جلسنا، ورحنا ننتظر. ألقى نودار في النهر العوالق التي خلّفها الماء في الشبكة، وغنّى:

ذات مرة بَصَّرت الرنجة

البخت لأبي شنب
مصير أسود يا صاح
امرأة أشعلت النار في الصباح...

*

سألتنا خاتيا:

ـ أين سمككم؟

أجاب نودار:

ـ أرسلناه في شأن من الشؤون، سيعود قريباً على جناح السرعة!

ولكنَّ السمك لم يصل.

قلت لنودار:

ـ يا للعار! كان يجب أن يكون هنا الكثير منه الآن!

فجأة قذفت الموجة في الشبكة بأبي شنب مُكتنز، فاندفعت ونودار نحوه، إلاّ أنَّ أبا شنب لم يمسك باليد، وتقلّب في الموجة، ووقع في الشبكة ثانية، ثم تقلّب مرة أخرى. نزلت ونودار إلى الماء، واصطدنا أبا شنب بعد تعب شديد. أمسكه نودار من خياشيمه وأخرجه من الماء.

ـ لحسن حظك، يا خاتيا! ـ ووضع نودار السمكة على مقربة شديدة من خاتيا.

لطم أبو شنب خاتيا في صدرها، فأمسكته بكلتا يديها، وضمّته إلى خدِّها.

ـ أوه، ما أبرده، يا سوسويا!

قلتُ محذِّراً:

ـ إياك أن تلقيه في الماء، كما فعلت في المرة الماضية!

قالت خاتيا تُطمئنني:

ـ لا تقلق، لن أرميه!

عدت إلى النهر مرة أخرى، وفجأة أحسست أنَّ جبيني بارد، وأن عينيَّ تنبهران: كان سوبسا يجرف شجرة كستناء هائلة، وكان يجرفها نحونا تماماً.

صرخت:

ـ نودار، أعطني المُردي(*)!

قفز نودار كالملدوغ.

ـ خاتيا، تعالي بسرعة!

وانطلق نحو خاتيا، وفجأة أحسست بصدمة رهيبة، فرقع شيء بشكل مصمّ، وأحسستني أتقلّب في الهواء. فأمامي اندفع الشطّ والأولاد الخارجون من الخيمة متراكضين وأيديهم ممدودة، وأفواههم فاغرة. ثم سقطت في حفرة مُعتمة رطبة باردة بشكل رهيب، وامتلأت عيناي وأذناي وفمي بالرمل. ثم رمتني موجة هائلة إلى مكان ما. «لا تفقد الوعي، لا تفقد الوعي ـ يقول لي صوت ـ إلى اليمين، أكثر، أكثر، زد قليلاً، سوسويا!.» فتحتُ عينيَّ. لا أرى شيئاً، وأبتلع الماء. أريد هواء! إذا لم أتنفس الآن أموت، ستنفجر رئتاي. بسرعة! بسرعة! اللعنة، فلأمت، ولكن يجب أن أتنفّس! وفجأة رحت أتنفّس بعمق، أتنفّس بعمق شديد... عجيب! لا ماء! وأفتح عيني. وأرى وجوه الأولاد المذعورة... إنهم يركضون إلى مكان ما، ويصرخون. يا للحمقى، ألا يرون أنني خرجت إلى الشطّ؟

ـ هنا، يا أولاد، أنا هنا! ـ أصيح، ولا أسمع صياحي. ثم انفجر شيء في أذني. في بادئ الأمر سمعت هدير النهر، ثم ضربات قلبي، وأخيراً...

ـ خاتـ... يا! خاتـ...ـيا! خاتـ...ـيا!!! صياح لا ينتهي.

ـ خاتيا! ـ صاح الأولاد، وتراكضوا حذاء الشطّ.

ـ خاتـ...ـيا!

(*) المُرْديُّ: خشبة تُدفع بها السفينة.

لا أتذكّر كيف وجدت نفسي بالقرب من الأولاد، لا أتذكّر سوى أن نودار والجماعة كلها أبقوني على الشطّ، وصرخت، وانتزعت نفسي، ورأيت النهر يجرف خاتيا، ولا أحد يقدم على منازلة الموت المحتّم. وفجأة من على الشطّ الآخر ألقى شخص نفسه في النهر الهادر، قفز، دون أن يخلع ملابسه، في اللجج المكدرة المزمجرة. ضربات قوية من ذراعيه... ويقترب من خاتيا. إنَّ التيار يجرفها، والرجل يسبح خلفها، وأخيراً أمسك بها، ألقاها على ظهره. جرف سوبسا الاثنين حتى بناء المدرسة، إلاّ أن الرجل تغلب على النهر قرب البناء، وسبح باتجاه الشطّ، وصعد إلى اليابسة، ومدّد خاتيا على الرمل، ووضع أذنه على صدرها، ثم حملها على ذراعيه كالطفل، ونقلها إلى فناء المدرسة.

كانت خاتيا مطروحة على العشب هناك. تجمَّعت القرية كلها حولها. أجرى لها الرجل تنفُّساً صناعياً، وهو راكع على ركبة واحدة. جلست على مقربة. نظر الرجل إليَّ بطرف عينه، فإذا به داتيكو! واصل عمله صامتاً لمدة طويلة، وبهدوء. والآن أخذ يفرك صدغيها. قلت:

ـ خاتيا!

صمتت.

كرّرت القول:

ـ خاتيا! خاتيا!

تحرّكت أهدابها قليلاً، ثم فتحت عينيها ببطء، وقالت بخفوت وهدوء، أغلب الظن لأستطيع أنا وحدي أن أسمعها:

ـ سوسويا!

سأل أحد الناس:

ـ هل هي حيّة؟

قال داتيكو:

ـ حيّة! ـ ونهض بطول قامته.

سرت همهمة خافتة بين الجمع وكأنها الريح.

خرج داتيكو إلى وسط الجمع نحيفاً، ذا لحية سوداء، وملابس ممزّقة مبلَّلة. حدّق إلى الناس، ثم بكل منهم على انفراد. وكل من حدق إليه طأطأ رأسه بارتباك وتراجع. صمت داتيكو منتظراً أن يتكلم الناس، غير أنَّ الناس صمتوا، صمت القبور، وفزعت أنا من هذا الصمت، مثلما فزعت في اليوم الأول من الحرب. انتظر داتيكو، إلاّ أنَّ أحداً لم ينبس ببنت شفة. عندئذ انتزع المسدس من خصره، وألقاه على الأرض. لكنَّ الناس مضوا في صمتهم.

قال داتيكو متفجِّعاً:

ـ يا ناس! ـ غير أنَّ الناس بدوا وكأنهم لم يسمعوا.

مشوا إلى بوابة المدرسة منكسي الرؤوس، صامتين، غير ناظرين إلى داتيكو. وبقي داتيكو وحده في تلك الحلقة الخرساء الصمّاء المنحلّة، وكأنه متسوِّل عند مدخل الكنيسة، وكانت عيناه تستجديانهم صدقة، اعترافاً بأنه إنسان، سواء أعاقبوه أم صفحوا عنه.

سألتها:

ـ أتستطيعين أن تمشي، يا خاتيا؟

ـ نعم، يا سوسويا، أستطيع! ـ ونهضت.

طوّقتها من خصرها بحذر، وقدتها نحو بوابة الخروج. وعندما حاذينا داتيكو توقفت دون إرادتي. قال:

ـ ماذا أفعل الآن، يا سوسويا؟

ـ لا أعرف، يا داتيكو!

ـ وأنت أيضاً لا تعرف، يا فتى...

نكست رأسي. استدار داتيكو، ونظر إلى الطريق. كان الطريق مقفراً. خرج من البوابة كالسكران، وتوقّف، وسألني ثانية:

ـ إلى أين أذهب الآن، يا سوسويا؟

لم أعرف إلى أين يجب أن يذهب داتيكو، ولم أستطع أن أرد عليه بكلمة. وفجأة هزّ ذراعه، واستدار، ومضى.

سار مُطرقاً بطيئاً ثقيل الخطى في الطريق المترب الكثير الحصى، وتوقّف عند مفترق الطرق بادي التردُّد. كان على يسار الطريق درب يؤدي إلى الغابة. توقّف داتيكو قليلاً، ثم سار قدماً. إلى أين!؟ في أغلب الظن إنه هو نفسه لم يكن يعرف.

كان سوبسا ينطلق نحو الغرب بالجذوع والأغصان المقطوعة، وبأشجار بكاملها. وكان القطيع يعود من المرعى يجلجل بأجراسه. وفي المدى البعيد، حيث تلاشى داتيكو انحدرت الشمس الحمراء الكبيرة ببطء نحو الأفق.

أرى الشمس.. أراكم

تحية، يا بيجان! هذا أنا، سوسويا، يبدو أنك غاضب عليَّ، لأنني لم أزرك منذ وقت طويل. انظر، هذا هو السرخس، وهذه شجرة العليق التي غرستها خاتيا، فقد أزهرت حتّى قبل أن يتساقط العليق. لو تعرف كم من أشياء حدثت خلال هذه الفترة! لا أعرف من أين أبدأ! انتظر، دعني أقتلع هذه الأعشاب الطفيلية، ثم أقص عليك كل ما حدث.

أولاً، يا بيجان، الحرب انتهت. أسامع أنت؟ انتهت الحرب! والمرء لا يكاد يتعرّف على قريتنا. فكم عاد إليها من الناس! عاد ابن العم غيراسيم، وعاد ابن نينو، وعاد يفغيني زوج مينا. ووالد نودار أيضاً، ووالد أوتيا، عاد مقطوع الساق، لكن لا أحد ينظر إلى ذلك الآن! ولم يلقَ لوكا ابنه كوكورا، فإنَّ كوكورا لم يعد. كما لم يعد ملخاز زوج ماشيكو السوداء. لم يعد الكثيرون إلى بيوتهم...وأصبح الطعام أيسر منالاً، والملح موجود الآن، يا بيجان، والذرة أكثر بكثير... ومنذ أن

رحلت عنّا جرت في قريتنا عدة حفلات زفاف، وكنت مدعوّاً في كل حفلة منها، وقد جعلوني أشرب النبيذ كالكبار. أتذكر غوغيا تسرتسڤادزه؟ إنه أب لعشرة أولاد. وماذا تعتقد؟ لقد عاد، وولدت له تاليكو الابن الحادي عشر شوكريا. وضحكت القرية، يا بيجان! لأن تاليكو كانت على وشك الوضع حين وسوس لها الشيطان أن تتسلق شجرة الإجّاص البري لتقطف الإجاص، وكادت تلد هناك. وقد بسطوا الفُرُش تحت هذه الشجرة، غير أنها استطاعت أن تنزل. وقال غوغيا: «لماذا القلق؟ لو وضعت على الشجرة لأنزلنا الوليد على الساقية». وقد سمّوا الطفل شوكريا، ولكنني أسمّيه إجاصاً على أي حال... أليس هذا مضحكاً، يا بيجان؟ الإجاص أيضاً اسم لا بأس به، ها؟ ابتكرته أنا. وقد ولد ثلاثة عشر طفلاً آخر خلال هذه المدة، فضلاً عن هذا الطفل. ولدينا فرحة كبيرة أخرى، وأنا أعرف أنها ستسرُّك أيضاً. سافرت خاتيا مع أبيها إلى باتومي لرؤية الطبيب، وهناك سيجرون لها عملية، وستُبصر خاتيا. وبعد ذلك... أنت تعرف مقدار حبّي لخاتيا، يا بيجان، سأتزوّجها، وسأقيم حفلة زفاف كبيرة، وأدعو كل القرية، الجميع... وفيما بعد سيكون لي أيضاً أطفال، أنت تفهم... وإذا لم تنجح العملية؟ إنَّ عمتي أيضاً تسألني هذا السؤال كل ليلة حين نتبادل الحديث قبيل النوم، إنها تسأل ماذا سأفعل عندئذ!؟ وماذا عليّ أن أفعل؟سأتزوّج خاتيا، على أي حال، وستكون زوجتي، لأن خاتيا لا تستطيع أن تعيش بدوني، وأنا لا أستطيع أن أعيش بدون خاتيا. ألم تحب أنت صاحبتك مينودورا؟ أنا أيضاً أحب صاحبتي خاتيا. غير أنني أخاف أن تراني، فلا أُعجبها، رغم أن عمتي تقول لي غالباً إنني كبرت، وصرت راشداً، وأصبحت رجلاً، وتقول بصراحة إنها لا تعرفني لكثرة ما تغيّرت، ولكن... لا، لا يمكن إلاّ أن أروق لخاتيا. إنها تراني رغم عماها، كما تقول هي نفسها.

وعمّتي أيضاً تحب. إنها في كل مرة تسأل كوتيا ساعي البريد: «ألا توجد رسائل باسمي؟» وهي تستقبل كل السيارات العابرة. وأنا وأنت نعرف من تنتظر، ولكنه لن يعود أبداً. لأنها هي وحدها التي تحب. وأنا أُشفق عليها. ولكن ما العمل، يا بيجان! لا يستطيع أحد أن يساعد هنا. وأنا أيضاً راشد، وقد أنهيت الدراسة في هذا العام. وسأدخل إلى المعهد، وسأدرس، وسأصبح طبيباً. وسأجري أنا، بيديّ، العملية لخاتيا، إذا...

ـ هل أصابك مسّ، مع مَن تتحدث؟ ـ سمعت فجأة صوتاً مألوفاً.

التفت، فرأيت العم غيراسيم منتصباً أمامي.

ـ مرحباً، يا عم غيراسيم!

ـ مرحباً، ماذا تعمل هنا؟

ـ لا شيء، مجرد أنني أردت أن أتمشّى وحدي.

قال العم غيراسيم:

ـ اذهب إلى مكتب البريد! لقد عاد بيساريون وابنته خاتيا! ـ وربّت خدي.

سألت بقلب واجم:

ـ وماذا؟

ـ أسرع للقائهما!

لم أنتظر حتى يحدّثني غيراسيم بشيء آخر، وعدوت هابطاً التل لا ألوي على شيء.

أسرع، يا سوسويا، عجّل، إن هذه الطريق طويلة، فشُقَّ لك درباً مستقيماً، تعجَّل!.. وتصفر الريح في أذني، ويخفق قلبي، وتلتوي قدماي... لو أثب فوق هذه الحفرة. إنَّ خاتيا تبصر... يا ربي! وقفزت! تعجَّل! وهذه حفرة أخرى! وقفزت عنها أيضاً... والآن لو أعدو إلى تلك الشجرة دون أن ألتقط أنفاسي... هذه هي الشجرة.

بضع خطوات أخرى!.. وصلت. أوه، والآن لو أعد حتى الخمسين يعني أنَّ خاتيا أصبحت تبصر! واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة، ستة، سبعة، ثمانية، تسعة، عشرة، أحد عشر... اثنا عشر... عشرون... ثلاثون... أربعون، واحد وأربعون، اثنان وأربعون، ثلاثة وأربعون، أربعة وأربعون، خمسة وأربعون...

ـ خا...تـ..يا!

التفتت خاتيا وبيساريون على صيحتي. وصلت إليهما لاهثاً.

قالت خاتيا بخفوت:

ـ سوسويا!

نظرت إليها. كان وجهها خالياً من الدم تماماً. وكانت عيناها الزرقاوان الواسعتان تحدّقان إلى البعيد عبري، كما كانتا تحدّقان من قبل.

ـ يا عمّ بيساريون! ـ كان بيساريون واقفاً مسبل العينين، منكَّس الرأس ـ ما الأمر، يا عم بيساريون؟

ـ ...

ـ خاتيا!!

قالت خاتيا:

ـ يقولون عودا في الربيع المقبل، من غير الممكن إجراء العملية في العام الحالي.

«يا رب، لماذا لم أعد حتى الخمسين» ـ وشعرت بالغصة المألوفة في حلقي، وغطيت وجهي براحتيّ.

سألت خاتيا:

ـ كيف حالك، يا سوسويا، وماذا تعمل؟

اقتربت منها، وطوّقتها، وقبّلتها في خدها. أخرج العم بيساريون المنديل من جيبه، ومسّ عينيه الجافتين، وسعل، وانصرف.

كرّرت خاتيا:

ـ كيف حالك، يا سوسويا؟ ـ وابتسمت.

ـ اطمئني، يا خاتيا، فقد وعدك الطبيب في العام المقبل! ـ قلت ذلك، وحدّقت إلى وجهها، ومططت جلد صدغيها. صارت عينا خاتيا طويلتين كلوزتين، وازدادتا جمالاً. قالت:

ـ نعم، يا سوسويا، إلى العام المقبل.

ـ اطمئني، يا خاتيا!

ـ أنا مطمئنة، يا سوسويا!

ـ إذا لم يردّ إليك بصرك، فسأردّه أنا، سأصير طبيباً وأجري لك العملية بنفسي.

ـ أعرف، يا سوسويا.

ـ وإذا لم أستطع، فلا تهتمّي، ألست ترينني؟

ـ نعم، أنا أراك، يا سوسويا.

ـ وماذا تريدين أكثر؟!

ـ لا أريد أكثر من هذا.

*

إلى أين تجري، أيها الدرب، وإلى أين تمضي بقريتي؟ أتتذكّر كيف أنك انتزعت منّا، في ذلك اليوم الرهيب، كل شيء، ثم أعدت كل ما قدرت عليه؟ أنا شاكر لك صنيعك، أيها الدرب. والآن آن أواننا. ستضمّني وخاتيا في رحابك، ولن تحمل نبأنا إلى القرية في تبليغات رسمية، وظروف مطبوعة عناوينها. فإننا سنعود بأنفسنا. سنعود ميمّمين وجوهنا شطر المشرق الذهبي، وعندئذ سترتفع الشمس من وراء جبال سوريبي، وتقول خاتيا بصوت عالٍ:

ـ أيُّها الناس، هذه أنا، خاتيا. وأنا أراكم!..

المحتويات

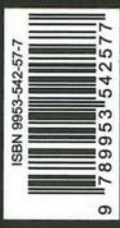


تدور أحداث رواية «أرى الشمس» خلال سنوات الحرب العالمية الأولى في قرية جورجية هادئة، تصور الوضع المأساوي الذي كان يعيشه القرويون وخوفهم على أحبائهم الذين يقاتلون على الجبهة ضد ألمانيا.

«أرى الشمس» عبارة كانت ترددها الفتاة الصغيرة خاتيا، العمياء ذات العينين الزرقاوين الجميلتين، وهي عبارة كانت تروق لصديقها الصبي سوسويا الذي كان ينتظر أن تسترد بصرها لتراه، ألم يقل الطبيب لها: «طالما أنت ترين الشمس فإن الأمل الكبير في شفائك».

في «أرى الشمس» يعود المحاربون ميمّمين وجوههم شطر المشرق الذهبي، وعندئذ سترتفع الشمس من وراء الجبال ، وتقول خاتيا بصوت عال «أيها الناس» هذه أنا وأنا أراكم ... أنا «أرى الشمس».

تجدر الإشارة إلى أن نودار منح سنة 1966 جائزة الشباب الأولى عن روايتيه «أنا والجدة وإلكو وإيلاريون» و «أرى الشمس».


ISBN 9953-542-57-7


دار الحرف العربي
للطباعة والنشر والتوزيع